ـ أحمد السليماني

مدينة المدية ونواحيها في العهد القديم

عندما ننظر إلى مكانة المدية في التاريخ القديم يواجهنا بصفة مستمرة سؤال ملح، كيف كانت المدينة في القديم وفي أي عصر ظهرت بالذات. . . .

ولكن حسب المعطيات التاريخية والنصوص والوثائق التي هي بين أيدينا نجد أن مدينة المدية في العهد القديم لم تكن مدينة كبيرة لها وزنها الاقتصادي والسياسي مثل قيرتا أو قرطاجنة أو ايكوسيوم أو يول ولا أعتقد أن المدينة كانت موجودة قبل القرن الأول الميلادي أي في عهد موريطانية القيصرية التي تميزت ببروز نجم يوبا الثاني الذي حكم في يول (أي شرشال) والذي تزعم عهدا جديدا عهد مملكة موريطانيا القيصرية، وهو يمثل الملك المثقف الذي شجع وناصر الفنون والعلوم بكل ما أوتي من قوة وقد ازدهرت في عهد هذا الملك الشاب الفنون الجميلة من نحت ورسم ونقش وطرب وموسيقى وغناء ورقص، فكان عصره هذا عصرا ذهبيا وفي هذا العهد بالذات برزت إلى الوجود مدن جزائرية رومانية الثقافة لكنها جزائرية الروح ونعني بذلك أن أهالي الجزائر أي النوميديين قد ساهموا مساهمة فعالة في ظهور الحضارة الرومانية في الجزائر. فعمال النحت وعمال البناء والرسامون والنحاتون كان كثير منهم جزائريين، وحتى عالم الفلسفة الدينية نجد فيما بعد ظهور القديس أو غسطين الذي يعد مفكرا جزائريا أثرى ثقافة الكنيسة المسيحية بفكره النير، ونضرب مثلا على ذلك بكتابه مدينة الله الذي يعد مصدرا رئيسيا في تاريخ الأديان ولكنه لايسبق الكتب

السماوية كالتوراة والانجيل التي تعد مصادر أساسية لايمكن الاستغناء عنها في البرهنة على وجود الله، ومما يجب ذكره أن القديس أوغسطين ظهر قبل الفتح الاسلامي بقرن من الزمان.

ونعود إلى تاريخ مدينة المدية في القديم، فيبدو أن المدينة لم تكن موجودة في العهد الفنيقي المبكر أو البوني أي مابين القرن العاشر ق.م حتى سقوط قرطاجنة في 146 ق.م وذلك لأننا لم نعثر على أي دليل مادي أثري يبين أن لمبدية كما كانت تدعى في العهد الروماني كان لها وجود في عهد أبعد من ذلك.

وفي دراسة التاريخ لابد من الاعتماد على دلالات الآثار والمصادر المكتوبة أو المسكوكات أي النقود لكي نبرهن على الحقائق التاريخية الملموسة فلمدية "LAMBADIA" يبدو أنها ظهرت في القرن الأول الميلادي أو في القرن الثاني الميلادي على أكبر تقدير ولكنها لم تكن مدينة كبيرة ويرجح أو يغلب على الظن أنها كانت مدينة استعمارية تقيم فيها جالية رومانية مع خليط من الأهالي ولكن ليست لنا معلومات كافية لكي نؤكد قيام تعايش ووئام بين الجالية الرومانية وأهالي المدية من البربر أي السكان الأصليين للمنطقة، لأن في العهد القديم لم يكن وجود لا للأتراك ولا للعرب، وإنما كان هناك وجود بربري في لمبدية وما جاورها من مناطق جبلية وهناك دليل قاطع أن المدية في القديم كان يقطنها الأمازيغ أو البربر فكثير من أسماء الجبال والسهول هي أسماء بربرية فتلاعيش اسم بربري وتامزقيدة اسم بربري، وتبحرين اسم بربري، وحربيل اسم بربري. وفي منطقة بجاية يوجد نفس الاسم وهو حربيل فهذا يدل على أن منطقة المدية في القديم كان يقطنها البربر أي قبل الفتح الاسلامي، ولكنه مع مجيء موسى بن نصير وعقبة بن نافع بجيوش الفاتحين المسلمين تغيرت الأوضاع وأصبحنا نعيش تاريخا جديدا امتاز بظهور حضارة سامية شعارها العروبة والاسلام وامتاز الفتح العربي الأول بمقاومة البربر للاسلام وذلك بسبب جهلهم لغاية الاسلام، وقاوم البربر الاسلام بدوافع اقليمية ضيقة لاداعي للدخول في تفاصيلها في هذا المقام الآن.

لا ندري بالضبط أصل التسمية الرومانية "LAMBDIA" التي أطلقت على مدينة المدية في عهد الاحتلال الروماني، ولكن حسب ما وصلنا من معلومات تاريخية فإنه عثر على آثار أثرية وتاريخية تعود إلى الحقبة الرومانية في العهد الفرنسي الاستعماري وذلك أثناء حفر أساس بناء المستشفى العسكري فعثر الفرنسيون من عسكريين وبناءين على رفات أي هياكل عظيمة قديمة مع تحف وزهرية عليها صورة امرأة وفخار ونقود من البرونز ونانوسة لونها رمادي وبعد العثور على هذه الآثار نجد أن مترجم الجيش الفرنسي ويدعى فرعون (1) طالب بوضع جرد واحصائية شاملة للآثار الرومانية الموجودة على أنقاض مدينة لمبدية التي عثر على جزء كبير منها تحت أساس وأنقاض المستشفى الذي شرع الفرنسيون في بنائه بالمدية بعدما تمت لهم السيطرة على المدينة في 1856 وقد طالب فرعون هذا من المراسلين حسبما جاء في تقريره لـ 1856 والمنشور بالمجلة الافريقية "R.A" بأن يقوم المراسلون المختصون في عين المكان في المدية بكل جهد من أجل العثور على النقش الحجري الذي أشار إليه الجنرال دوفيفيي "Le Général Duvivier" وفي هذا النقش الحجري تم نقش كتابة جاء فيها مايلي :

D.M. – M

Heppeunio Cassiano–Midioe

– Cioe P...X... – CUR II. I–Cioe P...X

ويتابع فرعون حديثه بنفس المقالة الصغيرة المنشورة بالمجلة الافريقية عدد سنة 1856 : أنه من باب الاهتمام البالغ أن يتم العثور على أثر اثنين من شواهد القبور "Deuxépitaphes" اللذين تم اكتشافهما أثناء القيام بأعمال الحفر من أجل بناء المستشفى وقد تم وضع شواهد القبور هذه في دار الخزينة القديمة (2).

1) ـ أنظر المجلة الافريقية، عدد 1856 ـ 1857، ص 139.
2) ـ نفس المصدر، المجلة الافريقية 1856، ص 139 تقرير عن المدية.

ويشير فرعون ولا ندري أصله بالضبط هل هو يهودي جزائري أم عربي أم ماذا. على كل حال يشير أن هناك قطعة من حجر منقوش يعود إلى العهد الروماني استعملت في قناة ماء المشتلة. . .

وكانت لمبدية مدينة رومانية مثل باقي مدن موريطانية القيصرية في القرن الأول الميلادي وقد عرفت منطقة أو ناحية المدية ظهور مدن رومانية كثيرة في هذه الفترة بالذات فكانت مدينة أوزيا وهي سور الغزلان اليوم، مركزا عسكريا مهما تم تشييد مباني المدينة على سفح نجد مرتفع يقع بين نهرين.

وعن طريق هذا النجد يمكن الالتحاق بالغرب أو الجنوب بكل سهولة وكانت أوزيا هذه بلدية في البداية ثم جعل منها سبتيموس سواريوس مستعمرة (1).

وأقام المستعمرون الرومان مدينة "Rapidum" وهي سور جواب اليوم، على منحدر قائم في سهل بني سليمان الشهير. بينما كانت تنارامورا "Thanaramusa" وهي تمثل مدينة البرواقية في القديم ولو أنها تبعد عن المدينة الحديثة بكيلومترين تقريبا وكانت تنازاموزا موجودة في الموقع الذي بنى فيه موقع سجن البرواقية (2)، كما كانت لمبدية تحتل مكان المدية كما أشرت إلى ذلك آنفا.

ويحدد ستيفان قزال المؤرخ الفرنسي الشهير صاحب كتاب افريقيا الشمالية في ثمانية مجلدات، في كتابه الأطلس الأثري للجزائر، المواقع الأثرية الرومانية لمنطقة المدية أو نواحي المدية على الأصح فيذكر في كتابه الآنف ذكره "Atlas Archéologique" في الورقة 14، أرقام 8 و 9 و 10. اشارات إلى مواقع اثرية رومانية في جهة تابلاط

1) ـ انظر شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، مدن موريطانيا القيصرية ص 237 ـ 238
2) ـ انظر نفس المصدر ص 238.

بالمنطقة الجبلية منها ولكن جرى فيما بعد بحث مركز لاكتشاف المواقع الأثرية الرومانية بشكل محدد ومعمق فقام بيتون "Piton" (1)، وهو مجاز في الحقوق وعضو الجمعية التاريخية لناحية سطيف بدراسة ميدانية مكنته من التعرف عن كثب لبقايا آثار الاحتلال الروماني في منطقة تابلاط.

وقد وجدت آثار عديدة في أماكن مختلفة في المنطقة والتي كانت مرتبطة جنوبا بخط طريق أومال ـ البرواقية، ومن جهة أخرى نجدها مرتبطة من الناحية الغربية ببن شكاو.

ويشير بيتون أن الآثار الرومانية الهامة التي تم دراستها بالقرب من تابلاط بما يقرب من 1 كلم و 300 مترا جنوب غرب المدينة. وتبعد هذه الآثار بـ 3 كلم و 500م عن وادي الحد ووادي يسر. وتحتوي هذه الآثار الرومانية عن بناء مستطيل طوله 70 مترا و 25 مترا عرضا وتبدو الحيطان ظاهرة للعيان وهي مصنوعة من أحجار كبيرة الحجم مقياسها 1م/على 60 سنتم وهناك مبنى آخر بجانب ذلك يجعلنا نفترض وجود مراكز مراقبة رومانية وتموين ذات طابع عسكري، تزمى للحفاظ على مراقبة الاتصال وحراسة البلد.

وهناك بقايا رومانية في شمال تلك الآثار الآنف ذكرها والتي كانت كمركز مراقبة حيث نجد آثار بدون مخطط في مساحة مستطيلة 20م مع قنوات للماء.

وفي شمال شرق مدينة تابلاط (2) على بعد 1 كلم و 300 م نجد في تلارزاق آثارا رومانية في مساحة تقدر بـ : 100م^2 تقريبا وهناك بقايا أحجار استعملت في البناء.

1) ـ انظر دراسة لبيتون "Piton" في المجلة الافريقية لعام 1935 تحت عنوان مدونة حول منطقة تابلاط ص 235/230/229.
2) ـ نفس المصدر/ص 235.

ونعود إلى لمبدية المدينة الرومانية التي سبقت مدينة المدية العربية الاسلامية فالرحالة الالماني الذي هو من أصل انجليزي ذكر في كتابه ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا (1) أن هناك جسر روماني كان موجودا في منتصف القرن 19م قرب باب مدينة المدية يخلع على المنطقة طابعا ذا أهمية تاريخية ويذكر أنه على الرغم من الآثار التاريخية التي عثر عليها هنا فإن الاتفاق لم يتم بعد حول موقع المدينة الرومانية التي أقيمت في المدية قديما أي أننا لانعرف موقع لمبدية بالضبط.

وجاء ذكر مدينة لامبديا في رحلة د. شو الانجليزي واعتمد على ماذكره عنها بطليموس.

ويذكر هاينريش فون مالتسان (2) أن مدينة لامبديا كانت مدينة رومانية حصينة تحيطها أسوار ضخمة (وهناك بقايا أحجار ذلك العهد مازالت ماثلة إلى اليوم) والتي وصفت أي لامبديا في مجلس قرطاجنة عام 464 ميلادية بأنها مقام الاسقف. (3)

ورغم التشابه في النطق بين لامبديا والمدية فيرجح أن يكون اسم المدية الحالي مشتق من اسم علم عربي مع العلم أن المدية الاسلامية جاء ذكرها في كتب التاريخ العربية فقد أوردها ابن خلدون والبكري والحسن الوزان الذين زاروا مدينة المدية في العصر الحديث.

1) ـ أنظر هايزيش فون مالتسان : ثلاث سنوات غرب افريقيا ص 143/ترجمة 5. دودو.
دراسة عن رحلته لمدينة المدية.
2) ـ نفس المصدر ص 143.
3) ـ نفس المصدر ص 143.

ـ الأستاذ عيسى جعنيط

مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19 ـ ثورة الزعاطشة 1849 ـ أسبابها ـ تطوراتها

تتميز منطقة الزيبان بخصائص جغرافية وبشرية لعبت دورا أساسيا سواء في عرقلة التوسع الفرنسي في المنطقة وتمكين السلطات الفرنسية من ايجاد تنظيم اداري يقر الاستقرار وهو ما جعل أحد المؤرخين الفرنسين يعتبرها أحد الأسباب التي أدت إلى الثورة أو في مقاومة السكان للاحتلال الفرنسي في القرن 19 ـ وخاصة أحداث الزعاطشة، ذلك أن ثوار الزعاطشة استفادوا من المعطيات الجغرافية التي تتمتع بها المنطقة كطبيعة الأرض الصحراوية والمناخ الصحراوي القاسي، وصعوبة المسالك في واحات النخيل الكثيفة، وفي ذلك كله جهل الفرنسي بطبيعة المنطقة كما استغل الثوار الموقع الاستراتيجي لمنطقة الزيبان في توسيع دائرة الثورة وتبرز أهميته من الوجهة الطبيعية في تحصيناته بالسلاسل الجبلية من جهة الشمال وبرمال الصحراء الشاسعة من جهة الجنوب، ومن الوجهة الاقتصادية سيطرته على أهم الطرق التجارية التي لعبت دورا هاما في ازدهار المراكز العمرانية بالمنطقة، ومن الوجهة السياسية تتميز في الموقع الوسطي الذى يربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، وكذلك في اشرافه على مجموعة

1) سأشير إلى مراجع ووثائق هذا البحث أثناء المحاضر، إلى نقص فيها كثير من الجوانب التي لم ندرجها في هذا الملحق، كما نكشف فيها عن كثير من الجوانب انطع قامن

من الأعراش التي تشتهر بقوتها، وتمردها على السلطات الفرنسية والتي ساهمت بدور كبير في أحداث الزعاطشة عام 1849، ومن هذه الأعراش أعراش أولاد سلطان والأوراس في الشمال وأعراش الحضنة وأولاد نائل في الغرب وأعراش النمامشة في الشرق.

اندلاع الثورة

6/86 اندلعت شرارة الثورة في واحة الزعاطشة بمنطقة الزاب الظهراوى على بعد 35 كلم جنوب غرب بسكرة وكان زعيمها الرئيسي هو الشيخ بوزيان، ويظهر أنه كان مجهولا من قبل السلطات الفرنسية حتى 1849 وذلك شحت الوثائق والتقارير العسكرية عن اعطائنا معلومات مفصلة عن شخصيته سوى أنه من أعراش واد عبدى في الأوراس، وأنه كان في السابق نائبا للأمير عبد القادر بمنطقة الزاب الظهراوى.

كان الظروف العسكرية التي عاشتها مقاطعة قسنطينة فرصة مواتية لبوزيان لبداية إعلان حركة الجهاد فقد كانت جيوش المقاطعة مجندة لقمع الثوارت التي اشتعلت في كل من الزواغة وبني يعلى وبني منيكش بجرجرة وتمردات قبائل أولاد دراج بالحضنة وتمردات أولاد فرج بمنطقة بوسعادة.. الخ، مما أثر في تناقص عدد القوات المرابطة في كل من مركزي باتنة وبسكرة والتي لم يزد عددها عن 800 رجل. أضف إلى ذلك غياب القائد العسكرى لدائرة بسكرة سان جرمان، استغل بوزيان هذه الظروف كلها لاعلان حركة الجهاد وقد اعتمد الشيخ لكسب ثقة الملتفين حوله وتقوية عزيمة مؤيديه وترسيخ إيمان الجميع بما كان يدعو اليه في النصر المؤكد يقوم على رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم وأن النبي قد قال له بأن عهد الكفار قد انتهى وسوف يبدأ عهد المؤمنين وبأنه مكلف بمحاربتهم واخراجهم من الجزائر.

نتيجة لهذه النشاطات حاول سيروك نائب المكتب العربي ببسكرة القبض على بوزيان فاصطحب معه شيخ قرية طولقة وبعض الخيالة ودخل بهم إلى الزعاطشة

حيث وجد بوزيان يتجول في الساحة وحده فطلب منه أن يذهب معه إلى مقر القيادة فامتثل بوزيان ولكن ما أن قفز على ظهر البغلة حتى انطلق بنادق المجاهدين من كل صوب وعندما حاول سيروك الفرار وجد باب القرية مقفلا وحاول أحد حراسه أن يتناول القفلة فأطلق عليه ابن عزوز رصاصة أردته قتيلا وتلقى بوزيان من يد ابنه مسدسا وصوب نيرانه على الحارس الذى يقود بغلته ثم اختفى وفتح الباب ففر سيروكا ومن معه تحت وابل من الرصاص تاركا وراءه حصانين وبرنوسين وبندقية.

ونظرا لهذا الموقف الحازم المتأزم اتجه Dupesquet رئيس المكتب العربي إلى الزعاطشة على رأس 50 من الخيالة وطلب من السكان أن يسلموا له بوزيان فرفضوا كعادتهم وتأزم الوضع أكثر بقيام سكان واحات طولقة وفرفار وليشانة وبرشقرون بحمل السلاح للدفاع عن بوزيان ورفاقه وعندئذ فضل ديبوسكي عدم مهاجمة الثوار والانسحاب إلى بسكرة بشرف نظرا لقلة الجيوش الكافية المرابطة بمركز بسكرة.

وقد حاول الفرنسيون منذ البداية أن يعزلوا حوادث الزعاطشة ويحدوا من انتشارها وامتداد نفوذها إلى جهات أخرى فكلفوا شيخ العرب ابن قانة بفرض رقابة على سكان الزاب الظهراوى ومنع أي اتصال خارجي يقيمه الثوار غير أنه فشل في أداء هذه المهمة وانتشرت القوة خارج منطقة الزيبان ففي 27 جوان 1849 هاجم أولاد سحنون زمالة سي مقران كماعمت الثورة كامل منطقة الزمالة في جبال الأوراس كما ساند كثير من سكان المنطقة بوزيان حيث تشير تقارير المكتب العربي في النصف الثاني من جويلية إلى قدوم كثير من المساندين من أولاد جلال وأولاد سيدى خالد والمسيلة وبوسعادة وأولاد نائل وقبائل الغامرة وجبال الأوراسى كما تشير التقارير إلى تمرد سكان جبال شرشال وثورتهم ضد القائد محمد الطيب ويكفي التصوير خطورة الوضع في الجنوب إلى ماكتبة Dubiveu في احدى رسائلة إلى الحاكم العام بتاريخ 10 أوت 1849 : « لقد ادت الحالة الخطيرة التي تفجرت في منطقة الزاب إلى اسقاط هيبتنا وسلطتنا في أعين أهالي المنطقة. »

ولقد استدعت هذه الوضعية ارسال فرنسا لقوة عسكرية برئاسة كاربيسيا رئيس المكتب العربي ببباتنة قوامها 1700 شخص يمثلون مختلف الأسلحة ولكن الحملة جوبهت بمشكلتين الأولى هي الحرارة الشديدة التي وصلت إلى أكثر من 50 والثانية هي ازدياد دعم الثوار لبوزيان حيث قدموا من المسيلة وبوسعادة والأوراس وعلى هذا كان كاربيسيا أمام اختيارين كما يذكر في تقريره الذى رفعه إلى حاكم مقاطعة قسنطينة يوم 20 جويلية 1849 إما مهاجمة الثوار بقوة وهذه العملية حسب كاربيسيا تستغرق 8 أيام على الرغم من الحرارة الشديدة والرياح الصحراوية القوية وتعب الجيش أثناء مسيرته التي قادته إلى زعاطشة، واما انسحاب يرفع من معنويات الثوار ويشمل ثورة عارمة تمتد إلى كامل أنحاء الوطن وعلى كل قرر رغم الظروف مهاجمة الثوار.

تم اللقاء يوم 26 من جويلية انتهى بهزيمة الجيش الفرنسي حيث اسفرت هذه المعركة حسب التقرير السالف على 31 قتيلا و 117 جريحا في صفوف القوات الفرنسية اما في جانب الثوار فيقدر بـ 48 قتيلا و 89 جريحا.

على الرغم من محاولات سان جرمان قائد بسكرة لتطويق الثورة وحصرها في الزاب الظهراوى فان بوزيان استطاع عبر مبعوثيه إلى القبائل المختلفة أن يوسع من دائرة الثورة ففي شهر أوت هاجم أولاد عبدي سهالة قائد سيدى بلعباس وكان يقود الثوار أحمد بن الجودى الشيخ السابق لأولاد بوزيان حيث زحف على رأس 400 فارس زماله القائد سيدى بلعباس المقيم في وادى طاقة، وفي أولاد جلال تمكن المرابط المختار بعد عودته إلى أولاد جلال بعد فراره منها عام 1847 من جمع سكان أولاد خالد وأولاد جلال وأولاد الساسي، وكان على علاقة مع بوزيان حيث قررا مهاجمة بسكرة وعلى هذا بعث له بعض الفرسان من أولاد ساسي.

في سبتمبر استطاع المرابط الشيخ عبد الحفيظ مقدم اخوان الرحمانين وخنقة سيدي ناجي أن يعلن حركة الجهاد والتف حوله مجموعة من قبائل أولاد داور

وأولاد عبدي وبني سلمان وبني وجنة واهل نسيرة وفي 17 سبتمبر تحرك على رأس 200 فارس بقصد مهاجمة بسكرة وتمركز بالقرب من سريانة على ضفة وادي بيراز الذى يبعد عن بسكرة بحوالى 20 كم غير أن قائد الزاب الشرقي الباي بنى شنوف اخبر السلطات الفرنسية في بسكرة بتحرك سيدى عبد الحفيظ فخرج سان جرمان على رأس قوة عسكرية تقدر بـ 300 فارس.

وفي غياب الحراسة للثوار استطاع سان جرمان أن يباغت معسكر الثوار ويضرب حصارا مع معسكر. ولكن على الرغم من كل ذلك لم يمنع المجاهدين من أن يقاتلوا استطاعوا في الساعات الأولى من المعركة أن يهزموا جانب من قوات العدو ويقتلوا الكومندان سان جرمان لكن شدة المباغتة واحكام الحصار أجبرت سيدي عبد الحفيظ على الانسحاب تاركا وراءه 200 شهيد حسب التقارير الفرنسية التي تبالغ في تقديرات خسائر الثوار ولم تفت هذه الهزيمة من عزم عبد الحفيظ فقد واصل محاولات الاستعداد للهجوم على بسكرة وهذا ماتشير به التقارير العسكرية التي أطلعنا عليها.

حصار واحة الزعاطشة :

عند حلول شهر أكتوبر قررت السلطات الفرنسية توجيه حملة قوية إلى الزيبان ففي 25 سبتمبر 1849 تحرك الجنرال هربيون حاكم مقاطعة قسنطينة على رأس 5000 شخص.

وصلت القوات الفرنسية أمام الزعاشة يوم الأحد 7 أكتوبر 1849. على الساعة 8 صباحا وهو تاريخ بداية الحصار الذى دام أكثر من 52 يوما أى حتى 26 من نوفمبر 1849. وقد عسكرت القوات حال وصولها في كدية المائدة التي تشرف على كل من الزعاطشة وليشانة وبوشقرون وطولقة وفي نفس اليوم أمرت السلطات الفرنسية شيخ العرب ابن قانة بأن يجمع شيوخه وقواده ويكلفهم بالاحاطة بالواحة

والزاوية لأحكام الحصار حولها من الجنوب في انتظار الحاق باقي القوات بينما كلفت قوات أخرى بقيادة الكولونيل بالتمركز بين طولقة والزعاطشة حتى لايتجه الأنصار من طولقة إلى بوزيان. كما كلف الكولونيل مع فيلق الثاني للمشاة بالتمركز بالقرب من ليشانة يمنع سكان هذه الواحة من ارسال نجدات إلى بوزيان وبعد هذه الاستعدادات نصبوا المدافع وأخذوا يقذفون زاوية شيخ بوزيان لايجاد فجوة في جدرانها وابعاد المدافعين عنها.

ومنذ يومي 7 و 8 من أكتوبر عملت معارك شديدة أفقدت فيها توازن العدو وظهرت صلابة الثوار.

باختصار لم تحرز القوات الفرنسية أى نصر حتى 13 من نوفمبر رغم ضخامة عددها وعدتها بالمقارنة مع قوات الثوار.

ويرجع هذا الفشل حسب الوثائق الموجودة عندنا إلى :

1) قوة ثوار الزعاطشة.
2) تميزت الهجومات الفرنسية بالعشوائية وعدم التنظيم.
3) قوة التحصينات الشديدة التي كانت تتشكل منها المدن الصحراوية ومن بينها مدينة الزعاطشة.
4) استهزاء القادة الفرنسيين في امكانيات الأهالى.

كان فشل القوات الفرنسية فرصة لاشتداد الثورة فقد أخذ الأنصار يفدون على الزعاطشة لتدعيم جبهة الثوار رغم الحصار الشديد الذى فرض على الواحة والمنطقة وامتدت اصداء الثورة كل مقاطعة قسنطينة والواحات الجنوبية المجاورة لزاب الظهراوى كما تحرك بعض الثوار القدماء لتدعيم الثورة، فقد اجتمع كل من مبروك بن عزوز واحمد بن عمار في ضواحي الأغواط وبعث بنجدات إلى

الزعاطشة كما نظم صدوق بلحاج مرابط أولاد بوب بالأوراس تجمعا في مشونش للهجوم على القوافل الفرنسية بين باتنة وبسكرة كما تشير التقارير إلى تقدم أحمد بلحاج إلى سيدى عقبة للانضمام إلى بوزيان لكن اعظم تأثير حدث في هذه الفترة هو انتفاضة سكان بوسعادة بقيادة محمد بن شبيرة وقد كان على اتصال ببوزيان وقد استمرت انتفاضة بن شبيرة من 17 أكتوبر إلى ديسمبر 1848.

نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية للثوار طالب هوبيوان بإمدادات عسكرية من السلطات الفرنسية وهكذا بدأت تتوافد على الزعاطشة الحملة تلو الأخرى حتى وصل عدد القوات الفرنسية إلى 9500 مما رجح الكفة لصالح الفرنسيين.

بعد أن استكمل هوبيون استعداداته من حيث العدد والعدة عزم على القيام بهجوم واسع على الواحة ومنذ يوم 20 أوت بدأ في قدف جدران القرية بصورة مركزة لاحداث الثغرات التي تساعدهم على اقتحامها.

وفي يوم 26 نوفمبر رمى الفرنسيون بكل ثقلهم فأقتحموها من ثلاثة جوانب كما احكم الحصار على الواحة وذلك بارسال كتيبتين بقيادة الرائد بورباكي كما ارسلت بعض الكتائب لتحتل الجبال والنقاط البعيدة للواحات لقطع الطريق على الفارين ولابعاد العرب عن المنازل القريبة.

أسباب الثورة

يمكن ارجاع أسباب الثورة إلى عدة عوامل منها :

1) كانت الصراعات السياسية التي عاشتها الحكومة الفرنسية في فبراير 1848 ونقص الجيش الفرنسي وبروز اشاعات حول محاولة خليفة المغرب الهجوم على

الجزائر. وقدوم الأمير عبد القادر واستعداد بريطانية للهجوم على فرنسا فرصة لزعماء الجهاد لتفجير روح المقاومة في كامل الجزائر وهكذا شهدت سنة 1849 عدة ثورات عمت كامل المقاطعات الثلاث ومنها ثورة أولاد جوناس في الظهرة وأولاد درج في الحضنة وبني سليم في التيطرى وثورة بني سليمان وبني يعلى وقشتولة في جرجرة، وثورت زواوة التي قادها سي الجودى وثورة أحمد بن يمينة في الواد الكبير بدائرة سكيكدة وثورة زواغة وفرجيوة بالقل والبابور شمال قسنطينة وثورة بني زقزق في منطقة الجزائر العاصمة واضطرابات أولاد نائل. . الخ، كانت لهذه الثورات التأثير الكبير على انتفاضة سكان الزيبان.

2) الاضطرابات السياسية التي شهدتها الحكومة الفرنسية. ذلك ان ثورة 1848 لم تكن بمعزل عن ثورة السكان فقد كان هناك عدد كبير من ابناء الواحات الشرقية الذى يطلق عليهم اسم البسكرية يستقرون بالجزائر العاصمة كعمال وتجار ويطلعون على الأخبار بانتظام فنقلوا إلى بلدهم أخبار ثورة 1848 وسقوط الحكم الملكي بفرنسا والعسكري بالجزائر وقيام سلطة مدنية كما نقلوا الاشاعات الرائجة انذاك التي مفادها ان بريطانيا تستعد لشن حملة على فرنسا في الجزائر وهزائم الجيوش الفرنسية في ايطاليا ويتهم كاربيسيا وهوبيون يهود الجزائر وقسنطينة في نشر هذه الاشاعات الكاذبة.

3) رفع الضريبة الخاصة بالنخيل إلى 45 سنتيما بعد أن كانت 15 سنتيما أي زيادة ما مقداره 300 ٪ وهذا على الرغم من تدهور مردود التمور في هذه السنة (1)

4) سياسة الغزو التوسع الاستعمارى التي طبقتها فرنسا اثر دخولها بسكرة في ماي 1844.

1) ركزت السلطات الفرنسية على هذا السبب كعامل رئيسى للثور غير أن ماافحصت به الوثائق مايفنده هذه المزاعم وسأقوم بعرض البعض منها أثناء المحاضرة.

5) كانت إزالة التواجد الفرنسي من المنطقة ضرورة ملحة بالنسبة للسكان املتها عليهم عقيدتهم الاسلامية.

6) هناك بعض المؤرخين من يعزو قيام الثورة الى القضاء على الامتيازات القديمة للمرابطين القاضية بإعفائهم من الضرائب ومن بينهم بوزيان الذى نزعت له امتيازاته في الضرائب. (2)

2) هناك أسباب اخرى سأشير اليها في المحاضرة كما سأكشف من خلالها بعض الجوانب الحديثة.

اسماعيل العربي

الترتيبات التاكتيكية لحصار قرية الزعاطشة
أكتوبر - نوفمبر 1849

تمهيد : تمتد بلاد الزيبان الواسعة من الحدود التونسية شرقا حتى هضاب أولاد نايل غربا، وتتصل من هذه الجهة بوادى ريغ، وفي هذه المنطقة تنتشر واحات النخيل التي أهمها واحة بسكرة، عاصمة منطقة الولاية حاليا.

وفي هذه المنطقة تمتد ثلاثة سهول متميزة ومشهورة :

1 - سهل الحضنة : وهو أكثر السهول الثلاثة ارتفاعا، ويحده من الشرق جبل متليلي، وجنوبا جبل عمور، وشمالا جبل بلزمة، وغربا منطقة بوسعادة. وفي حوالي وسط هذا السهل يوجد شط سعيدة، وهو عبارة عن بحيرة مالحة، ومنطقة الحضنة كانت مشهورة في الماضي بخصب أراضيها، وكانت تنتج الحبوب بوفرة والمواشي والتمر الجيد ولو أنه أقل جودة من الأنواع التي تنتجها منطقة بسكرة والواحات التابعة لها، مثل طولقة والزعاطشة.

2 - سهل الوطية الذى يمتد في جنوب شرقي الحضنة، عند السفح الجنوبي بجبل أوراس. والمناخ في هذا السهل أكثر اعتدالا منه في سهل الحضنة والمنطقة مثل السابقة مشهورة بانتاج القمح والشعير وتربية المواشي، ولكن النخيل فيها أقل انتاجا ونوعية.

3 ـ الزاب الذى ينقسم إلى الزاب الظهرى (الشمالي) والزاب القبلي (الجنوبي) والزاب الشرقي. والمنطقة عبارة عن مجموعة من الواحات، يجتمع بعضها ويفترق البعض الآخر ويفصل بينها فراغ من الرمال القاحلة، ولاتعرف من النبات سوى الشيح الذى يصلح لرعي الجمال والأغنام.

وهذه الواحات تحتوى على بساتين النخيل التي تحيط أسوار وتجرى فيها مياه غزيرة في العادة. وأهم انتاج هذه الحدائق هو التمر، ولكنها تضم إلى جانب النخيل أشجار مختلف أنواع الفواكه، كالخوخ والمشمش والتفاح، كما نتتج الخضروات والقنب والتبغ والحنا إلخ. مما يجعل الواحة مكتفية بنفسها في المواد الغذائية التي تنتج منها فائضا تصدره إلى أسواق بسكرة وبوسعادة وباتنة ويجرى تبادل ريعه بالمنتجات المصنوعة.

وقرى الواحات تحتوى على مسجد أو أكثر تعلوه منارة وعلى بيوت واسعة مبنية بالحجر أو الطوب المكوى، ومسقوفة بفروع النخيل، والقرية كثيرا ماتكون محصنة بسور أو بخندق، أو بكلا النوعين من التحصينات مثل قرية الزعاطشة، كما سنرى.

من البديهي أن يكون الماء أساس العمران في هذه الواحات التي لولاه لكانت رمالا سائلة، مثل بقية المناطق الصحراوية، والسكان يدركون أهمية هذا العنصر الحيوي حق الادراك، ومن ثم فهم أشد مايكون حرصا عليه لصيانته وحسن استعماله باقتصاد، ويجرى توزيع الماء للرى بين الملاك على أساس الحاجة وعلى قدر مايملكه كل واحد منهم من الأشجار، وذلك بواسطة قنوات تنقل الماء من المنابيع بميزان دقيق ولايحاول الواحد منهم تجاوز الحصة المخصصة له طبقا لمقاييس وعرف متوارث، والماء يجرى من ينابيع طبيعية في الواحة، ولكنه قد يستخرج من الآبار كذلك، وقد تكون ملكيتها جماعية أو فردية.

أما سهول الحضنة « الوطايا » والزاب الشرقي، فهي تروبها مياه الأنهار الصغيرة والجداول التي تنزل من مرتفعات وهضاب التل، ومن جبال الأوراس وبلزمة، وهذه المياه التي تحمل في طيباتها الطمي المخصب، هي التي تغذى المنابع الجوفية وتزيد من احتياطي الماء في بطن الأرض في الصحراء.

والخصب والثراء الذى اشتهرت به واحات الزيبان (الحبوب والغنم والجمال والتمور الخ) كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على النمو الديموغرافي وكثرة السكان التي لوحظت في هذه المنطقة في أواخر عهد الأتراك، وقد وقعت ضحية لغزوات الولاة الأتراك عدة مرات، كان آخرها قد قام بها أحمد باى من أجل جمع الضرائب والأتاوات.

وقد كانت مناطق أولاد جلال وسيدى عقبة وطبنة وبسكرة ذات موارد اقتصادية هامة في جميع العصور، تسمح لها بالطموح إلى المحافظة على استقلال ذاتي، كما كان شعور السكان بماضيهم واعتزازهم بالنضال من أجل حريتهم ضد الغزاة والفاتحين شعورا قويا. وحب الحرية والاستعداد للدفاع عنها، على كل حال، ميل يشاركهم فيه جميع سكان الصحراء، وفي مقدمتهم الرحل الذين غادرت أفواج منهم التل وقصدوا الفيافي لأنجاد قبيلة الزعاطشة عندما ضيق العدو الحصار عليها.

استولى الفرنسيون على بلاد الزيبان اسميا في أوائل سنة 1844 بعدما الحسر عنها سلطان الأمير عبد القادر واستسلم أحمد باي، آخر الحكام الأتراك ولكن الغزاة الفرنسيين، لم يتخذوا من بسكرة النقطة العسكرية الأكثر توغلا في الصحراء إلا بعد احتلال باتنة في شهر يونيو من نفس السنة، ومنذ المرحلة الأولى من الاحتلال أسندت القيادة العسكرية في هذه النقطة لضابط يدعى « سان جرمان » كان يعمل بحماس لتثبيت قواعد الادارة الاستعمارية في المنطقة، ولكنه كان يواجه ضعوبات كبيرة من جراء تلكؤ السكان أو عداوتهم الصريحة للفرنسيين.

كانت أخبار الانقلاب الذى طوح بعرش الملك لويس فليب وأعلن النظام الجمهورى في فرنسا مثارا لآمال عريضة في مختلف طبقات الشعب والمناطق في ولاية قسنطينة، وكانما كان الناس لاينتظرون إلا هذا الحديث لتبلور هذا الأمل إلى حركات ثورية في مختلف الجهات. وكذلك اندلعت نيران الثورة هنا وهناك (ولاسيما في بني سليمان والقل) مما اضطرت معه القيادة العليا في قسنطينة إلى توجيه أهم قواتها لاخمادها، واخبار هذه الثورات لم تلبث أن انتشرت كالنار في الهشيم. وقد وصلت أخبار الانقلاب في نظام الحكم في فرنسا إلى الزاب عن طريق البسكريين الذين يعملون في مدينة الجزائر.

وقد اخبروا مواطنيهم بما شاهدوه من مظاهر البهجة والاحتفالات التي رافقت النظام الجمهورى، وكذلك استنتج الكثيرون من هذا الحدث، وهم الذين لم يشاهدوا من قوة فرنسا وعظمتها سوى شرذمة بائسة، وهي حامية بسكرة أنه مادامت الثورة قد انتهت بالقضاء على النظام الملكي في فرنسا، فلم لايقومون هم أيضا بثورة على هذه الشرذمة ويخلصوا بلادهم من قبضة هؤلاء الغزاة ؟

بدأت الثورة التي أعلنها الشيخ بوزيان الذى كان مندوب الأمير عبد القادر على المنطقة، في الزاب الظهرى، ومن هناك انتشرت إلى مناطق أخرى في الزيبان وبواعث هذه الثورة تختلط فيها العوامل السياسية والدينية والاقتصادية.

وقد كان في مقدمة العوامل الأخيرة، زيادة الضريبة المفروضة على ملاك النخيل بنسبة 15 ٪ لتصبح 45 ٪ بدلا من 30 ٪ من الدخل من التمور. وفي نفس الوقت فرضت الادارة تعميم الضريبة على جميع الملاك، بما فيهم الكلوغليين والأتراك وشيوخ الدين والمرابطين الذين كانت الادارة التركية تعفيهم منها.

كان الشيخ أبو زيان وطنيا وعالما دينيا مسموع الكلمة وكان يمثل سلطة الأمير حتى وقت تسلميه، وبعد ذلك بقي يترقب تطورات الأحداث وينتظر الفرصة الملائمة لأستئناف العمل الثورى في الزيبان، ولما علم بأخبار ثورة جبال القل وبني سليمان في منطقة بجاية اقتنع بأن ساعة الخلاص قد أذنت.

وبعد وقوع عدد من المعارك في منتصف شهر مايو هنا وهناك مع الثوار الفرنسيين قتل فيها عدد مهم من جيش العدو، وفي مقدمتهم قائد الناحية العسكرية، الرائد سان جرمان، استقطبت قرية الزعاطشة الثورة وأصبحت هذه القرية ومركز الثقل لها وقلبها النابض بالقوة والحماس. وكذلك أصدر الوالي العام أمرا إلى القائد العام لقوات ولاية قسنطينة بأن يتخذ الاجراءات الضرورية ليسير بنفسه على رأس جيشه لقمع ثورة الزعاطشة.

انتظرت القيادة العليا في قسنطينة حتى ينتهي فصل الصيف حتى لايتعرض الجيش لقيظ الصحراء غير المحتمل، واستغلت هذه الفترة لجمع قوات أخرى بتخفيض حاميات قسنطينة وسكيكدة، بالأضافة إلى التعزيزات بكتيبه من القناصة وقد وعد الوالي العام بأن تصل إلى قسنطينة بين 18 و 20 سبتمبر، وبلغ عدد القوات المتجمعة من كل ذلك 3306 جنديا وضابطا. وهذا الجيش سوف يتلقى فيما بعد تعزيزات بقوات باتنة وبسكرة وسور الغزلان وبالكتيبة العاملة في بوسعادة بقيادة الكلونيل « برال » الذى كان من أبطال الجيش الذى مزقه الأمير عبد القادر في معركة سيدى ابراهيم.

سير الحملة إلى الزعاطشة :

سار الجنرال هربيون على رأس الجيش من قسنطينة في اتجاه باتنة التي وصل إليها يوم 28 سبتمبر، وهناك انضمت إلى جيشه قوات معتبرة من أقوام القياد

والشيوخ، وعلى رأسهم بن قانة المدعو شيخ العرب، وفي 4 أكتوبر وصل الجيش الغازى إلى بسكرة، وهناك نصب خيامه تحت أشجار النخيل، على مرآى من الواحات الثائرة، وهناك وصل إليه شيوخ الزاب الشرقي ليعلنوا استسلام تلك المناطق تحت التهديد بالتخريب والتدمير الشامل. أعطيت اجازة يومين للجيش لكي يستريح من عناء السفر، ثم استأنف مسيرته يوم 6 من الشهر، مصطحبا معه جزءا مهما من فليق اللفيف الأجنبي بقيادة العقيد « كربوسيا ».

كان مجموع قوات الجيش الذى وصل إلى « كدية المائدة » المقابلة لقرية الزعاطشة في يوم 7 أكتوبر على الساعة الثامنة صباحا، 4493 جنديا وضابطا، وبذلك ارتفع عدد القوات الأصلية التي خصصت للحملة بنحو ألف رجل.

تقع « كدية المائدة » (وهي الموقع الذى ضرب فيه أحمد باى معسكره عند حصاره للزعاطشة في سنة 1831) في مقابل واحة ليشانة وقرية الزعاطشة، والموقع تغطيه الرمال ويسيطر على المنطقة كلها على مد البصر. والكدية تقع على مسافة نصف كيلومتر من زاوية تعلوها مئذنة مرتفعة نسبيا.

وعلى مسافة نحو كيلومترين تقع عين ثرة استولت عليها تشكيلات من القناصة منذ البداية لتأمين حاجات الجيش من الماء.

تأمين معسكر الجيش الغازى :

كانت المسافات التي تفصل بين واحات بوشقرون وليشانة والزعاطشة وفرفار وطولقة، واسعة وتمتد على مدى البصر وكأنها نموذج مصغر للصحراء الكبرى، وكان هذا الامتداد برماله السائلة ورياحه المعولة بين غصون النخيل كلها أمورا خليقة بأن تثير شعور القلق والخوف في نفوس هؤلاء الفرنسيين الذين لايعرف الكثيرون منهم

الصحراء إلا بما قرؤه في الكتب. ولكن هذه الفلاة في نظر قيادة الجيش تمثل خطرا جديا من حيث أنه يمكن أن يتسلل عبرها سكان المناطق المجاورة ويتلقى المحاصرون عن طريقها التعزيزات بالرجال والمواد الغذائية، وبذلك يصبح الحصار اجراء لامعنى له.

وقد كان من المعترف به في القيادة أن من المستحيل ضرب نطاق الحصار الشامل على الواحات الخمسة، بل ولايمكن حتى محاصرة الواحة التي تقع فيها ليشانة والزعاطشة والتي يبلغ قطرها 12 كيلومترا، فقد رؤى أن قوات الجيش لايمكنها أن تحتل جبهة بهذا الطول دون أن تحدث ثغرات خطيرة في صفوفها، في الوقت الذى يجب أن تكون هذه القوة كثيفة متراصة لضمان فعاليتها في الدفاع والهجوم.

ترتيبات الحضار :

قدم العقيد قائد سلاح المهندسين اقتراحا يقضي بحفر حلائق خنادق تكون مستودعات ونطاق للتجمع ينطلق منها الهجوم من ثلاث زوايا : يكون احد الهجومات على ليشانه، والثاني على زاوية المذكورة، والثالث على فرفار والزعاشة. وهذا المشروع اعترفت القيادة بأن من شأنه أن يتضمن نجاحا سريعا للعمليات، ولكنها رأت، مع ذلك أنه غير قابل للتنفيذ، بسبب صغر حجم الجيش، فان تقسيم الجيش بهذه الصورة من شأنه أن يجعل جميع نقاط الهجوم ضعيفة ويسهل كل مجهود جدى للثوار لاقتحامها متى ركزوا هجماتهم على واحدة منها. وسيشعر الثوار بقوتهم وبحماس أكبر، متى وجدوا أنفسهم أمام خندق يحميه عدد يستصغرونه.

ولهذه الاعتبارات أهمل المشروع وقرر قائد الجيش انشاء مركز واحد للهجوم يكون موقعه في الزواية، وذلك مراعاة للاعتبارات التالية :

1 ـ من الصعب المحافظة على مركز للهجوم يقع بين لشانه وقرية الزعاطشة، لأن الجيش في هذه الحالة سيواجه الثوار من الأمام ومن الخلف، ومن وسط بساتين النخيل.

2 ـ إقامة مركز للهجوم بين الزعاطشة وفرفار غير ممكن إلا إذا تم للجيش احتلال الواحة الأخيرة التي إن كانت قد هاجر منها السكان، فإن الثوار يتسللون اليها لكي يجعلوا الجيش يعيش في قلق مستمر.

3 ـ وأما الزاوية فإن موقعها يوفر جميع الشروط المرغوب فيها لتثبيت الحصار ولانطلاق الهجوم التي تخترق البساتين وتنتهي عند الوجه الشرقي لسور القرية.

بدأت العمليات باحتلال مكان يقع بين الزعاطشة وطولقة بهدف منع سكان الواحة الأخيرة من تقديم أية مساعدة لجيرانهم ثم صدرت أوامر للمدفعية بأن تقصف أسوار البساتين المحيطة بالزاوية لأحداث ثغرة فيها. وبعدما هدمت بعض حيطان السور وتمت جميع العمليات التاكتيكية وقع هجوم على الزاوية ولكن المهاجمين لقوا دفاعا مستميتا من الثوار الذين طاردوهم وشنوا عليهم هجوما مضادا ولم ينجهم إلا نيران المدفعية القوية وقد ولوا اعقابهم بعدما تركوا وراءهم عددا من القتلى (25 قتيلا و 7 من الجرحى).

نصبت بطارية للمدفعية في مكان يبعد عنها بسبعين مترا في طريق ليشانه، وقد اعتبر هذا الموقع ممتازا من الناحية التاكتيكية بحيث اتخذ ساحة للتجمع ( ) وعلى الفور شرع في تحصينه بأكياس التراب تحت وابل من رصاص الثوار. وبعد ذلك تم احتلال الزاوية.

كان احتلال الزاوية والمواقع المجاورة لها باهظ التكاليف للعدو في الأرواح ولاسيما إذا اعتبرنا أن العدو لم يكن يرى هذا من الأعمال الحربية، بل كان ينظر اليها ضمن الترتيبات التي وضعها لتضيق نطاق الحصار على قرية الزعاطشة.

كتب القائد الأعلى لقوات قسنطينة بشأن هذا الاشتباك الأول يقول :

« والواقع أن هذا الاشتباك الأول يثبت لدينا أن العرب مصممون على منازعتنا كل شبر من الأرض التي تفصل بيننا وبين الزعاطشة، وأنهم سوف يستفيدون من جميع المزايا التي تتيحها لهم بساتين النخيل وغابة الأشجار الكثيفة والأسوار التي تحيط بها... ونحن نعرف أنها محاطة بخندق واسع وعميق مليء بالمياه... مما يجعل الاستيلاء أمرا مستحيلا ».

والخندق المشار إليه والمحيط بقرية الزعاطشة تغديه عين ثرة تسمى « عين فوارة » ويمر بالقرية مستديرا بها ويتراوح عرضه بين 6 و 8 أمتار، وعمقه بين 80 ومتره 1,20 مترا ويدخل إلى القرية عبره بواسطة قنطرة من الصخر. ومنازل القرية التي يحيط بها سور متين كان يسكنها قبل وصول الجيش الغازى 150 عائلة، ولكنه عند اقتراب الفرنسيين أجلى عنها معظم النساء والأطفال وحل محلهم المجاهدون ممن جاء والمساعدة القريبة من المناطق المجاورة ومن أنصار الشيخ أبو زيان من جبال الأوراس.

بعث الشيخ أبوزيان بالرسل والدعاة الى القبائل والواحات المجاورة يزف إليها خبر الانتصارات الأولى التي حققها الثوار ويذكرهم بأن المصير الذى ينتظر الزعاطشة هو المصير الذى ينتظرهم جميعا، وقد كان ردهم على هذه المساعي بارسال المؤن وبوصول أفواج متعاقبة من المجاهدين.

وفي ليلة 7 ـ 8 أكتوبر بنيت قاعدة بطارية للمدفعية في المكان الذى نصح ببنائها فيه العقيد، قائد سلاح المهندسين واطلق عليها اسم رقم 1، وقد سلحت بثلاثة مدافع عيارات : 8 و 15 و 12 ملمتر. وعلى الساعة 11 من اليوم التالي شرعت في اطلاق نيرانها، وقد كان المقاومون لاينفكون عن مضايقة العدو أثناء العمل. وقد انتهى القصف بأحداث ثغرة وشقوق في حائط سور القرية، ولكن الثغرة كانت صغيرة وفي القسم الأعلى من الحائط.

تشجع العدو بعد هذا النجاح، فقامت قوة بالهجوم معتقدين أن في امكانهم النفاذ من تلك الثغرة. ولما وصلوا إلى الخندق استقبلهم الثوار بنيران قوية ودفعوهم إلى الوراء وكان تراجع العدو في فوضى شاملة، وقد سقط منهم 7 من القتلى، من بينهم ضابط، و 43 جرحى. وفي مرحلة لاحقة اشتبك الفرنسيون في معركة قاتلة مع تشكيلات من القوم الذين ارسلوا لنجدتهم معتقدين أنهم من الثوار الذين يطاردونهم.

استمر الفرنسيون في وضع الترتيبات التاكتيكية لتشديد الحصار على الزعاطشة، فأقاموا بطارية ثانية للمدفعية في يوم 9 أكتوبر. وبينما كانت قوة تقوم بحركة استطلاعية لتحصين المعسكر ببناء بطارية أخرى في البساتين، نشبت معركة بينهم وبين الزعاطشة، سقط فيها عدد من الجنود والضباط. ومما سجل في هذه المعركة أن رصاصة واحدة أصابت ضابطين أردت أحدهما قتيلا وجرحت الآخر جرحا بليغا مات منه بعد ذلك.

كتب قائد الحملة بشأن الحوادث الأخيرة يقول :

« شعرنا بهذه الأحداث البائسة شعورا عميقا، وأدركنا أهمية التستر من نيران القرية المحاصرة في أسرع وقت ممكن، فإن هؤلاء الثوار قد أعطونا دليلا قاسيا على مهارتهم في القتال ».

وهكذا عمد الجيش المحاصر، في نطاق سياسية أحكم للتستر واحتلال المواقع التاكتيكية، إلى سد الثغرات التي فتحها الثوار في أسوار البساتين التي يحتمون بها في المرحلة الأولى تم العمل لحفر الخنادق ولبناء قواعد لبطاريات المدافع في مرحلة تالية.

كان من بين المقاومين الذين اجتمعوا حول الشيخ أبو زيان رجال يمارسون رياضة صيد النعام في الصحراء. وكانت لهم براعة فائقة في الرمي بالبنادق، وقد كانت

طلقاتهم دائما محكمة قلما تخطىء الهدف ومثيرة للفزع بين أعدائهم، كان الواحد منهم يجلس ساعات طويلة في شرفة أحد المنازل ويراقب بعناية تحركات قنيصته في المعسكر، ومتى رآها في وضع ملائم سدد رصاصته، وقد كان هؤلاء القناصة الانفراديون موضع رعب خلص من بناه قواعد البطاريات. وقد بلغ من شدة حرص الثوار على منع العدو من اقامة مراكز وتحصينات تاكتيكية أنهم، حين يهجر المدفعيون بطارياتهم، يسددون رصاصهم إلى المدافع نفسها وإلى القنابل والبارود.

وعلى العموم، كانت عمليات احتلال البساتين التي توفر غابات أشجارها مخابىء مثالية لقناصة الثوار، وحفر وبناء قواعد لبطاريات المدافع هي العمليات المحفوفة بأكبر الأخطار.

كانت خطية قيادة العدو تقضي بتأمين المعسكر بالمراكز الأمامية وببطاريات المدافع التي تستخدم للدفاع في المرحلة الأولى ثم لقصف أسوار القرية في مرحلة الاستعداد للهجوم. والهدف الرئيسي هو تحقيق التقدم خطوة في تضييق الحصار حتى تقترب سلسلة المواقع والخنادق والبطاريات المجهزة بالمدافع من خندق الماء الذى يحمي القرية، ولكن الثوار الذين يدكرون جيدا مخطط العدو كانوا ساهرين ويعملون بدون كلل لاحباط كل مشروع على انفراد.

تمكنت البطارية رقم 4 التي أقيمت لحماية أعمال الحفر المتقدمة بتعاون مع البطاريات الثلاث الأخرى بتدمير جزء من البرج الأعلى في سور القرية، فقامت قوات من سلاح المهندسين بمحاولة لعبور الخندق والهجوم من الثغرة الجديدة. وللرد على هذا العمل الجرىء اجتمع نحو 300 من الثوار واندفعوا على المهاجمين وردوهم على اعقابهم وقتلوا أحد عشر منهم وجرحوا اثنين وعشرين آخرين.

تلقى الجيش المحاصر تعزيزات في 12 أكتوبر تتكون من 1512 جندى وضابط من مختلف الأسلحة بقيادة العقيد يرال، واستقبلت بكثير من الارتياح بسبب علامات

التعب والاجهاد التي أخذت تظهر على الجنود من جراء أعمال التحصين للمعسكر، وخصوصا نتيجة لمناوشة الثوار المستمرة. ولكن الثوار استقبلوا النجدة الجديد بحرارة أكبر، حين انقضوا على معسكر العدو بضراوة في اليوم التالي (13 أكتوبر).

أقيمت بطارية رقم 5 التي كانت أقرب البطاريات إلى القرية في الوقت الذى اتجه فيه سلاح المهندسين إلى تعزيز بقية البطاريات، فاحدثت المدفعية ثغرة كبيرة في الزاوية الشرقية لسور القرية اعتقدوا أنها واسعة بالكفاية لمرور الجيش فيها، ولكنه قبل الوصول إلى السور يتحتم عبور الخندق. وللعبور، يقتضى الأمر ردم مايساوى جسرا عريضا. حاول ذلك سلاح المهندسين ولكنهم فشلوا لصعوبة العملية من جهة، ولأن الثوار الذين كانوا يتسترون وراء الأنقاض والخرائب، كانوا يصلونهم بنيرانهم بدون انقطاع.

نصبت بطارية في البستان الذى احتله العدو، بعد المعارك التي تحدثنا عنها يوم 12 أكتوبر، وأصبحت جاهزة للاستعمال يوم 14 من الشهر. وعلى الفور اتخذت اجراءات لاستعمالها لقصف الزاوية الشمالية الشرقية من القرية، وفي اللحظة التي كان النقيب « بيس » يختبر فيها تصويب نيران المدافع الذى يقع على اليمين، أصابته رصاصة فوق العين اليسرى فأردته قتيلا في الحال. وقد أطلق اسمه على البطارية. . . تخليدا لذكراه.

وفي هذه الأثناء استولى الفرنسيون على بستانين آخرين استخدما لتغطية بطارية « بيس » المنفذ منه والبطارية رقم 6. وقد قام سلاح المهندسين بتحصين البستانين.

على أن عدم توفر المواد والأدوات الضرورية لحفر الخنادق واقامة المتاريس وكثرة الأشجار والشجيرات، وانتشار قنوات في المنطقة أمور كانت تشكل عقبات كبيرة

بحيث أن أعمال حفر الطريق التي كان يقوم بها سلاح المهندسين تحت وابل من الرشق بالحجارة والضرب بالرصاص المستمر لم يكن يتقدم الا بمسافة متر أو مترين في ظرف أربع وعشرين ساعة. فلكى يحفروا ممرا ليد حرجوا فيه متراسا، كان يقتضي الأمر قطع الأشجار الكبيرة واقتلاع الشجيرات التي تعترضه واقامة جسور عبر قنوات الرى العديدة والتي يصعب التخلص من مياهها متى ردمت.

وفي نفس الوقت، ظهرت حركة ثورية لمساندة الزعاطشة بين سكان الأوراس وتستهدف قطع طريق المواصلات بين باتنة وبسكرة، كما قام حامد بن الحاج خليفة الأمير عبد القادر سابقا على منطقة سيدى عقبة، وهي وغيرها تدرك القيادة الفرنسية لعجزها عن مواجهتها. ولتخلص من ثورة الزعاطشة وتحرير الجيش للمهام الجديدة، قررت من هجوم عام على القرية يوم 19 أكتوبر على أساس خطة تنقصها الجدية لعبور الخندق، وكذلك انتهى هذا الهجوم بفشل ذريع وخسائر بشرية كبيرة.

ولكن هذا الهجوم والهجوم العام الذى انتهى بسقوط قرية الزعاطشة ومقتل الشيخ بوزيان وابنه بعد مقاومة نادرة المثال وتضحيات هائلة، يوم 28 نوفمبر 1849، موضوع يخرج عن النطاق الذى حددناه لهذا البحث، وهو جدير بمعالجة تفصيلية لأنه يشكل صفحة من أروع ماسجلته المقاومة الجزائرية في أى عهد في تاريخ هذا البلد المليء بأنواع الجهاد والنضال من أجل الحرية والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله،

قائمة المراجع في كتابنا :

« ثورة الزيبان »

(تحت الطبع)

الأستاذ : البخارى حمانة
جامعة وهران

بعض أسباب فشل ثورة الزعاطشة

في تاريخ الأمم والشعوب قد لاتقل الدروس المستخلصة من فشل بعض مشاريعها الثورية أهمية وإيجابية عن الثمار المتولدة عن انتصارها في تلك المشاريع.

ذلك أن النصر بالرغم من أنه يكرس بالضرورة الأهداف المنشودة، للأفراد وللشعوب على السواء، فإنه سرعان مايغمر بأضواية ذاكرة الأفراد والشعوب، وينسيها في الكثير من الأحيان، وبمرور الزمن، الارادة التي أدت إليه، بل وينسيها كذلك المعطيات الجديدة التي استجدت بعده.. على المستوى الداخلى والخارجي.

ولعل هذا هو السبب الذى يجعل استمرار أى نصر، مهما بلغ حجمه، أمرا مستحيلا... ولذلك كان التاريخ الانساني يدور دوما بين النصر والهزيمة لتتحقق تلك الحركية في مسيرة الانسانية ولتتأكد بالتالي سنة التي في الكون القاضية بتبدل الأمم والدول.

ولأن الهزائم والانتكاسات، بالنسبة للشعوب الجديرة بالحياة هي الوجه الآخر للنصر، فإنها تبقى بدورها ومثل الانتصارات راسخة، كالجراح الملتهبة في ذاكرتها، وتظل بالتالي تدفعها باستمرار إلى تجاوزها من خلال عمل ثورى جديد يوظف بقدر الامكان كل دروس العمل الثورى السابق الذى لم يحالفه التوفيق.

تلك هي مسيرة الانسانية . . فلا نصر نهائي ولا هزيمة أبدية .

ولا أظن أن الشعب الجزائري قد شذ عن هذ القانون أو خرج عن هذه القاعدة . . . وهو الذى عرف طيلة الاحتلال الفرنسي لأرضه كيف يحول هزائمه المتعددة أمام الآلة العسكرية الجهنمية للمستعمر إلى نصر حاسم من خلال ثورة أول نوفمبر 1954 ، التي جاءت بمثابة التتويج النهائي والحاسم لكل ثوارته وانتفاضاته السابقة .

بذلك أثبت الشعب الجزائري أن تلك الهزائم على الرغم من هو لها أقل من تفت من عزيمته أو أن تثني من ارادته على استعادة حريته وكرامته .

من هنا تأتي أهمية محاولة الوقوف بجدية عن أسباب فشل تلك الثوارت والانتفاضات الوطنية ضد المستعمر الفرنسي والتي زادت كما نعلم عن المائة وستين ثورة وبلغ عدد ضحاياها عشرات الملايين من الضحايا .

وثورة الزعاطشة ، (1848 ـ 1849) واحدة من هذه الثورات .

على أننا نسارع هنا إلى القول بأننا لانقصد من التوقف عند هذه الثورة ، سرد أحداثها ووقائعها ، فضلا عن أن نبكي كل أبطالها وشهدائها ، فذلك على الرغم من أهميتـه ومن ضرورتـه لانعتقـد أن يفيد هذه الثورة أو غيرهـا من الثورات والانتفاضات الوطنية الأخرى كثيرا .

من هنـا فإن مانريد التوقف عنده هنا وبصورة تحاول قدر الامكان أن تكون موضوعية هو تحليل بعض الأسباب التي أدت إلى فشل هذه الثورة .

إن الزملاء الذين سبقوني إلى هذه المنصة قد تكفلوا بما فيه الكفاية بتقديم صورة مفصلة عن وقائع هذه الثورة وظروفها . وأعفوني بالتالي من هذه المهمة .

لذلك فإني لسوف أبدأ مباشرة بالرد على ذلك السؤال الذى يفرض نفسه على كل من يحاول التصدى لدراسة هذه الثورة ، أو الانتفاضة ، هذا السؤال هو : هل كان الشيخ أبوزيان ، رحمه الله ورحم معه كل شهداء الوطن ، يعتقد عند شروعه في ثورته تلك أنه سينتصر سياسيا أو عسكريا فيها ؟

إن الجواب على مثل هذا السؤال قد يكون بالايجاب أى أنه كان يعتقد بامكانية النصر في ثورته تلك ، وفي هذه الحالة ، وأخذا بعين الاعتبار لكل المعطيات الموضـوعية حول قوات الشيخ بوزيان وامكانياته وقوات وإمكانيات المستعمر فإن النتيجة الطبيعية هي أن الشيخ بوزيان أساء التقدير . . . وهذا خطير بالنسبة لرجل يتولى مسؤلية التصدى لمشروع ثورى كالذى تصدى له هو .

وقـد يكـون الجـواب بالنفي ، أى أن الشيخ بوزيان كان يدرك أنه لن يستـطيع هزيمة جيش المستعمر في المنطقة فضلا عن الجيش المتواجد فوق التراب الوطني والذى لايمكن لاحد أن يشك أنه سيهب لنجدته في حالة تعرضه لأى خطر من طرف هذه الثورة أو من طرف غيرها من الثورات الوطنية الأولى ، وفي هذه الحالة فإن السؤال الجديد يصبح : لماذا ثار إذن ؟

إنني شخصيا أعتقد أن الشيخ بوزيان كان يدرك دون شك تفوق العدو العسكـرى ، وكـان يعلم جيدا بالتالي أن أقصى مايمكن أن تصل إليه ثورته ضد المحتل هو إجباره عن التراجع عن قراراته تلك الخاصة بزيادة الضرائب على النخيل . وبالتعسف التي مانفكت ادارته تتمادى فيه ضد المواطنين .

وذلك ماتؤكده تصريحات الشيخ بوزيان نفسه ، الذى أعلن لقائد الحملة الفرنسية (سيروكا) « أنه وأهل المنطقة يرفضون اعطاء المستعمر مايريده ، وأنه يقاتل إلى آخر رجل » .

بل أن الشيخ بوزيان كان يعرف أكثر من غيره مدى القمع الوحشي الذى ستواجهه به ثورته من طرف المستعمر، فهو وكما نعلم جميعا، أحد رفاق الأمير عبد القادر في السلاح، الذين عاشوا معه كل التصرفات الهمجية للجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري.

ولكن كل ذلك لم يحل دون الشيخ بوزيان ودون الثورة. والقتال فعلا للمستعمر وجيشه حتى آخر رجل كما أعلن من قبل. وهي الثورة التي دامت مايقرب من سنة وكيدت العدو، وبشهادته نفسه، خسائر غير قليلة.

كيف ننسى مثل هذا الموقف للشيخ بوزيان إذن ؟ إن التفسير المحتمل هو أن الشيخ بوزيان، على الرغم من إدراكه العميق لكل تلك الحقائق حول المستعمر وحول تفوقه العسكرى لم يضع أمامه، حين أشعل ثورته حسابات النصر أو الهزيمة... لسبب بسيط وهو أنه وجد نفسه ومواطنيه أمام ظلم استعماري صارخ لم يعد بالامكان السكوت عليه... فاندفع كمسلم مؤمن، وكزعيم روحي للمنطقة للقيام بواجبه في رده دون تفكير في نجاحه أو في فشله في وقفته تلك.

ان مثل هذا الموقف بشهامة، وشجاعته وعفويته ليس بغريب على الشعب الجزائري الذى تؤكد كل وقائع تصديه للمستعمر أنه لم يجعل يوما من التفوق المادى لعدوه، سببا للتراجع عن مقاتلته، بكل الوسائل المتواضعة والمحدودة التي كانت متوفرة لديه.

ومن هنا يبرز أهم درس في هذه الثورة وفي غيرها من الثورات ومن الانتفاضات الوطنية الأخرى هو الدرس المتمثل أساسا في رفض الشعب الجزائري العملي والمستمر لكل أشكال الفشل الذى عرفته ثوراته وانتفاضاته، وقدرته الكبيرة على تحويل كل فشل إلى دفع جديد لثورات وانتفاضات جديدة.

بذلك جاء تاريخ الشعب الجزائرى مع المستعمر بتلك الصورة الصدامية المتصلة، والتي لم تنته إلا بثورة نوفمبر 1954، وبنصرها الحاسم.

من هنا فإن مثل هذه التساؤلات حول الأسباب التي جعلت ثورة الزعاطشة تفشل يجب أن تعمم من طرف المؤرخين والباحثين في بلادنا على كل الثورات والانتفاضات الوطنية الأولى ضد المستعمر، حتى نخرج بأقصى قدر ممكن من الدروس والعبر التي لاشك أنها تزود تاريخنا، ومستقبلنا كذلك، بالعديد من الدروس الايجابية.

وانطلاقا من هذا الانشغال فاننا نورد فيما يلي بعض الأسباب التي نعتقد أنها أسهمت في فشل هذه الثورة (ثورة الزعاطشة) وهي الأسباب التي نجعلها فيمايلي :

1 ـ ان هذه الثورة أو الانتفاضة لم يمهد لها لصورة عسكرية، وسياسية كافية، بل جاءت وكما سبق أن أشرنا بمثابة رد فعل أني وحماسي ضد القمع والتعسف الاستعماريين، (الزيادة في الضرائب على النخيل، التعسف الادارى ضد المواطنين).

2 ـ انها لم تستفد شأنها شأن العديد من الثورات الأخرى ومن الانتفاضات التي سبقتها بصورة كافية من تجارب مصادمات الشعب الجزائرى الماضية مع المستعمر.

لذلك ولدت هذه الثورة أو الانتفاضة، شأن غيرها من العديد من الثورات والانتفاضات الوطنية الأخرى التي سبقتها وتلتها، وانتهت بصورة شبه معزولة، دون أن تتمكن بالتالي من الامتداد إلى سائر المنطقة فضلا عن بقية أجزاء الوطن، الأخرى بالرغم من الاستعدادات الثورية الفعلية التي كانت قائمة في المنطقة، وهذا ابتداء من جبال الأوراس إلى وادى سوف، وهي الاستعدادت التي

تؤكدها العديد من الثورات والانتفاضات التي أشعلت أثناء هذه الثورة مثل ثورة الزراغة وفريجة أو بعد هذه الثورة مباشرة. ابتداء من ثورة جبال البابور 1851 إلى ثورة توقرت 1852 ومرورا بثورة الأغواط 1852، وبغيرها من الثورات الأخرى.

ان هذه الظاهرة التجزئية تظل السمة المشتركة لكل الثورات والانتفاضات الوطنية ولن تختفي إلا أثناء ثورة نوفمبر 1954 التي كانت الثورة الوحيدة التي عرفت من خلال إشعالها لأحداث 20 أوت 1955 في الشمال القسنطيني، ثم في كل أرجاء الوطن بعد ذلك كيف تعمم الكفاح ضد المستعمر في كل التراب الوطني، وتحول دونه ودون محاصرة الثورة منطقة معينة، ثم القضاء عليها بعد ذلك، في غياب بقية أجزاء الوطن الأخرى، كما فعل ذلك من قبل.

3 ـ أنها لم تكيف دفاعتها وقواتها، المتواضعة بالنسبة لقوات المستعمر، أو تغير حتى من استراتيجيتها العسكرية بصورة تتماشى وتغير المستعمر لمواقعة واستراتيجية بل ظلت تواجهه في نفس المكان تقريبا، وبنفس الأسلوب.

4 ـ أنها لم تستعمل بالقدر الكافي الخداع العسكرى أو المراوغة الحربية، حيث منذ البداية للمستعمر الحرب عليه، وقبل أن تبدأ فعلا في تلك الحرب، انطلاقا من مبدأ اسلامي معروف في هذا الصدد.

كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين في تعليمهم لهذا الأسلوب في محاربة العدو، علما بأن هذا المبدأ ليس الزاميا في كل الأحوال خاصة حينما تكون قوات العدو باغية وكثيرة عددا وعدة بالنسبة لقوات المسلمين، وعلما كذلك بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أكد أكثر من مرة أن « الحرب خداع ».

5 ـ أن مطالبها السياسية والاجتماعية لاتتماشى، وحجم التضحيات التي قدمها الشعب الجزائري هذه الثورة أو الانتفاضة والتي لايمكن لأى واحد أن يخطئها بل أن

كل مطالبها الظاهرة والمعلقة على الأقل من المستعمر، قد أحضرت كما سبق أن رأينا، في رفض الزيادة في الضرائب على النخيل وفي رفض التعسف الادارى الاستعمارى.

ومثل هذه المطالب كان يمكن أن تكون هامة ومعقولة لواستعملت كمقدمة لمطالب سياسية واجتماعية أكثر عمقا وشمولية.

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث مع الأسف، بل إن الذى حدث كان العكس تماما حيث أدى فشل هذه الثورة لا إلى تمسك المستعمر فحسب بالزيادة في تلك الضرائب بل إلى تصعيدها وتعميمها على كل أنحاء الوطن، كما أدى به كذلك وبادارته إلى المزيد من التعسف ضد المواطنين.

لكن هل تغير كل تلك الملاحظات المتقدمة أن هذه الثورة (أو الانتفاضة) لم تكن لها نتائج إيجابية ؟.

ان الجواب على مثل هذا السؤال هو بالنفي لكل بأكيد. تهدف الثورة على الرغم من كل تلك المآخذ والسلبيات كانت وستظل شأن غيرها من ثورات وانتفاضات الشعب الجزائري إحدى الحلقات الهامة في المسيرة النضالية الطويلة لهذا الشعب. تلك المسيرة التي ظل يغذيها بدمائه وبدموعه، والتي لم يدع فيها ثورة أو انتفاضة تخمد قبل أن تشعل فتيل ثورة أخرى.

وذلك هو السر في استمرار تلك الجذوة الثورية ملتهبة لدى الشعب الجزائرى طيلة مايزيد عن 130 سنة من الاستعمار، وهي الجذوة التي استطاعت في النهاية وبالرغم من كل أنواع القمع والقهر والحرمان، أن توصل الشعب الجزائرى في النهاية إلى ثورته الحاسمة التي اشعل من جديد نارها في الفاتح من نوفمبر 1954 والتي جاءت وكما سبق أن أشرنا متوجه بشكل نهائي وحاسم لكل ثوراته وانتفاضاته الماضية ضد المستعمر.

ـ البخارى حمانة ـ

القينا هذه المحاضرة بطولقة في 3 أفريل 1986.

د. يحي بوعزيز
(جامعة وهران)

أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ
(1864 ـ 1881)

ماضي الأسرة وفروعها :

ينحدر أولاد سيدي الشيخ، حسبما هو شائع، ومتواتر من أسرة الخليفة أبي بكر الصديق. فقد هاجر أجدادهم الأوائل من المدينة بالحجاز إلى الاسكندرية بمصر، ومن هناك انتقلوا إلى تونس، حيث انحدر منهم العالم المشهور سيدى محرز، الذى مايزال مسجده وقبره، حتى اليوم، من المعالم الكبرى في مدينة تونس بفنه المعمارى الجيد وزخرفته العربية الاسلامية الجميلة.

ومن تونس انتقل البعض منهم إلى تيزى وزو وتنس، وتلمسان بالمغرب الأوسط، ثم إلى غرناطة بالأندلس، ثم عادوا إلى فيقميق بمنطقة الحدود بين المغربين : الأوسط والأقصى، وأخيرا استقروا في واحة تانكيرت التي أصبحت تعرف باسم : الأبيض سيدى الشيخ قرب عين المراسل بجوار ستيتن بالجنوب الوهراني، منذ مطلع القرن السادس عشر، وذلك نسبة إلى الجد السادس والعشرين الذى

يسمى عبد القادر بن محمد وعرف باسم : سيدى الشيخ ، وتوفي حوالي 1615 (1).

وقد خلف الجد الأول عبد القادر بن محمد سيدى الشيخ أحد عشر طفلا بينهم ستة أبناءهم : الحاج أبو حفص، ومحمد عبد الله، والحاج عبد الكريم، ابن الدين، وابن الشيخ، وعبد الرحمن. فانقسموا إلى قسمين قسم استقروا في عمر الأبيض سيدى الشيخ حول قبر جدهم، وعاشوا حياة البدو في الخيام مع عبيدهم، وخدامهم. وقسم استقروا في الناحية الغربية من القصر، وكانوا أكثر عددا من القسم الأول، فانقسموا إلى فرعين أخرين : فرع بزعامة الابن الأكبر الحاج أبو حفص، وفروع بزعامة الابن الثالث الحاج عبد الكريم.

ويبدو أن هناك خلافات بين هذه الأقسام والفروع حول الزعامة الدينية، وقيادة الزوايا المختلفة التي أنشأوها، وانتهى الأمر بأن استقر فرع أبى حفص في شرق قصر الأبيض سيدى الشيخ وأسسوا لهم زاوية، ودعوا بأولاد سيدى الشيخ الشراقة. واستقر فرع الحاج عبد الكريم في غرب قصر الأبيض سيدى الشيخ، وانشأوا لهم زاوية كذلك ودعوا بأولاد سيدى الشيخ الغرابة.

وبذلك ظهر إلى الوجود، فرع أولاد سيدى الشيخ الشراقة وفي القرابة وقد كانت لهذه العائلة صلات النسب مع عرش العلويين حسبما ذكر ترومليه. فالسلطان عبد الرحمن بن هشام تزوج 1844 الياقوت شقيقة سي حمزة زعيم صف الشراقة (3).

1) si HAMZA BOUBAKEUR : origines de la guerre du Sud-Oranais contre la France (1864 – 1900) selon la version arabe. Revue d'histoire maghrébine. n°6 (Tunis. Juillet 1976) PP. 133 – 134.

أما ترومليه فقد ذكر أنه توفي عام 1630 . أنظر ملاحظات في المجلة الافريقية مجلد 26 (1882) ص : 333 ـ 334 .
notes pour servir l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger

3) وقد ذكر ترومليه أن أولاد سيدى الشيخ انقسموا إلى فرع الشراقة والغرابة عام 1854 عندما عين سي حمزة زعيم الشراقة خليفة على الجنوب الوهراني.

3) – TRUMELET : les français dans le desert. (Paris 1865) PP. 68 - 69

وبعد ابرام معاهدة لالامغنية في 23 أوت 1845 بين سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وحكومة سلطان المغرب الأقصى، لتخطيط الحدود، كان فرع أولاد سيدى الشيخ الغرابة يقيمون في التراب المغربي، بينما فرع الشراقة يقيمون بالتراب الجزائرى، فأرسلوا وفدا مشتركا إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام يستطلعونه الأمر فأجابهم بأن الذين كانوا يخضعون للحكم التركي بالجزائر سيبقون تحت سلطة الفرنسيين الذين ورثوا حكمهم فبقوا على هذه الحال مدة.

وفي عام 1846 فكر أولاد سيدى الشيخ في الاتصال بالفرنسيين وأغتنموا في ابريل 1847 مرور كتيبة الجنرال رونو بين قريتي : سي الحاج عمر، وعروباوة، فاتصلوا به وأعلنوا اخلاصهم لفرنسا، وقدموا له حصان كهدية ورائد يقوده، ودفعوا له مبلغ 14000 فرنك كتعويض، وأصبحوا منذ ذلك الوقت يدفعون الضرائب للسلطات الفرنسية لغاية 1848 (1).

وكان زعيم فرع الشراقة في هذه الفترة هو سي حمزة ولد بوبكر، وزعيم فرع الغرابة هو الشيخ بن الطيب. ويبدو أن هناك حزازات شخصية بين زعماء الفرعين كان لها دخل في الأحداث التي ستحصل طوال القرن التاسع عشر سواء مع السلطات الفرنسية المحتلة بالجزائر، أو مع حكومة سلطان المغرب.

أوضاع صف الغرابة حتى عام 1864 :

وفي نوفمبر 1848، أرسل الشيخ بن الطيب وفدا إلى حاكم وهران الفرنسي الجنرال دار بوفيل، يطلب توضيحا حول وضع صفه مع السلطات الفرنسية،

1) د شارل هنرى تشرشل بأن الأمير عبد القادر زار أولاد سيدى الشيخ أوائل عام 1848 في جوان واستضافوه ولكنهم اعتذروا عن تقديم مساعدات له حتى لايعتدى الفرنسيون على قبور أجدادهم ويستحلوها. أنظر ش. هـ. تشرشل الحياة الأمير عبد القادر ترجمة : د. أ. سعد الله الدار التونسية للنشر 1974 . ص : 234 .

فتردد في إجابته لأن الأمور كانت ماتزال غامضة على الفرنسيين أنفسهم ولذلك استدعى الشيخ بن الطيب إخوانه الأربعة إلى الاجتماع به، وهم : سليمان وأبو حفص، ومحمد، وقدور، وحاول أن يكون شبه حكومة في المنطقة الصحراوية الجنوبية بعد أن شاع أن سلطان المغرب الأقصى يستعد لتعيين خليفة له في هذه المنطقة جنوب وجدة، وأراد أن يهيء نفسه ليفوز بهذا المنصب. وحتى يبرهن على قدرته على تحمل المسؤولية شن غارة على حميان الغرابة لتأديبهم لأنهم على مايظهر تردوا وعصوا.

غير أن فرنسا ردت عليه بعنف، فغزا حاكم منطقة معسكر الكولونيل ميسيات « MAISSIAT » الرزاية من حميان الشراقة، الذي كانوا يميلون إلى الشيخ الطيب.

وألف الجنرال بيليسي « PELESSIER » حاكم عمالة وهران، والجنرال ماكماهون والكولونيل ميليني « MELLINET » من منطقتي تلمسان، وسيدى بلعباس، قوات عسكرية من القوم، واتجهوا بها في شهر مارس 1849 إلى عين بن خليل، والعريشة للرد على هجومات الشيخ بن الطيب. واتباعه من حميان العرابة، وكان من ضمن الأعوان الفرنسيين في هذه العمليات العسكرية : قدور بن المخفي، آغا البرجية في منطقة معسكر، وعبد القادر بن داود، آغا تيارت، والحاج المختار آغا الخيالة بمعسكر، وخالد بن الهاشمي، والمولود بن الخروبي.

وعندما وصلت هذه الحملة إلى تيوت يوم 6 أبريل 1849 وجدت الحميانيين قد أفرغوا قصورهم وأخلوها من أملاكهم وأثاثهم، التي هربوها إلى المناطق الجبلية، فتقدمت إلى المقرار التحتاني، والفوقاني، ونسفت الدور والمنازل والقصور، بالبارود، وأحرقتها وقطعت أشجار النخيل، وأفرغت مطامير عين سفيسيفة ووزعت الحبوب والتمور، على جنود الحملة من القوم، والصبايحية.

ولم تكتف السلطات الفرنسية بهذه العمليات العسكرية فطلبت من سلطان المغرب الأقصى أن يعاقب الشيخ الطيب، اذا أراد أن تبقى علاقتها حسنة

معه، فاعتقله عدة شهور، ثم أطلق سراحه فاعتزل السياسة من عام 1849 إلى عام 1864.

وعندما اندلعت ثورة عام 1864، كان مايزال له اخوان هما : سليمان، وأبو حفص، في حين توفي الآخران وهما : محمد في باشاغوية فرندة، وقدور بضواحي فاس بينما كان يدافع على قافلة، وترك أربعة أبناء بينهم سليمان بن قدور الذى سيلعب دورا خلال أحداث هذه الثورة كما سيتضح فيما بعد.

وللشيخ الطيب خمسة أبناء هم : الحاج العربي، وسليمان بن الشيخ، ومعمر، ومولى فارح، وعلال، وسيكون للحاج العربي ومعمر، دور في هذه الثورة كذلك مثل أبيهم بينما لايكون لعلال، ومولى فارح دور هام (1).

أوضاع الشراقة وبروز شخصية سي حمزة :

وبعد قضاء الفرنسيين على مقاومة الأمير عبد القادر كان سي حمزة ولد سيدى الشيخ زعيما لأولاد سيدى الشيخ الشراقة، وقرر أن يضع نفسه تحت تصرف الفرنسيين، فجمع حوله كبار أفراد أسرته ليستشيرهم ومنهم : قدور ولد الحاج الصحراوى قائد سكان هرد، والمولود بن عون الله ومحمد بن الأعرج والمعروف بن الحاج قدور قائد هرر كذلك، وسي عبد القادر بن خالد قائد سكان تيارت. والتقوا جميعا يوم 15 جانفي 1850 عند العربي بن الأعراج قائد حميان الشراقة، وتداولوا الأمر، وتدارسوا فكرة زعيمهم سي حمزة واتفقوا على أن يضعوا أنفسهم جميعا تحت تصرف السلطات الفرنسية، وكلفوا سي حمزة نفسه، والمدعو سي معمر، والحاج جلول، أن يتجهوا إلى تيارت لابلاغ السلطات الفرنسية بقرارهم.

---

5) C. Trumelet : notes pour servir l'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger. Revue Affricaine. Tome 26 (Alger 1882) PP. 333 – 343.

5) من أولاد الشيخ بن الطيب : سليمان بن الشيخ، محمد بن الطاهر، الحاج الشيخ، سليمان بن أحمد وأربعة من خدامه حجزوا بالمغرب الأقصى في فاس والابن الخامس حجز في وجدة (ترومليه مجلد 1880 ص : 444).

غير أن سي حمزة تردد في الذهاب بنفسه وبعث في مكانه ابن عمه الشيخ بن الطيب رئيس فرع الغرابة يوم 17 جانفي من البيض سيدى الشيخ وزوده برسالة إلى تلك السلطات شرح فيها أهدافه وأهداف أبناء أسرته من فكرة الاستسلام.

وانقطعت أخباره هو بعد ذلك على الفرنسيين لمدة شهرين، وفي شهر مارس كتب رسالة أخرى إلى حاكم تيارت الفرنسي يخبره بقدومه اليه، ولكنه لم ينفذ ذلك. وفي شهر أبريل قررت السلطات الفرنسية أن تعينه خليفة على أولاد سيدى الشيخ الشراقة بشرط أن يقدم نفسه إليها بصفة شخصية.

فكر سي حمزة مليا في الأمر، ثم قطع حبل التردد، وأخذ طريقه إلى معسكر صفيد الفرنسي جنوب سعيدة على بعد 35 كلم، واستقبله رئيس المكتب العربي لمدينة معسكر يوم 3 جوان 1840 بحضور أخيه سي النعيمي الذى كان قد خضع قبله للفرنسيين. ولكنهم لم يقتنعوا به، وفضلوا سي حمزة عليه مما جعله يحاول أن يفسد هذا اللقاء والاتصال، بل أن ترومليه ذكر بأنه حاول أن يغتال أخاه خلال اجتماع صفيد بواسطة مخادعة ومؤامرة مكشوفة (1).

مر مابقي من عام 1850 دون حدوث أمر هام يذكر. وفي العام الموالي عاد الشريف محمد بن عبد الله من المشرق، وتزعم المقاومة ضد الفرنسيين في واحات الصحراء الشرقية، واتخذ ورقلة عاصمة له، وأعلن نفسه سلطانا عليها، وعلى ما يجاورها من المناطق والواحات، وسعى للاتصال بابن عمه سي حمزة ولد سيدى الشيخ حتى يقنعه بالعدول عن العمل تحت سلطة الفرنسيين فلم يفلح.

بقي سي حمزة على هذه الحال حتى شهر أبريل 1853، حيث وجه الفرنسيون بالغسول، كتيبة عسكرية صغيرة للاستطلاع والاستعلام من جهة، وللتأكد من بقائه مخلصا لهم من جهة أخرى، فلم يظهر أى انزعاج من ذلك بل أنه اشترك معهم في مقاومة بعض قبائل الحدود خاصة حيان الشعفة.

6 – Trumelet : PP. 74 – 77.

وكان من المفروض أن يكرمه الفرنسيون، ويعلوا من شأنه، لكنهم لم يثقوا في اخلاصه، واعتبروا مايتظاهر به من خضوع، تصنعا فقط، ولذلك اقتادوه إلى وهران، ووضعوه في شبه اقامة جبرية قرروا أن تكون لمدة عامين وحاول أخوه سي النعيمي أن يستغل هذا الوضع لصالحه، فتقرب من الفرنسيين أكثر، وعينوه قائدا على آغوية كبيرة تشمل أثنتي عشرة قيادة غير أنه لم يحتفظ بمنصبه هذا طويلا بل التحق بابن عمه الشريف محمد بن عبد الله بورقلة، وانضم إلى حركته وثورته.

وبسبب موقف سي النعيمي هذا، رفعت السلطات الفرنسية قرار الاقامة الجبرية على سي حمزة بعد سبعة شهور فقط، أعادته إلى مسؤوليته السابقة كزعيم سياسي لأولاد سيدى الشيخ الشراقة، حتى تضرب به عصفورين بحجر واحدة سي النعيمي، ومحمد بن عبد الله، وهو ماحصل فعلا.

بعدما أعد بيليسي : PELISSIER حملته ضد الشريف محمد بن عبد الله صحب معه سي حمزة على رأس حوالي سبعمائة فارس، فأظهر حماسا قويا في مقاومة قبائل الأرباع، وأولاد نايل في واد النساء، الذين كانوا يؤيدون محمد بن عبد الله، وانتزع منهم حسب رواية ترومليه خمسة وعشرين ألف رأس غنم وألف وخمسمائة رأس جمل، وكسب بذلك ثقة الفرنسيين من جديد، وكان على رأس المقتحمين لمدينة الأغواط مع بيليسي.

وبعد أحداث الأغواط أسند إليه الفرنسيون مهمة ملاحقة محمد بن عبد الله، والنعيمى إلى ورقلة، وأعدوا له قوات كبيرة قادها من البيض يوم 3 نوفمبر 1853 عبر بريزينة، وعندما وصل إلى ليلي بقي بها ثمانية عشر يوما حضر إليه خلالها أخوه سي الزبير، والشيخ الطيب بن بابية، وأعلنا له تخليهما عن محمد بن عبد الله، وانضمامهما إليه، وهو نجاح مادى له. فاتجه إلى نقوسة، وتمركز في قصر الشيخ

الطيب، واقتحم الرويسات، وورقلة، واضطر الشريف محمد بن عبد الله أن ينسحب إلى الجنوب، فارا بنفسه، وباحثا عن الأنصار الجدد. (1)

تعيين سي حمزة خليفة :

على اثر النجاحات الكبيرة التي حصل عليها سي حمزة عام 1853 خلال أحداث الأغواط، وورقلة، ضد ابن عمه الشريف محمد بن عبد الله كافأه الفرنسيون عينوه خليفة على كل المناطق التي تمتد من البيض بحوض الساورة، إلى ورقلة في الواحات الشرقية، وعينوا أخاه سي الزبير قائدا على آغوية ورقلة تحته. وبذلك كان دور سي حمزة في هذا الميدان مثل دور أحمد المقراني بمجانة. فكلاهما حصل على منصب الخليفة مقابل خدمة فسي حمزة ولد سيدى الشيخ ساعد الفرنسيين على احتلال الأغواط وورقلة، ومقاومة الشريف محمد بن عبد الله. وأحمد المقراني ساعد الفرنسيين على اختراق مضيق البيبان ونقض معاهدة تافنة بينهم وبين الأمير عبد القادر.

وقد بقي سي حمزة في منصبه كخليفة لمدة ثمانية أعوام حتى توفى بالجزائر العاصمة يوم 21 أوت 1861، وانتشرت اشاعات بأنه قتل مسموما، في حين ادعى الفرنسيون أنه مات بمرض الكوليرا (2).
وخلف وراءه ستة أبناء هم : بوبكر، وسليمان، وأحمد، ومحمد، وقدور، والدين وأخوين هما : سي الأعلى، وسي الزبير، فأختار الفرنسيون ابنه الأكبر بوبكر، وعينوه

1) نفس المصدر. ص 78 ـ 91 ويمكن العودة إلى كتابنا : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (قسنطينة ـ دار البعث ـ 1980) 550 ص.
2) وقد ذكر سي بوبكر بأنه أتهم بمحاولة تنظيم مقاومة مسلحة ضد فرنسا فاقتيد إلى العاصمة ووضع تحت الاقامة الجبرية، أما فيرو فذكر بأنه اتهم من طرف سكان الرويسات وورقلة، بمهالأة الثوار والتعاون معهم ولهذا اقتيد إلى العاصمة لاستجوابه. أنظر :
Si-Hamaza BOUBAKEUR. P. 136 et charles Feraus : le Sahara de Constantine (Alger – 1887) PP. 498 – 500.

في مكانه، ولكن يلقب « الباش آغة » الذى هو أقل رتبة، من لقب « الخليفة » وذلك في اطار سياسة أضعاف الأسر، والعائلات الجزائرية الكبيرة، ذات النفوذ، والمهنة، والمكانة، وهو نفس الاجراء الذى طبقوه مع أسرة المقراني بمجانة، بحيث عندما مات الخليفة أحمد، عينوا ابنه محمد في مكانه بلقب : « الباش آغة ». وكذلك مع الأسر الأخرى.

ومثلما فعل الفرنسيون مع سي حمزة، حاولوا أيضا أن يجربوا اخلاص ابنه الباشا الجديد سي بوبكر. فكلفوه في شهر سبتمبر من نفس العام بملاحقة الشريف محمد بن عبد الله الذى كان يعتصم بالعرق فتتبعه ولاحقه حتى قبض عليه آخر ذلك العام نفسه وسهل عمل قوات الضابط ميرشير MIRCHER ونائبه الضابط بولينياك Polignac ضد الطوارق في أزجير بجهات غدامس (1).

تعيين سي سليمان بن حمزة في منصب الباش آغا :

لم يبق سي بوبكر مدة طويلة في منصبه فقد توفي بعد حوالي عام من تعيينه، في مطلع عام 1862، وكان أهم دور قام به لصالح الفرنسيين هو تمكنه من القاء القبض على الشريف محمد بن عبد الله، دون القضاء على حركته تماما وقيل أنه قتل مسموما من طرف احدى زوجات أبيه ربيحة بنت رابح بايعاز وتحريض من أهل زاوية الشراقة (2).

وفيما يخص الشريف محمد بن عبد الله، فقد ذكر شارل فيرو بأنه بعد اعتقاله نفي إلى جزيرة كورسيكة بعض الوقت، ثم اعيد إلى الجزائر، وفرضت عليه اقامة جبرية بمدينة عنابة، وخصص له مبلغ مائتي فرنك شهريا (مايعادل دينارين جزائريين حاليا)، وتزوج من بنت أحد السكان المدينة الحضريين وبقي حاملٍ الذكر حتى عام 1870 ثم فر إلى طرابلس الغرب والتحق بصديقه القديم الشيخ السنوسي، وتوفي عنده عام 1876 وهذا يخالف ماأوردناه في دراستنا عنه بعنوان « وثيقتان جديدتان عن كفاح شريف محمد بن عبد الله » في مجلة الثقافة عدد 33 (الجزائر يونيو يوليو 1976) ص 11 ـ 28، من أنه توفي في تونس بقرية العوينة عام 1895. أنظر كذلك فيرو : ص 498.
1) Henri GARROT : histoire général de l'Algérie (Paris 1910) PP. 916 – 917.
2) أنظر ترومبلي ملاحظات لتزويد تاريخ تمرد جنوب عمالة الجزائر المجلة الافريقية مجلد 26 (1882).

وعين الفرنسيون في مكانه أخاه سي سليمان، بنفس اللقب والرتبة، بينما عينوا سي الأعلى قائدا على آغوية ورقلة، في مكان سي الزبير الذى كان يعاني مرضا مزمنا منذ زمن طويل. وكان سي الأعلى ذا حيوية ونشاط، ويكن في نفسه على مايبدو من الحوادث أحقادا ضد الفرنسيين، لم يظهرها، ولكنه أخذ يحاول دفع سي سليمان إلى الثورة مستغلا مدة ظروف مثل : رحيل بعض القوات الفرنسية إلى الحرب والغزو الاستعماري في المكسيك، والكوشنشين، بالهند الصينية. ولم يتوقف عن محاولاته هذه حتى نجح في دفعه إلى الثورة أوائل عام 1864.

فما أسباب هذه الثورة :

يسوق الكتاب الفرنسيون عدة أسباب لهذه الثورة :

أولا : سوء سياسة المكاتب العربية تجاه السكان بعد أن استدعي ضباطها القدماء ذو الخبرة والمقدرة في معاملة الأهالي، للعمل في حروب ايطاليا والمكسيك عوشوا بضباط جهلاء بأوضاع البلاد وطبيعة سكانها، اتصفت سياستهم بالشراسة عدم التفهم لمشاكل الناس.

والحقيقة أن سياسة ضباط المكاتب العربية القدماء والجدد تجاه الأهالي الجزائريين واحدة، فلم يكونوا يراعون عواطفهم وشعورهم إلا في حدود مصلحة بلادهم، وسياستها الاستعمارية، وذلك طوال عهد الاحتلال.

ثانيا : قيام السلطات الفرنسية بتجاهل الباشا سي سليمان عندما قامت بتعيين عدد من القواد في منطقة باشا غويته، دون استشارته وكثيرا مايرتبط تعيين هؤلاء القواد بمعارضة السكان أنفسهم فيفرضون عليهم فرضا. وهذه الظاهرة طبقتها السلطات الفرنسية مع العائلات الأخرى في مناطق البلاد الأخرى كذلك كما حصل للخليفة أحمد المقراني وابنه الباشاغا محمد في مجانة قبل وبعد ذلك.

ثالثا : ارهاق السلطات الفرنسية لكاهل سكان الجنوب الوهراني بالضرائب والغرامات التي كثيرا ماكانت فوق طاقتهم، ولم يراع فيها حتى اختيار الأسباب

والمناسبات وهذه الظاهرة طبقتها السلطات الفرنسية على كل سكان الجزائر، دون استثناء بقصد ارهاقهم، واضعافهم ماديا حتى لايستطيعوا القيام بأية ثورة ضدها، ولكن العكس هو الذى كان يحصل دائما، لأن الضغط يولد الانفجار عندما يصل إلى حدود معينة.

رابعا : قيام السلطات الفرنسية بمصادرة أملاك السكان العقارية، وقطعان مواشيهم، كلما وجدت فرصة لذلك ولو كانت تافهة، والغرض من ورائها مزدوج : أفقار السكان، واضعافهم ماديا، وتموين الجيش الفرنسي بما يحتاجه من اللحوم ووسائل النقل. وتزويد المعمرين الجدد بما يحتاجون إليه لتسهيل استقرارهم واقامتهم في أحسن الظروف والأحوال.

وهذه الظاهرة كانت عامة وشائعة في كل انحاء الجزائر طوال القرن التاسع عشر، ولايستغرب أن تكون سببا في ثورة أولاد سيدى الشيخ وأتباعهم في الجنوب الوهراني، لأن مصدر الثورة لديهم هي قطعان الحيوانات.

خامسا : قيام السلطات الفرنسية بحملات التشهير، والتحقير، للجزائريين، بواسطة الصحافة، وأقوال المعمرين، وسلوكهم ومعاملاتهم السيئة، والجارحة، على أساس أنهم سيطروا على هذه البلاد بالقوة، ومن حقهم أن يذلوا سكانها ويهينوهم. وهذا الأمر عام وشائع في كل انحاء الجزائر كذلك، ولم تسلم أية فئة من اهانة المعمرين واحتقارهم، ولايستبعد أن يكون ذلك سببا في ثورة أولاد سيدى الشيخ، كما كان سببا في ثورة غيرهم.

سادسا : انزال مركز عائلة أولاد سيدى الشيخ، والعمل على تحطيم نفوذها السياسي والاداري. فبعد أن كان سي حمزة يتولى منصب الخليفة، أنزلوا ابنيه بوبكر وسليمان من بعده إلى منصب الباش آغة. ثم انتزعوا منهم عدة مناطق، وعينوا عليها قوادا جددا يخضعون مباشرة إلى ضباط المكتب العربي بمدينة البيض وبذلك تقلص نفوذهم، وقل اعتبارهم، وهذا الاجراء طبق على أسر أخرى في جهات أخرى كذلك، وهي سياسة الامبراطورية الثانية الفرنسية بالجزائر طوال عقد الستينات التي كانت تهدف إلى تحقيق أسلوب الحكم المباشر بالجزائر والاستغناء عن وساطة هذه العائلات.

سابعا : أورد شارل فيرو، رواية، ذكر أنها كانت السبب في ثورة الباشاغا سي سليمان وأفراد عائلته، وهي أنه حصلت في مدينة القرارة بميزاب، مشاجرة بين الصفين الشرقي والغربي عام 1963، وتمكن ابراهيم بن بوهون رئيس صف الغرابة من شراء تأييد الباشاغا سي سليمان، ورئيس شعانبة متليلي، ومخادمة ورقلة، فشن هجوما على خصومه ونال منهم. وعندما طلبت السلطات الفرنسية من الباشاغا سي سليمان أن يوقف المعتدين ويعتقل زعماءهم، تقاعس، وتباطأ، وأخذ بدلا من ذلك يعد للقيام بثورة مسلحة، وأوضح لأفراد عائلته أن الفرنسيين الذين قتلوا أباه سي حمزة، وأخاه سي بوبكر، لايتورعون عن قتله هو والتخلص منه كذلك (1).

السبب المباشر للثورة :

إن الأسباب العامة التي استعرضناها سابقا، لم تكن مباشرة، للثورة وانما هيأت الجو، وأعدت الناس لتحمل عبئها، وتقبل مشاكلها ولربما نتائجها. أما السبب المباشر الذى اشعل الثورة، وأوقد لهيبها، فهو القصة والحادث التالي حسب رواية ترومليه.

ففي يوم 29 جانفي 1864 اجتمع سي الفضيل خوجة (كاتب) الباشا آغا سي سليمان وعدد من أفراد عائلة أولاد سيدى الشيخ في ساحة قرية البيض، وأخذوا يلعبون لعبة « الهف » وهي لعبة مشهورة ومنتشرة كثيرا في الجنوب الوهراني. وكان حاضرا معهم عدد من جنود الصبايحية التابعين للمكتب العربي بالبيض، وخلال اللعب تدخل أحد الصبايحية لصالح بعض اللاعبين، فغضب سي الفضيل عليه ونهره، وحصلت مشادات كلامية بينهما أدت إلى مشاجرة كبيرة، وتحامى كل الصبايحية ضد الخوجة سي الفضيل وضربوه بالعصى والأرجل أمام الناس، ثم اقتادوه

Feraud : P. 499. (1

الى مقر رئيس المكتب العربي وحاكم المدينة، وهو ضابط فرنسي، فلم يبال بالأمر، ولم يكترث له، بل أنه انحاز إلى جانب الصبايحية من أعوانه (1).

وعندما علم الباشاغا سي سليمان بالحادث أسرع إلى مقر المكتب العربي، وأحتج لدى الضابط الفرنسي، وأطلق سراح الخوجة سي الفضيل، وأخذه معه إلى منزله، في جو من الغضب شديد أصبح ينذر بما سيحدث من المشاكل مستقبلا (2).

ان حادث ضرب الخوجة الفضيل كان بمثابة الفتيل الذى أوقد شرارة ثورة أولاد سيدى الشيخ، وبذلك اعتبر السبب المباشر لها لأن الباشاغا سي سليمان اعتبره اهانة شخصية له، ولعائلته كلها، وليس لسي الفضيل وحده، واستغله كما يلزم ويجب.

ففي أول فيفرى 1864 تخلى عن وظيفته بصورة غير رسمية، وغادر مقر اقامته بالبيض، واتجه إلى الجنوب عبر واد زرقون، وصحب معه أخويه : أحمد، ومحمد، وعمه سي الزبير، وعدد آخر من أفراد عائلته، وعندما وصل إلى قرية سيدى الحاج الدين قرب واحة بريزينة عسكر بها، وتداول مع من معه الأمر، وانتهوا إلى أخذ القرار الحاسم، وهو شن ثورة مسلحة ضد الفرنسيين، فعين الباشاغا سي سليمان مجلسا عسكريا من عشرة أشخاص، أبرزهم كاتبه الخوجة سي الفضيل الذى عين قاض الجهاد، وسي الأعلى بن بوبكر الذى سيكون له الدور البارز في هذه الثورة (3). ثم كلف الباشاغا سي سليمان كاتبه سي الفضيل بكتابة الرسالة التالية إلى كل القبائل والعروش، والمقاديم والاخوان التابعين لزاوية العائلته، شرح لهم فيها أسباب قيامه بالثورة، ودعاهم إلى حمل السلاح، واعلان الجهاد في سبيل الله ونصها :

1) Trumelet : histoire P. 10.
2) Si-Hamza. P. 138.
3) نفس المصدر صفحة 138 و 139.

الحمد لله ذى الاسم الأعظم (1) والصلاة والسلام على نبي الهدى.

من عبد ربه سليمان بن الشهيد حمزة بن أبي بكر رحمهما الله إلى كل من مقاديم الطريقة الرشيدة وشيوخ القبائل وكبار العمائر السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد : هذا مني اليكم باتفاق جماعتنا بشرى باعلان الجهاد في سبيل الله على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد الكفار الفاسقين الفرنساويين لعنهم الله الذين صلوا علينا وتعدوا وأطغوا (كذا) وشرعوا في اهانة ديننا الحنيف لا أراد الله بعدما فسقوا في أرضنا وأحلوا ما حرم الله فهانحن رفعنا راية المحمدية وبشرنا كل مسلم بالجهاد راجين من المولى سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكفار المخزيين وراجين منكم ومن ناسكم جميعا أن « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لاتظلمون ». فاياكم ثم اياكم وكونوا من القوم الذين وعدهم الله « ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » ولن يخلف الله وعده، الجهاد ثم الجهاد، وبيوم المصانع وميدانه والجمع اللازم قبله يخبركم تفضيلا حامل البلاغ هذا وليبلغ من لايبلغه (كذا) من بلغه والسلام.

كتب بأمر خديم الدين سليمان بن حمزة يوم 22 من شهر شعبان عام 1280 (2).

وعلى اثر اتصال الناس بهذه الرسالة، أوبالأحرى هذا المنشور، أخذوا يفدون على سي سليمان في معسكرة ومن ضمنهم أهل زوة، وسكان لغواط الكسل وسكان هرر، وشعانبة برزقة، وحضر اليه ابن عمه الشيخ بن الطيب زعيم أولاد سيدى الشيخ الغرابة، اذى كان آنذاك في زيارة لأبناء عمومته قادما اليهم من المغرب الأقصى كما حضر من المنيعة جلول بن حمزة على رأس جماعة من الطوارق، وأهل بوخنفيس، وناصر بن شهر على رأس جماعة من سكان الأرباع.

1) نفس المصدر ص 138 وذكر سي بوبكر بأن هذه الرسالة توجد ضمن مخطوط لسي الفضيل سجل فيه مذكراته عن حركة الثورة.
2) الموافق 1 فيفرى 1864.

واتصل الباشاغا سي سليمان بعمه سي الأعلى في ورقلة لستعد هو الآخر، فلب الرغبة وجند كل بدو ورقلة ومياهم للعمل المسلح، وبذلك لم يبق خارجا عن طاعة الباشاغا سي سليمان وحركته بالصحراء الشرقية سوى أولاد اسماعيل، وأهل السعيد عتبة، في نقوسة، والأرباع (1).

وقد اتصل سي الأعلى برسالة ابن أخيه الباشاغا في نومراك شمال متليلي يومي 17 و 18 فيفرى، وذكر ترومليي بأن أهل السعيد عتبه اتصلوا به ونصحوه بألا يتجه إلى الشمال، فاتجه إلى وادى ميزاب لجمع الأنصار من البدو الذين يعتبرون من سكان آغويته بينما ذكر فيرو بأن أهل السعيد عتبه كانوا خارج الصف ولم ينضموا إلى الثورة، فهناك تضارب في أقوالهما.

وقد اختار سي الأعلى نومراك كمكان لتجمع الثوار، ومتليلي مكانا لبدى العمليات الثورية، وفي يوم 23 من الشهر كان على أتم استعداد للعمل، وفى يوم 26 شرع في استعمال العنف في منطقة واد النساء ضد الذين حاولوا معارضة الثورة من الشعانبة، والمخادمة، مما جعل حاكم الأغواط سوزوني SUZZONI يرسل الضابط لوتولي LETELLIER رئيس المكتب العربي إلى هناك لمواجهة المشاكل، ومحاولة تهجير السكان الموالين للسلطات الفرنسية حتى لايتأثروا بالحوادث.

وذكر ترومليي أن الباشاغا سي سليمان الذى تزعم الثوار وقاد الثورة في واد النساء أواخر شهر فيفرى، كان يمثل بالنسبة لسكان الصحراء : « الجنسية الوطنية والدينية الجزائرية » (2).

1) هناك تضارب بين الكتاب حول سي الأعلى. فترومليي ذكر أنه هو الذى أقنع ابن أخيه سليمان بخوض غمار الثورة، وفيرو ذكر أن سي سليمان هو الذى ألح عليه في ذلك أنظر :
2) Trumelet. histoire PP. 5 – 6. et feraud : P. 499.

الباشاغا سي سليمان يحاول تبرير موقفه لدى السلطات الفرنسية. ورغم الاستعدادات المختلفة التي قام بها الباشاغا سي سليمان، ورفاقه ورغم دعوته إلى أتباعه وأنصاره لاعلان الجهاد بمقتضى تلك الرسالة التي وجهها إليهم، إلا أنه كان مايزال مترددا، ولم يقطع حبل الأمل في ايجاد حل سلمي بدون اللجوء إلى العنف والقوة، ولذلك وجه في أوائل شهر مارس رسالة إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر العاصمة، شرح له فيها خدمات أبيه، وأخيه، لفرنسا، واستنكر تصرفات المكاتب العربية تجاهه، وأعلن أنه سيرفض من اليوم مواصلة عمله، وتنفيذ أوامر السلطة إلى أن يتم تغيير من جانب المكاتب العربية، ومما قاله في رسالته : « وكنا نفكر ونعتقد أننا كلفنا بحماية العرب حتى لايهربوا ولا يخافوا، لأن المكاتب العربية من مهمتها الحماية، وهي نفس التعليمات التي أعطيت لنا » وزاد قائلا : « اننا لم نغادر هذه المكاتب العربية ولم نتوقف عن أداء واجبنا نحوها إلا عندما تخلت هي عن واجبها ». وفي الأخير ختم رسالته بقوله : « انني أعلمكم بأنني مستقر بين اخواتي وزملائي من جماهير السكان، ولن أتصافح مع أحد من رجال السلطة إلا عندما اتصل بما يثبت احترامكم لنا، وقد أعلمناكم بما في قلوبنا، فقرروا ماترون » (1).

ان هذه الفقرات من رسالة الباشاغا سي سليمان تؤكد أن سوء سياسة المكاتب العربية، وضباطها تجاه الجزائريين، لها دور بارز في ثورته، هو وأفراد عائلته، كما أن هذه الرسالة ان صحت نسبتها اليه، تؤكد أنه كان يريد أن يعطي للسلطات الفرنسية فرصة أخرى لتعدل من موقفها، وتغير من سياستها، وهذا يعني أن سي سليمان لم يكن يميل إلى الثورة كمبدأ لتحرير البلاد، وانما كوسيلة فقط للتخلص من مشاكله الخاصة، ولم يلجأ لها عن طواعية، وانما مرغما ومكرها.

1) نفس المصدر ص. 10 ـ 11، ولم يشر ترومبلي كيف اتصل الحاكم العام بهذه الرسالة كما لم يشر إلى مكان وجود نصها العربي الاصلي عندما ترجمها، وقد اكتفينا نحن بالترجمة الفرنسية التي أوردها هو لبعض فقرات الرسالة وليس كلها، وهذا ما جعلنا نتحرز.

استعدادات الطرفين لاستعمال العنف :

بعد أن أتم زعماء أولاد سيدى الشيخ، دراستهم للموقف، واستكملوا تجمعهم في نومراك أوائل شهر مارس، اتجهوا إلى الشمال، واخترقوا واد زرقن يوم 7 مارس وتوقفوا في (غدير أوماك الحجيج) حيث كان الباشاغا سي سليمان منكبا على جمع الأسلحة ومواد التموين، بعد أن ترك قطعان مواشيه، وخيامه في عين قوفافة بعيدا عن الخطر. ومن أوماك الحجيج انتقل سي سليمان إلى بريزينة لجمع المزيد من المؤن للثوار، ثم عاد إلى الغدير، حيث التحق به أولاد يعقوب الزراريون الذين قدموا من جبال عمور، بعد أن قتلوا القائد زيرم بن فاطمي بقصر تاجرونة، لمعارضته على مايبدو لحركة الثورة، وذلك يوم 19 مارس 1864. كما التحق به عمه سي الأعلى مع عدد من المخادمة والشعانبة الورقليين (1).

ورغم أن الباشاغا سي سليمان لم يعلن الثورة بصفة رسمية حتى هذه الساعة إلا أن السلطات الفرنسية بدأت تتخذ الاجراءات لمواجهة الموقف المتأزم كنتيجة لرسالته التي بعث بها الحاكم العام بالجزائر فاتجه الضابط الفرنسي بوبريتر BEUAPRITRE حاكم تيارت بقواته إلى جبال عمور، ودعمت القوات الفرنسية بالبيض بقوات اضافية أخرى لمواجهة الاحتمالات، ووجهت قوات أخرى من الجزائر العاصمة إلى عين طاقمين بجبال عمور، ووضعت تحت تصرف حاكم دائرة بوغار الذى كلف بالاتصال مع بوبريتر، لتنسيق العمل، ووصل إلى أفلو يوم 28 مارس (2).

ومع أوائل شهر أفريل كان الباشاغا سي سليمان يعسكر في (غدير الحبشي) ويقوم بمكاتبة زعماء السكان برسائل تحمل طابع أبيه الخليفة سي حمزة، ليؤثر

1) ذكر فيرو بأن سي الأعلى التقى بابن أخيه سي سليمان في أم دمران على بعد ثلاثة أيام من متليلي، وهذا يخالف رواية ترومبلي أنظر : Feraud. le Sahara P. 499 ص

2) Trumelet : histoire PP 14 – 15.

فيهم، ويحملهم على حمل السلاح معه، ومقاومة الفرنسيين وأعوانهم، وعزم على مهاجمة قرى : تاجرونة وبريزينة، وقصر الحاج الدين، للقضاء على المعارضين له، والحصول على المؤن والامدادات لصالح الثوار.

معركة عوينة بوبكر يوم 8 أفريل ونتائجها :

كان الليوطنان بوبريتر حاكم تيارت قد كلف بالاتجاه إلى جبار عمور، فتنقل في المنطقة حتى وصل إلى هضبة عوينة بوبكر على بعد عشرين كيلومتر إلى الشرق من مدينة البيض، وفي صباح يوم 8 أفريل 1864 فاجأه الباشاغا سي سليمان بقواته التي كانت تقدر بحوالي ثلاثة آلاف محارب، والتحم الطرفان في معركة طاحنة قتل خلالها الباشاغا سي سليمان والضابط الفرنسي بوبريتر، وانضم القوم (بالقاف المعقوفة) الذين كانوا يعملون مع القوات الفرنسية، إلى الثوار، وتعاونوا ضد الفرنسيين حتى أبادوهم جميعا، ولم ينج منهم الا ثلاثة جنود فروا إلى فرندة قرب تيارت بعد ثلاثة أيام من الاختفاء في الغابات والشعاب (1).

وهكذا ذهب الباشاغا سي سليمان ضحية الصدام الأول ضد الفرنسيين ولكن نتيجة المعركة كانت مشجعة للثوار لكونهم قضوا على القائد وكتيبته. وفي الحال بايعوا سي محمد بن حمزة شقيق الباشاغا الراحل، زعيما جديدا للثورة وكان صغير السن فوجد في عميه سي الزبير، وسي الأعلى، خير الأعوان والمساعدين خاصة الأخير الذي اشتهر بنشاطه، وحيويته، وخططه المتنوعة، وتنقلاته السريعة بين مختلف المناطق والأقاليم الصحراوية.

فقد كاتب سي الأعلى نيابة عن ابن أخيه سي محمد، سكان الطويلة وللحضرة وقصور جبال عمور، ليمدوا الثوار بالمؤن والمحاربين، وحث أولاد يعقوب

GARROT : PP. 917 – 918. (1

الزراريين على استجلاب حبوبهم التي خلفوها وراءهم هناك قبل قدومهم إلى الباشاغا سي سليمان الراحل.

وذهب بنفسه إلى هناك لتسهيل انجاز العمل، مما أضطر آغا جبال عمور، الدين بن يحي أن يغادر المنطقة باتباعه لينجو من الأخطار، لأنه من المعارضين للثورة، فاستقر بين بني بوزيد وزنينة، وبذلك انفتحت مناطق جبال عمور للثوار، فاجه إليها زعيم الثورة سي محمد ببعض اتباعه، واستقر في قصر البيضاء ابتداء من 15 أبريل.

الثورة تتدعم بالانصار الجدد :

ولم يمض أكثر من أسبوع على مقتل الباشاغا، وتعيين أخيه محمد مكانه حتى تدعمت الثورة بانضمام الآغا النعيمي ولد جديد اليها على رأس عدد كبير من أتباعه في قصر الشلالة بدائرة بوغار، وذلك يوم 17 أبريل، بعد أن قتلوا، في منجل شرق عين طاقمين قائدهم جلول بن مسعود المعارض للثورة يوم 16 ابريل.

وكان الآغا النعيمي واخوته : بوبكر، والمداح، وبن يوسف، وأفراد عائلته المنتمين إلى قبيلة أولاد الشايب، وحوالي خمسمائة فارس قد اتجهوا إلى رأس العين قرب طاقين يوم 16 أبريل، وهاجموا معسكرا فرنسيا، وقتلوا عددا من الجنود الفرنسيين، والأعوان الصبايحية، بينهم الصبايحي أحمد بن رويلة الذى قتله بوبكر ولد الجديد شقيق النعيمي وكان يقوم بمهمة الاستعلام والتجسس ضدهم وهو يعمل في المكتب العربي ببوغار.

وبعد ذلك اتجهوا إلى الناحية الغربية ومعظمهم من أولاد الشايب كما ذكرنا، فحصدوا مزروعاتهم، والتحقوا بعد ذلك بزعيم الثورة سي محمد بن حمزة الذى كان يعسكر في مشقان جنوب غرب عين طاقين (1).

Feraud. P. 500. (1

وإلى جانب الآغا النعيمي، انضم إلى الثورة بن عودة زعيم أولاد مختار بالمدية، والد الآغا بوديسة الذى عزله الفرنسيون من منصبه بسبب تأييده لحركة الثورة رغم كونه كان كبير السن (1).

وبهذا أصبح الثوار بزعامة سي محمد بن حمزة، يهد دون الجلفة والمنطقة المحيطة بها جنوب مدينة الجزائر، كما هددوا باشاغا أولاد نايل الشريف باللاحرش، وأخاه بلقاسم مما جعل السلطات الفرنسية توجه قوات اضافية إلى الجلفة أوائل شهر ماى لتدعيم قوات باللاحرش.

ظهور الثائر سي الأزرق بلحاج في فليتة :

وبينما الثورة تمتد وتنتشر جنوب الجزائر العاصمة، وفي الغرب الوهراني، اندلعت الثورة كذلك في فليتة بجبال الونشريس، وحوض الشلف، بزعامة الشيخ المتصرف سي الأزرق بلحاج الذى ينتسب إلى الطريقة القادرية (نسبة إلى عبد القادر الجيلاني).

وقد ادعى الجنرال لاباسى في رسالته إلى الجنرال فلورى FLEURY بأن سياسة اللين التي يتبعها الامبراطور نابوليون الثالث تجاه الجزائريين هي السبب في ثورة سي الأزرق وغيره، كما أن مبعوثي تركيا السريين الذين ينشطون في الدعاية بطرابلس الغرب، مع تغاضي باى تونس في بلاده عن نشاطهم ونشاط غيرهم من الدعاة والموزين للثورة، كانوا سبب أيضا في هذه الثورة ولكنه أكد في النهاية أن العصبية الدينية، وطبيعة العائلات الأوروستقراطية الجزائرية هي السبب الحقيقي في الثورة، وهي التي يجب أن تناقش.

1) Trumelet. histoire. PP. 17 – 26 et 44.

وادعى لاباسي كذلك بأن سي الأزرق ادعى للناس يوم الجمعة خلال أداء الصلاة، بأن شيخه عبد القادر الجيلاني هو الذى أوحى إليه بأن يحارب الفرنسيين الذين لاتؤثر أسلحتهم ورصاصهم فيه (1).
ويحاول بهذه الرواية أن يضم زعماء المقاومة المسلحة بالجزائر الدروشة، وذلك هو موقف معظم الكتاب الفرنسيين في القرن الماغي ومطلع الحالي.

لقد جند سي الأزرق بلحاج كل منطقة فليتة، وحمل السلاح معه سكان حوالي أربعة وستين دوارا على رواية أحد المسنين الكبار (2) وخاض معركة كبيرة في خنقة العازر يوم 27 أبريل ضد قوات الجنرال مارتينو، وقتل له تسعة ضباط، وثمانية وستين جنديا، وجرح تسعة وثلاثين، بينما قتل من الثوار مايقرب من أربعمائة رجل حسب رواية لاباسي (3).

بعد معركة خنقة العازر، ومعارك زمورة جنوب شرق غليزان بحوض الشلف، انسحب سي الأزرق إلى فليتة، لتنظيم المقاومة، وتوسيع أمدها ورقعتها، ومديده إلى ثوار سيدى الشيخ الآخرين، وأصبحت قرية غليزان مفتوحة أمام الثوار من كل جهة. وأرغم الأوروبيون على ايقاف أعمالهم في معسكر عمي موسى، وأخليت كل القرى الممتدة بين غليزان، وواد رهيو، إلى العاصمة، وذعر الأوروبيون، وفروا بأنفسهم إلى مستغانم بعد أن سبقهم اليهود اليها وأشيع يوم 11 ماى بأن الثوار قد حرروا فعلا هضبة بايموث بضاحية مدينة مستغانم وكان لهذه الحركة صدى في منطقة معسكر ومستغانم.

وقد تمكن سي الأزرق من تخريب معسكر الرحوية الفرنسي، على غرار معسكر عمي موسى، وواد رهبو، وذلك يوم 20 ماى وواصل نشاطه العسكرى حتى

1) un ancien officier de l'Armée du RHIN. le Général LAPASSET (1817 – 1864) tome 1 PP. 12 – 15.

2) روى لي هذه الرواية الشيخ العمارى العمراني الفليتي، الذى كان يعيش في وهران. وهو مسن في حدود السبعين عاما تقريبا، وذلك عام 1975، وأكد أن قبور ثوار هذه الثورة ماتزال حتى اليوم بالمنطقة في فليتة.

3) Un ancien P. 15. 20.

قتل في معركة (ظهرة عبد الله) يوم 8 جوان التي خاضها ضد قو الجنرال روز الذى كان مكلفا بملاحقته في فليتة (1). وخلفه في مكانه سي عبد العزيز الذى سرعان ماسلم نفسه للفرنسيين في زمورة يوم 15 جويلية (2). أما سي محمد بن حمزة زعيم الثورة فقد هاجم قوات الجنرال مارتينو في (عين القطة) يوم 26 أبريل، وأظهر تفوقا ضدها مما اظطر السلطات الفرنسية إلى نجدتها من وهران بقيادة دولين de l'igny الذى حاربه الثوار في معركة شعبة الحمار يوم 13 ماى، ومعركة جبل ستيتن قرب البيض يوم 15 ماى.

وفي يوم 16 ماي عسكر الثوار في قصور : الغسول، وبريزينة، وتكلف الجنرال يوسف بملاحقة سي الأعلى بجبال عمور، ومنع السكان هناك من حمل السلاح. فزحف على عين ماضي يوم 15 ماى وقدم له أحمد التيجاني وأتباعه الطاعة والولاء.

استعدادات الفرنسيين العسكرية ضد الثورة :

وأمام خطورة الأوضاع على الفرنسيين، وامتداد لهيب الثورة إلى عدد كبير من الجهات، أعدوا أربعة فرق عسكرية كبيرة وكلفوها بمواجهتها ومحاصرتها، أولا ثم التفرغ بعد ذلك للقضاء عليها وذلك ابتداء من يوم 10 جوان 1864 وان كانت بعض الفرق قد شرع في اعدادها قبل هذا التاريخ.

ـ الفرقة الأولى :

أسندت قيادتها إلى دولين، ووجهت إلى جنوب وهران انطلاقا من البيض إلى الأبيض سيدى الشيخ فهاجمت سكان هرر في قصر عرباوة، وأخضعتهم بالقوة بعد أن غادرهم زعيم الثورة سي محمد واتجه إلى الجنوب.

1) IBID. PP. 22 – 35 et feraud. P. 500
2) Trumelet notes tome 23 (1879) PP. 247.

ـ الفرقة الثانية :

أسندت قيادتها إلى الجنرال يوسف، وتأسست قبل 10 جوان ووجهت إلى جبال عمور لملاحقة سي الأعلى منذ 15 ماى، ورغم أن يوسف اطمأن إلى ولاء أحمد التيجاني وأتباعه في عين ماضي، إلا أن الثوار ضغطوا عليه، بهجوماتهم فاضطر إلى نزع معسكره من قصر المالية، والانتقال إلى أماكن أخرى أكثر أمنا له ولقواته.

ـ الفرقة الثالثة :

أسندت رئاستها إلى الجنرال ليبير LIEHERT ووجهت إلى جنوب مدينة تيارت للحفاظ على الأمن في هضبة السرسو وراء حوض الشلف التي تعتبر منطقة عبور هامة بين الجزائر ووهران.

ـ الفرقة الرابعة :

أسندت رئاستها إلى الجنرال روز، الذى كلف بملاحقة سي الأزرق بلحاج بفليتة مع لاباسي وغيره من الضباط والجنود. أما الجنرال فقد عسكر في بوشتوت ليقطع الطريق على الثوار المتجهين من الهضاب العليا إلى الجنوب عندما يشتد الضغط عليهم هناك.

ورغم هذا التجنيد الواسع للقوات الفرنسية، والتعبئة المكثفة لها فإن الثورة واصلت سيرها، وامتد تأثيرها شرقا غربا، وظهر في منطقة الحدود الغربية المدعو (بوعزة ولد العربي) وشجع الناس على حمل السلاح فاستغل سي الأعلى حركته، واتجه إلى منطقة سعيدة، واحتل قرية الضاية واحرق المكتب العربي بها، ثم انحدر بأتباعه إلى مشرية جنوبا، وأحرق مزارع المعمرين حول برج سيدى علي أيوب، واخترق جبال عمور إلى الجنوب رغم قوات الجنرال يوسف، وأدخل الرعب والفزع في صفوف القوات الفرنسية وشدد عليها الخناق.

وفي نفس الوقت قام الثوار بمنطقة مزاب خلال شهر ماى، بمهاجمة المعارضين لهم، وخربوا أملاك الشيخ بوحفص الموالي للفرنسيين في قرية نقوسة قرب ورقلة، وزحفوا على مدينة غرداية لنفس الغرض، ولجمع الأنصار والمؤن (1).

وحاول الجنرال موري MOURIS خلال شهر جويلية أن يواجه الثوار بمساعدة الضابطين : دومونت DUMONT ، وأرشينار ARCHINARD اللذين كلفا بالمراقبة، بعد أن سافر يوسف، ومارتينيرى، إلى فرنسا في اجازة واتجه دولين إلى جنوب سعيد.

ظهور مولاى محمد، والحاج محمد الغربي في ورقلة :

وفي خلال شهر جويلية ظهر في ورقلة رجلان حاولا أن يستغلا الأحداث الجارية :

- الأول : يدعى مولاى محمد، وهو ابن غير شرعي لسلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن بن هشام، وكان في السابق يقيم ببسكرة، وسجن هناك لسرقة ارتكبها كما ذكر فيرو، ثم رحل إلى الجريد التونسي. وفي يوم 15 جويلية 1867 وصل إلى ورقلة وادعى للناس أنه شريف بعثه السلطان العثماني ليتزعم محاربة المسيحيين بهذه البلاد وطردهم.

- الثاني : يدعى الحاج محمد العربي، وكان يقيم بالجريد التونسي، وادعى فيرو كذلك بأنه تاجر للحشيش المخدر، وفي يوم 29 جويلية وصل إلى ورقلة على أمل القيام بحركة ثورية كذلك.

1) فيرو ص. 501.

ولسنا ندرى ما إذا كان هناك اتصال سابق بين الرجلين قبل قدومهما، أو تعارف، ولكن حضورهما في وقت واحد إلى ورقلة، يوحي بذلك، ثم ان اتفاقهما على التعاون لمقاومة الشيخ بوحفص النقوسي الذى تصدى لمحاربتهما يقوى فكرة الاتصال بينهما والاتفاق مسبقا.

وعلى أى حال فان الشيخ بوحفص تغلب عليهما فانسحبا إلى الحجيرة وتوقرت وبقيا بتلك المنطقة طوال شهر أوت، وفي يوم 10 سبتمبر تزعما عددا من رجال الشعانبة، والمخادمة، وبني تور، واتجها إلى برون الميزابية وخلال الصدامات التي حصلت مع السكان، فر الحاج الغربي واختفت أخباره بصورة نهائية، وانتقل مولاى، محمد، ولم يذكر نهايتها بعد ذلك فيرو (1).

وفي مطالع شهر أوت، وفي يوم 6 منه بالضبط، وصل سي الأعلى إلى عين طاقين بجبال عمور على رأس ألف وخمسمائة محارب، ووجد هناك في انتظاره ثوار الأرياع فانتقل بهم إلى جنوب مدينة الجزائر، حيث انضم إليه سكان الأغواط وجبال عمور، ومنطقة بوغار، وسلم جنود الصبايحية له معسكر عين وسارة الفرنسي فأصبح يهدد الجلفة ومنطقتها مرة أخرى، فوجهت السلطات الفرنسية إليه هناك الضابط أرشينارد le Colonel Archinard يوم 20 أوت ليواجهه، بينما عاد يوسف من فرنسا يوم 26 ليتسلم منصبه في نفس المنطقة بعد أن أصبح خطيرا.

فقاد يوسف قوات عسكرية ضد أولاد نايل الذين أثارهم الخوجة سي الفضيل بن علي بينما زحف أرشينار، ولبيبير، على منطقة جبال عمور، وقام الثوار بمهاجمة قوات لبيبير يوم 9 سبتمبر في بئر « أوقلت الزعفران »، ثم انسحب سي محمد ولد حمزة إلى أفلو، بينما انسحب آخرون إلى جهات أخرى، وكان من ضمن المقتولين الفرنسيين في هذه المعارك الضابط وأذام.

1) نفس المصدر ص 502.

وفي يوم 30 سبتمر هاجم الثوار قوات دولاكروا في ثنية بواد درميل جنوب قسنطينة يوم 2 أكتوبر، بسبب استقبالهم للثوار وايوائهم لهم وكانت نتيجة معركة واد درميل قاسية قتل 13 وجرح 16 للفرنسيين وقتل 150، وجرح 200 للثوار. وقامت قوات فرنسية أخرى يوم 7 أكتوبر بمصادرة ثلاثة آلاف وخمسمائة جمل، وثلاثة آلاف رأس غنم، وألف رأس بقر، لسكان قرية العاطف المقام قرب عين الخزرة اضعافا فهم حتى لايقدموا للثوار المعونة والتأييد، وبذلك انسحب ثوار جنوب قسنطينة بعضهم إلى جبل الصخرى والبعض إلى جبال الزاغر الشرقي.

وفي منطقة بسكرة قام ثوار الشعانبة، والمخادمة وبني ثوار بمهاجمة خصومهم بضواحي المدينة، واخترقوا وادى ايتل بعد ذلك وقام ثوار أولاد نايل بقتل عدوهم اللدود الباشاغا سي بالأحرش وقريبه القائد قدور، بايعاز من سي الأعلى يوم 13 أكتوبر، ومن هناك اتجهوا إلى هضبة تادمايت ومن روائهم يوسف وليبير (1).

وفي منطقة وهران واصل الثوار نشاطهم المسلح، وانتشر زعماؤهم شمال الشط الشرقي، وخيثر، لتشجيع الناس على المقاومة، ونشط سي الأعلى في منطقة الغاية مقرة بمنطقة سيدى بلعباس التل الوهراني.

وفي ليلة أول جانفي 1865 هاجم الثوار قريتي العالية، والطيبات ثم التحقوا بمنطقة ورقلة أين كان ينتظرهم سي الأعلى بعد أن حضر فيها من الناحية الغربية عبر قرى ميزاب، وحضر في نفس الوقت بن ناصر بن شهرة من نفزاوة بتونس والتقوا جميعا في (حفر الشاوش) وكانت خطتهم التي اتفقوا عليها هي مهاجمة ورقلة والاستيلاء عليها، فعلم الفرنسيون بهذه الخطة من أعوانهم التابعين لأهل السعيد

1) نفس المصدر ص 502.
1) Trumelet. histoire P. 50.

عتبة، وكلفوا الضابط سيروكا الذى كان منذ أواخر عام 1864 يقوم بعمليات عسكرية ضد الثوار أولاد سيدى عيسى في المنطقة الممتدة بين بوسعادة والجلفة، وبسكرة، كلفوه بملاحقة سي الأعلى وأتباعه، فأخذ معه الضابط فورجيمول واتجها بقواتهما إلى حفرة الشاوش لمباغتة الثوار يوم 31 جانفي، وبعد معركة خفيفة، انسحب سي الأعلى يوم 2 فيفرى إلى بوجديان جنوب شرق ورقلة.

وحاول بوخراس بن قانة، والموهوب بن شنوف، والطيب بن حرز الله، وعلي باى وقائد الخيالة اسماعيل، أن يعترضوا طريقة، فخاض ضدهم معركة كبيرة، قتل وجرح خمس عدد من الطرفين، وأفشل خطتهم في حصاره والقضاء عليه كما كان الفرنسيون يتمنون. وأسرع في الحال إلى الناحية الغربية عندما بلغه خبر مقتل ابن أخيه سي محمد ولد حمزة قائد الثورة.

ـ مصير الثوة بعد مقتل زعيمها الثاني
ـ معركة سيدى الشيخ ومقتل سي محمد الزعيم الثاني للثورة.

بقي قائد الثورة الثاني سي محمد ولد حمزة، يكافح ويقاوم حتى جرح جروحا بليغة وقاتلة في معركة (قارة سيدى الشيخ بن عود) قرب المنقب يوم 4 فيفرى 1865 على يد أحد خصومه الحاج قدور الصحراوى زعيم الهرارين، وذلك خلال الصدام ضد قوات الجنرال دولين فهرب إلى أولاد زياد وتوفي عندهم متأثرا بجروحه يوم 65/02/22، فخلفه في قيادة الثورة أخوه أحمد ومه سي الأعلى الذى كان في هذه المرحلة، العقل الرأس المدبر للثورة والمخطط لأساليب الكفاح والجهاد (1) لأن سي أحمد مايزال صغير السن كثيرا عمره 17 عاما فقط.

وفي خلال شهر أبريل خاض الثوار عدة معارك ضد الضابط كولومب، وقواته في المنطقة الغربية، وبعد فصل الصيف عاد سي الأعلى وابن أخيه سي أحمد من

1) GARROT : P. 921 et Feraud. PP. 504 – 507 et trumelet note Tme 2 (1882) P. 82 – 83.

المغرب الأقصى إلى داخل الجزائر في شهر أكتوبر، وتقدما بقواتهما نحو التل الوهراني.
وشاعت في مطلع شهر أكتوبر اخبار بأنهما يقودان جيشا من خمسين ألف رجل وبصحبتهم شيخ مغربي يدعى سي محمد مولاى كرزاس وهي اشاعات كاذبة، ولكنها خلقت آثارها في أوساط الفرنسيين، وأصدر الحاكم العام الفرنسي يوم 17 أكتوبر 1865 أمرا يقضى باتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة الوضع.

وقد تقدم سي الأعلى ورجاله إلى جنوب منطقة سبدو، وعسكروا يوم 19 أكتوبر في تيطن بجي بمنابع واد مقرة قرب سيدى بلعباس، وكان معه حوالي ألفي رجل مسلح من الانجاديين، والحميانيين الغرابة والجعافرة، ومن هناك انتقل إلى عين تاقورارية جنوب الغاية، ثم إلى عين ماضي ومناطق الأرباع بالأغواط.

وعمل كل من الضابط كولومب، والجنرال لاكروتيل LACRETELLE على اعتراضه وقطع الطريق عليه نحو التل، وملاحقته خلال مابقي من شهر أكتوبر.

وفي الوقت الذى كان سي الأعلى ورفاقه يتقدمون نحو التل، وصل بن ناصر بن شهرة وبوديسة إلى الناحية الغربية، وظهرا شمال غرب البيض، في أوسط أهل ستيتن، وأولاد طيفور، ومفتة، وسعيا للتعاون مع ثوار أولاد سيدى الشيخ.

وفي أواخر شهر ديسمبر غزا سي الأعلى وأخوه سي الزبير شعانبة متليلي، والمخادمة، وضواحي غرداية الميزابية، وانتشرت اشاعات بأنه يعتزم غزو ورقلة وعسكر في حاسي بوزيد قرب ضاية الخمسة وكنتيجة للضغط الفرنسي، وشدة ارهابه اضطر إلى الاستسلام عدد من سكان : أولاد زياد المرازيق، وأولاد بن زيان من الدرارجة الغرابة، وأولاد سرور، وأولاد موسى، وأولاد بوعزة، وأولاد بوداوية بن سلامة، والكوابيس، والعمارنة.

أما سي أحمد ولد حمزة فقد انسحب إلى شط تيقرى بعد أن حصلت بينه وبين عمه سي الأعلى وحشة ونفور نظرا لصغر سنه، وضعف ادراكه (1).

وفي النصف الأول من شهر جانفي 1866 جمع سي أحمد ولد حمزة مجموعة من رجاله، وعسكر بهم في الضفة اليسرى لواد مساورة جنوب فيقيق، وحصلت بينه وبين سكان دوى منية مشاكل حول الأموال، والنشاط المسلح.

أما سي الأعلى فقد تحرك من حاسي بوزيد إلى متليلي، واصطدم مع بعض الشعانبة خلال شهر فيفرى، ثم اتجه في آخر الشهر إلى قصر الحاج الدين وفاجأه أحمد بن سليمان، وعدد من سكان الأرباع المتعاونين مع الفرنسيين في مطلع شهر مارس، وانتزعوا منه عددا من الخيام، وحوالي سبعمائة جمل. وقتلوا له أحد أعمامه المدعو الشيخ بن الطاهر.

وفي الوقت الذى كان قبة سي الأعلى يقاوم في الناحية الغربية، انتقل بن ناصر بن شهره، والآغا النعيمي ولد الجديد، وابراهيم بن عبد الله قائد السوامة، وناصر بن ناصر إلى منطقة ورقلة، واصطدموا بقوات العون الفرنسي علي باى في (بئر روى) جنوب ورقلة أواخر شهر مارس، وأواخر أبريل، فوقع ابراهيم بن عبد الله في يد علي باى، وكان يتزعم حركة الثورة في منطقة بوسعادة، وانسحب بن ناصر بن شهرة، والنعيمي ورفاقهما إلى نفزاوة بتونس عبر غدامس (2).

سي أحمد ولد حمزة يحاول الحصول على الاعتراف من طرف الفرنسيين :

ومن التطورات التي حصلت خلال هذه الفترة حسبما روى ترومل هو أن سي أحمد ولد حمزة، كتب رسالة إلى حاكم عمالة وهران الفرنسي أخبره فيها بأنه على

1) trumele. Notes tome 26 (1882) PP. 87 – 96.
2) Feraud P. 508 – 510.

استعداد لوضع السلاح، واقرار السلم، اذا قبلت السلطات الفرنسية أن تضع تحت سيطرته كل المنطقة التي كانت تخضع لنفوذ سي حمزة وتكون علاقته معها علاقة الند للند، ولسنا ندرى مدى صحة هذه الرواية، خاصة وأن سي أحمد مايزال صغيرا، وفي خلاف مع عمه سي الأعلى، صاحب السمعة والنفوذ في حركة الثورة، اللهم إلا إذا كان هذا الخلاف هو الذى حمله على ذلك.

وبدل أن تجيبه السلطات الفرنسية إلى مطلبه، أمرت قواتها بالتحرك نحو الغرب الوهراني، من البيض، والأغواط، وبسكرة، فرد سي أحمد على هذه التحركات العسكرية، بتجنيد عدد من أنصاره التابعين لأولاد عمور، وأولاد جرير، ودوى منية، والدرارجة، وأولاد زياد، وعزم على التقدم نحو الهضاب العليا لمنع تجمع تلك القوات الفرنسية، وتحطيم مشاريعها، وصحب معه إلى المزايق الآغا السابق بوديسة ولد المختار، وقام بالاغارة عليهم لمعارضتهم للثورة.

معركة حاسي بن عتاب ونتائجها :

وعندما عزم سي أحمد ولد حمزة على الانتقال إلى منطقة شقيق CHEGUEC ، غرب واد سيدى ناصر، ترك بوديسة وراءه لمواجهة مشاكل المرازيق، وتنقل هو في منتصف مارس 1866 بين حوض سويز SOUEZ وعين الوراك وجبل مغريس جنوب شرق البيض، وأصبح يهدد طريق سعيدة، والقوافل التي تتنقل في المنطقة، فكلف الضابط كولومب عسكرية بالاتجاه إلى خنقة العازر لحماية المرازيق، في الطريق علمت أن سي أحمد ولد حمزة يوجد في زويرق على بعد 10 كلم من شمال البيض، فاتجهت إليه ولكنه غادرها قبل وصولها، فلاحقته إلى خنقة العازر، فانتقل منها إلى حاسي بن عتاب يوم 15 مارس 1866، وعقد عدة اجتماعات مع رفاقه وأتباعه لدراسة تحركات الفرنسيين، وعلم هناك بأن حاكم البيض الفرنسي يسعى لقطع الطريق عليه بقوات تزيد على ألف رجل، وأصبح مابد من الصدام معه.

1) Trumelet. notes PP. 97 – 104.

فغرس علمه الحريرى ذا الألوان : الخضراء والحمراء والصفراء في وسط جموعه الذين ينتمون إلى أولاد زياد، أولاد الدراجة، وأولاد سيدى ابراهيم، وأولاد سيدى أحمد، وكلهم يمثلون خدام عائلة أولاد سيدى الشيخ.

وفي يوم 16 مارس نشبت المعركة، واحتدت كثيرا، وانتهت بمقتل 42 وجرح 55 من القوات الفرنسية وأعوانها، وبمقتل وجرح عدد آخر من الثوار لم يحدد ترومليه عددهم بالضبط، وكانت نتيجة المعركة قاسية على الفرنسيين مما جعل الحاكم العام الفرنسي بالجزائر يصدر قرارا يوم 20 مارس بمصادرة كل أملاك أولاد سيدى بوبكر، وأولاد سيدى الشيخ، وكل الذين ينحدرون من سي سليمان، وسي أحمد ولد سي حمزة، وعميهما سي الأعلى وسي الزبير.

وبعد المعركة افترق الثوار فاتجه إلى سي أحمد ولد حمزة وبعض أتباعه إلى فيقيق، وأعتصم بها مع أهل الأغواط الكسل، وعسكر الشيخ بن الطيب أتباعه من فرع الغرابة في المناورات، شمال فيقيق، وعسكر القسم الثالث منهم في الواد الغربي، ثم انتقلوا إلى واد سقار على اقدام قرية الحاج الدين، وأرغمتهم السلطات الفرنسية فيما بعد على الاستسلام (1).

معركة غار القيفور ونتائجها على سي الأعلى :

وبعد أحداث حاسي بن عتاب قرب خنقة العازر، تحركت القوات الفرنسية نحو شط تيقرى لمهاجمة محلة الشيخ بن الطيب وكانت نتيجة الصدام بين الطرفين يومي 13 و 14 أبريل في رأس المحاروق قرب الحدود المغربية، استيلاء الفرنسيين على 2500 جملا، و 20 ألف رأس غنم، ومآت من رؤوس المعز، واضطر

1) نفس المصدر. ص 105 ـ 106 و 162 و 191 و 322 ـ 424.

الكثير من الثوار أن يهاجروا إلى داخل المغرب الأقصى، في حين انسحب سي الأعلى من رأس المحاروق إلى حاسي الشيخ في العرق، ثم إلى واد الناموس غربا ومن ورائه قوات الضابط صوني SONIS ، وقومه وأعوانه، وعندما وصل إلى غار الهيمور، هاجمه القوم، وأحدثوا خللا في قواته، وسلبوا منه خيمته الخاصة وأمتعته، وبرنوسه واستلوا على ملابسه الثمينة وجواهر وحلي زوجاته، وخاتم أخيه سي النعيمي ولد بوبكر واستولوا أيضا على حوالي 450 جملا، وعددا كبيرا من الأغنام (1).

سي الأعلى يحاول الاتصال بالفرنسيين :

وقد ذكر ترومبلي أن سي الأعلى، وسي الزبير، اقتربا من منطقة البيض أواخر شهر أبريل ومطالع شهر ماى 1866، وحاولا أن يعرضا شروطهما على الفرنسيين من أجل الاستسلام، ولكن السلطات رفضت أن تسمع لهما، وكان من رأيها أن يسلما دون شرط، ويقدما بنفسيهما دون أية واسطة.

ومن التطورات التي حصلت خلال هذه الفترة كذلك طلب سكان منطقة الحدود المغربية الحماية من الشيخ بن الطيب زعيم الغرابة ضد هجمات وغارات سي أحمد ولد حمزة ورفاقه من الشراقة، كما أن سليمان ولد قدور من فرع الغرابة قام على رأس مائتي فارس من الطرافي، بالهجوم على أولاد سيدى أحمد المجدوب، فرد عليهم الحميانيون ولاحقوهم إلى واد غير وخلق ذلك مشاكل داخلية في منطقة الحدود.

ومع أواخر عام 1866 اعتصم أولاد سيدى الشيخ كلهم تقريبا في واد غير. البعض بزعامة سي أحمد ولد حمزة، والبعض بزعامة سي سليمان بن قدور. أما الشيخ بن الطيب فقد انسحب إلى الجنوبي نحو تافيلاله، تاركا قيادة فرع أولاد عبد

1) نفس المصدر ص 332.

الكريم إلى ابنه مولى فارح الذى نقل خيامه من واد غير إلى أوقلت بوعلال، والتحق سي الزبير بابن أخيه أحمد ولد حمزة، بينما غادر سي الأعلى المنيعة إلى واد مقيدم بعد أن غزا المخالف بالأغواط.

وفي مطلع عام 1867 كان الثوار الذين مايزالون يحملون السلاح ينتمون إلى أولاد زياد الغرابة، والشراقة، والدراجة البراهمية، وبودواية، وأولاد معلة، وأولاد عبد الكريم، وأولاد سيدى الشيخ زوة، وأولاد عيسى، وأولاد مومن، والفراريج، والرزيقات، والرزاينة.

وتحولت فيقيق ومنطقتها إلى معقل للذين يعارضون زعماء الثورة ويعلمون لحسابهم الخاص، ويهاجمون باستمرار السكان الخاضعين للفرنسيين وقاموا بالهجوم على عرباوة في أوائل شهر جانفي، وأقتربوا من البيض نفسها قبل أن يعودوا إلى فيقيق بعد أن فقدوا ثمانية أشخاص.

وقد انتقل سي أحمد ولد حمزة وعشيرته خلال شهر جانفي إلى مواطن أولاد جرير، واستقروا بالبشار جنوب عين الشعيرة، وعزم على مهاجمة حميان الغرابة بمساعدة دوى منية وبني غيل، وكلف أخاه سي قدور ولد حمزة ليقوم بالدعاية في أوساط القبائل المغربية تجلبها إلى صف.

وفي نفس الوقت قام عدد من الأغواطيين اللاجئين في فيقيق بهجوم على أحواز قصور عين الصفراء، وتيوت، وسلبوا من السكان قطعانهم، فلاحقهم الأعوان الفرنسيون واسترجعوا منهم البعض.

وفي أواخر شهر مارس 1867 اتجه سي أحمد ولد حمزة بن قدور، وأتباعهما إلى منطقة الحدود، ووصلوا يوم 13 منه إلى العنبة شمال قصر عين سفسيفة، ثم

إلى تاوسرة، فآبار العاقراين يتمركز أولاد خليف، وحيان جنبة ومن هناك اتجه سليمان بن قدور إلى الفكارين وأصطدم مع المكاولة، وقتل لهم رئيسهم، وتسبب في ضحايا بين الطرفين، ثم عاد إلى شلالة الظهراوية والقبلية وبوصمغون في أوائل شهر أبريل، واضطر السكان هناك أن يقدموا سي أحمد ولد حمزة مقادير مالية.

بعد مدة من هذه الحوادث أقدم سي أحمد ولد حمزة على الهجوم على قطعان القائد محمد ولد الحاج أحمد من أولاد عبد الكريم، فتسبب ذلك في انفصال الرزاينة، وأولاد عبد الكريم، وأولاد معلة، عنه وشقاقهم بالشيخ بن الطيب رئيس فرع الغرابة، وانضمامهم لقافلة ابن أخيه سليمان بن قدور الذى حصلت وحشة بينه وبين ابن عمه أحمد ولد حمزة بسبب هذا الاعتداء (1).

المفاوضات بين فرنسا والمغرب لصالح زعيم ضد الغرابة :

وبسبب هذه الحوادث العنيفة، والمكثفة، في منطقة الحدود الغربية، دخلت فرنسا والمغرب الأقصى في مفاوضات انتهت بالاتفاق بينهما على تعيين الحاج العربي بن الشيخ الطيب خليفة على فيقيق تحت سيطرة قائد وجدة، بعد اطلاق سراحه من قبل السلطان لأنه منذ أكتوبر 1864 وهو معتقل في وجدة بفاس عندما أرسله أبوه إلى السلطان ليطلب اطلاق سراخ أخيه.
ولم يطلق السلطان سراحهما إلا بعد أن عوضهما بأخويها ليتأكد من أخلاص الشيخ بن الطيب وابنه الحاج العربي.

وقد تحمس الحاج العربي لأداء دوره، والتحق بفقيق يوم 10 أكتوبر 1867، وحاول أن يفرض سيطرته الادارية على السكان، ولكنه وجد صعوبة كبيرة

1) ص 345 و 351.

لأن ظروف السكان كانت صعبة جدا بسبب مشاكل الحرب الطويلة التي أحدثت فيهم الفقر، والخصاصة، والأمراض، فلم يستجيبوا له، أو اضطر أن ينسحب من المنطقة ويلتحق بابن عمه سي سليمان ولد قدور الذى طلب هو الآخر الأمان له ولاتباعه من الفرنسيين، ووجه اليهم رسالة بتاريخ 10 نوفمبر 1867 يعلمهم باستعداده للخضوع لهم، والتحق فعلا بالبيض يوم 11 جانفي 1868، بصحبة فروع : أولاد عبد الكريم، والرزاينة (1). فجاء هذا الحادث ليضعف من مركز أولاد سيدى الشيخ خاصة وأن سليمان ولد قدور سيستعمله الفرنسيون كأداء للقضاء عليهم وعلى ثورتهم.

سي الأعلى يجدد عرضه للاستسلام :

وادعى فيرو بأن سي الأعلى حاول في شهر جوان 1867، أن يجدد عرض الاستسلام كذلك فوجه رسالة إلى حاكم بسكرة الفرنسي في الموضوع، فرد عليه بامكانية ذلك اذا قدم بنفسه إليه، ويبدو أن سي الأعلى فهم أن اتجاهه إلى بسكرة ينطوى على خديعة، ولذلك توقف عن هذه المراسلات، والاتصالات، وغادر المنطقة إلى المنيعة بعد أن استخلف في مكانه رفيقه وعقده سي النعيمي. وقام بعدة غارات على العاطف الميزابية، وجماعة السعيد عتبة، الذين كانوا يعارضون الثورة (2).

وبعد مدة من اقامته في المنيعة، اتجه إلى توات، واستقر في تابلكوزة TAB-EL-KOZA ، وخاض هو ورفاقه عدة معارك ضد القوات الفرنسية من ضمنها (معركة واد غير) التي انسحبوا على اثرها إلى جنوب المغرب الأقصى وأخذوا من هناك يشنون غارات متقطعة على القوات الفرنسية حسبما تسمح به الظروف والامكانيات (3).

1) ص 351 و 354.

2) Feraud P. 511. 512.
3) Trumelet histoire P. 194 - 200.

مقتل زعيم الثورة الثالث : سي أحمد :

وفي الوقت الذى تم فيه تعيين سي الحاج العربي خليفة على منطقة فيقيق، وحاول سي الأعلى أن يجدد اتصالاته بالفرنسيين، نظم الحميانيون عملية الاستسلام للفرنسيين بأنفسهم وقوى مركز سليمان بن قدور يهم فقادهم ضد الثوار في ضاية مولى جمعة في أوائل شهر مارس 1868 وقتل منهم أعداد كبيرة قيل أنهم 150 شخصا، وسلب منهم 350 جملا، وأمتعته ولم يكن سي أحمد ولد حمزة حاضرا في هذه المعركة، والمانايا سي معمر بن الجديد. وقد لاحقهم آغا سيدو وانتزع منهم قطعانا أخرى وأمتعته، وتمكن سليمان بن قدور من الحاق خسارة كبيرة بين غيل بعد ذلك في ضاية بوقورين وانتزع منهم عشرين ألف رأس غنم.

وفي خلال شهر أكتوبر 1868 كشف الغطاء عن موت زعيم الثورة الثالث سي أحمد ولد حمزة في تافيلالة، بمرض الكوليرا وخلف وراءه ابنين صغيرين كفلهما أخوه سي قدور ولد حمزة الذى خلفه في قيادة الثورة وهو ابن امرأة زنجية تدعى مباركة بنت يحي، ولد لأبيه سي حمزة عام 1853م وتتعاون معه عمه سي الأعلى على مواصلة الثورة، وأمضيا مابقي من عام 1868 في هدؤ واستعداد بمنطقة الحدود (1).

وفي النصف الأول من شهر جانفي 1869 عادا برفاقهما إلى الجزائر، وكون ثلاث فرق : بزعامة سي الأعلى، وفرقة بزعامة سي قدور، وفرقة بزعامة الحاج العربي ولد الشيخ الطيب، وهاجموا في آخر الشهر المعارضين لهم في دواوير أولاد ابراهيم، وأولاد الناصر بجبال عمور، وأولاد يعقوب الأرباع في أحواز البيضاء، ومن هناك نزلوا إلى واد طاقين لملاحقة آغا جبال عمور الدين بن يحي الذى كان يوجد في

1) Trumelet : notes PP. 359 – 360.

أولاد خليف، فانسحب إلى تواز، وقتلة السطل، وقطع الثوار خط الهاتف الذى يربط فرندة والبيض، ومن هناك أخذوا طريقهم نحو الجنوب.

وبسبب هذه التحركات الواسعة للثوار، تحركت القوات الفرنسية في كل جهة من عمالتي الجزائر ووهران، بالبيض، وتيارت، وفرندة، وتلمسان وبلعباس، وثنية الحد، وبوغار، والمدية، والأغواط، بقيادة كل من سليمان بن قدور، والليوطنان كولونيل كولونيو COLONIEU ، و « صوني »، والجينرال « مارمي »، والحاكم ترومليي، والجينرال « ليبير » LIEBERT ، ولعب معهم دورا بارزا كل من سليمان بن قدور، ومن فرع الغرابة، والحاج قدور ولد الصحراوى قائد هرر.

معركة أم ديدب :

وفي أواخر شهر جانفي 1869 اتجه سي الأعلى إلى عين ماضي وأقتحم قصر أحمد التيجاني، وطلب منه أن ينقل زاويته إلى الناحية الغربية، وخصص له مبلغ 400 فرنك لتحقيق ذلك، غير أن التيجاني راسل سرا الضابط « صوني » الذى كان يترأس القوات الفرنسية في المنطقة، وأخبره بأن استقباله لسي الأعلى وزعماء أولاد سيدى الشيخ، انما كان من أجل حماية نفسه وأملاكه، ونخيله، ولكن « صوني » أنبه وذكره بصمود أبيه محمد الغير التيجاني حضار الأمير عبد القادر عدة شهور.

مرتزقة شمال أوروبا يحاربون مع القوات الفرنسية :

وقد اصطدم الثوار بزعامة سي الأعلى، ضد « صوني » وقواته يوم 1 فيفرى 1869، في « أم دبدب » بمنتصف الطريق بين قرن الحوتية وعين ماضي. وكان من ضمن القوات الفرنسية مرتزقة من السويد والدانمارك بينهم :

WEYDLING WESTRUP SCHEBERT

وبعد المعركة اعتقل الفرنسيون أحمد التيجاني، لاتهامه بالتواطىء مع الثوار، وأبقوا أخاه البشير في القصر ليواصل عمله الديني.
أما الثوار فقد انسحبوا إلى بريزينة غربا، ثم الى البيض سيدى الشيخ، وحاول سي الأعلى أن ينسق العمل مع الثائر بن ناصر بن شهرة الذى عاد إلى المنطقة لمواصلة الكفاح والمقاومة (1).

وبينما سي الأعلى يقوم بنشاطه الثورى في منطقة ميزاب مع الزعيمين بن ناصر بن شهرة، والشريف بوشوشة، تحركت القوات الفرنسية في المنطقة الغربية بعد أن علمت باستعدادات، ونشاط سي قدور ولد حمزة، زعيم أولاد سيدى الشيخ فانتقل ترومليه بقواته من ثنية الحد بالونشريس إلى عين طوكرية وعسكر بها منذ يوم 10 جانفي 1869.

وصمم سي قدور ولد حمزة، وأتباعه، والشيخ بن الطيب زعيم الغرابة على الهجوم على سكان حميان المتعاونين مع الفرنسيين، وعلى أولاد سرور جنبة كذلك، وتحرك رئيس قبائل زوة الغرابة وأتباعه، وحاولوا أن يناوشوا الفرنسيين وأعوانهم كذلك في النصف الأول من جانفي.

تعيين سليمان بن قدور آغا على البيض :

وقد نجح سليمان بن قدور بن حمزة المتعاون مع الفرنسيين في الهجوم على سي قدور ولد حمزة وأتباعه ليلتي 28 و 29 جانفي 1869 تمهيدا لهجوم الضابط الفرنسي le Colonel Louis عليه وعلى عمه سي الأعلى يوم أول فيفرى في المورة بواد غير وكانت نتيجة المعركة اضعاف قدور وقتل عدد من أتباعه وأنصاره وسلب أمتعته

1) TRUMELET NOTES P 418 424. 430. 448. 454 ET FERAUD P.512. 514.

وقطعانه (ألفين جمل، وأعداد من الأغنام)، وكافأ الفرنسيون قدور وعينوه آغا على البيض يوم 1 أبريل 1869 (1).

ومما زاد في أضعاف مركز سي قدور ولد حمزة، هو أن الشيخ بن الطيب زعيم فرع الغربة من أولاد سيدى الشيخ، كان قد تقدم به السن في هذه الفترة وأصبح لايقدر على أداء دور عسكرى هام، خاصة وأن أبناءه قد اعتقلهم سلطان المغرب ووضعهم تحت الاقامة الجبرية عقابا له، حتى يرغمه على ايقاف نشاطه العسكرى ضد الفرنسيين، ولهذا عمل الشيخ بن الطيب على ربط الصلة، وتركيز الأمن والسلام بين الحميانيين، وسكان الحدود المغربية على أمل الحصول على اطلاق سراح ابنائه، ويبدو أن الفرنسيين قد شجعوا هذه السياسة، وتدخلوا لدى السلطان لاطلاق سراحهم (2).

وخلال معارك جبال عمور، وعين ماضي قاد سليمان بن قدور قوات من الأعوان الفرنسيين واتجه بهم إلى واد غير، غرب البيض ابتداء من يوم 28 جانفي ووصل يوم 5 فيفرى إلى المورة وفاجأ سي قدور ولد حمزة وأتباعه القلائل، وانتزع منهم ألفي جمل، وأعدادا أخرى من قطعان الأغنام وسلب منهم ماعندهم من الأمتعة والمؤن (3).

وبسبب هذا النجاح كافأه الفرنسيون، وعينوه آغا على البيض، يوم 1 أبريل 1869، فاستغل الشيخ بن الطيب هذا الحدث وأوعز للسلطات الفرنسية خلال شهر مای، ان تتدخل لدى سلطان المغرب ليطلق سراح ابنيه من معتقلهما بالمغرب الأقصى، ومع أن هذه السلطات لم تنس ماصنعه ابنه الحاج العربي خلال

1) Trumelet : P. 56 – 457
2) C. Trumelet notes pour servir à l'histoire de l'insurrevtion dans le sud de la province d'Alger de 1864 à 1869 revue Africaine tome 27 Alger 1883 PP. 37 – 39.

معركة أم دبدب في أول فيفرى 1869 الا أنها حاولت أن تستغل هذا العرض لتحقق السلام لصالحها في المنطقة بالتعاون مع حكومة المغرب الأقصى

ويبدو أن هذه السياسة لم تنجح ولذلك تجمع كل من الشيخ بن الطيب، وابنه الحاج العربي، وسي قدور ولد حمزة، وثوار بني عيل، وهاجموا قوات الضابط قرب جبل بوقوز شرق عين الشعير لدى بن غيل الشراقة، يوم 30 مارس، ثم اتجهوا إلى واد زوزفانة، ايغيل القصر في دوى منية وكان الحاج العربي قد تزعم قبل ذلك قوات من الثوار وخاض معركة أم دبدب واصطدم بعد ذلك بقوات الجنرال ويمفن : WIMPFFEN ، والجنرال شانزى CHANZY والضابط دورودیل : DE RODELIE في معركة كبيرة خلال شهر أبريل أنجز عنها مقتل وجرح عدد من الطرفين، ووقوع عدد من الناس أسرى في أيدى القوات الفرنسية ومع ذلك فان الحاج العربي وأباه الشيخ بن الطيب نظما هجوما على القوات الفرنسية في بوقايس قرب عين الشعير، بينما انسحب سي قدور ولد حمزة إلى داخل حدود المغرب الأقصى (1).

وفي خلال أيام 24 و 25، و 26، و 27 أبريل حصلت (بالمنقب) معارك كثيرة بين ثوار أولاد سيدى الشيخ، والقوات الفرنسية انتهت بقتل وجرح 198 شخصا من الفرنسيين وأعوانهم، وقتل وجرح عدد آخر أكبر من الثوار (2).

أسلوب الفرنسيين في اضعاف أولاد سيدى الشيخ :

ومن الوسائل التي استعملها الفرنسيون لاضعاف ثوار أولاد سيدى الشيخ احداث التفرقة بينهم خاصة بين الشراقة والغرابة، وتقريب البعض منهم اليهم واسناد مناصب لهم، وفي هذا الاطار قربوا اليهم سي سليمان بن قدور بن حمزة، وعينوه آغا

1) Trumelet : P. 456 – 459.

2) نفس المصدر ص : 43 ـ 51.

علي البيض، وفي أول شهر جويلية 1869 أضافوا اليه سكان حميان وعينوه آغا عليهم بعد أن أصبحوا من أعوانهم وهو من فرع الغرابة، فلعب دورا بارزا معهم في محاربة الثوار، ولكنه بعد حوالي خمس سنوات من العمل أكتشف عدم اخلاص الفرنسيين له ففر إلى المغرب الأقصى كما سيأتي.

وتعاظمت مصائب الثوار بموت الشيخ بن الطيب يوم 15 جويلية 1869 عن عمر يناهز التسعين، وكان يلعب دورا هاما في حركة الثورة، فخلفه في رئاسة فرع الغرابة ابنه سي معمر، الذى حسن علاقته مع الآغا سليمان بن قدور آغا البيض وحميان، وعاد ذلك بالفائدة على الفرنسيين خلال الحرب الفرنسية البروسية، بألمانيا عامي 1870 و 1871، لأن الحوادث نقصت في هذه المنطقة.

محاولة التفاوض مع أولاد سيدى الشيخ الشراقة :

وفي الوقت الذى بدأت فيه أحداث ثورة المقراني بالشرق الجزائرى في مارس 1871، أذنت السلطات الفرنسية لسي قدور ولد عدة آغا القبائل الصحراوية التابعة لمنطقة سيدى بلعباس، أن يتفاوض مع زعيم ثوار أولاد سيدى الشيخ سي قدور ولد حمزة، من أجل وضع حد لحوادث الثوار بالوسائل السليمة، ويبدو أن هذا الاقتراح صدر من الآغا قدور ولد عدة نفسه وهذا يوحي ويشعر أنه اتصل به فعلا وجس نبضه قبل أن يقدم هذا الاقتراح، ووجد حسن القبول والاستحسان لدى مخاطبه.

وحصل الاتفاق على أن يلتقيا يوم 24 مارس في بوقرن غرب الشط الغربي، على أن يكون صحبة سي قدور ابن عمه سليمان بن قدور آغا البيض وحميان. وأن يكون صحبة الآغا قدور ولد عدة، الضابط : والحاكم

ولسنا ندرى كيف تم الاتفاق على أن يكون بصحبة سي قدور ابن عمه سليمان آغا حميان لأنهما خصمان حصلت بينهما عدة معارك خاصة في مطلع عام 1869 كما مر اللهم إلا اذا تصالحا قبل ذلك.

وفي الموعد المحدد تخلف سي قدور ولد حمزة عن الحضور عمدا على ماذكر ترومبلي ويبدو أنه كان يخاف أن يكون ذلك مؤامرة لأسرة، وكان يوم الموعد في خنقة الحادة (أو الحاج) لدى بني مطهر بالمغرب الأقصى على بعد أربعين كلم مترا من مكان الاجتماع وحتى يحمي الفرنسيين أرسل اليهم يوم 3 أبريل رسولا إلى سيدى الجيلالي أحاطهم علما بأنه سيبعث اليهم جوابه حول اقتراحاتهم يوم 6 أو 7 أبريل على الأكثر (1).

معركة ماقورة ونتائجها :

ويبدو أن الفرنسيين لم يستريحوا لهذا التعاون الذى أظهره سي قدور ولد حمزة، وأعتبروه استهزاء بهم فأخذوا ينشطون في الاستعدادات العسكرية، ونقلوا بعض قواتهم إلى سيدى الجيلالي، وتمركز الآغا قدور ولد عدة، وقائد القياد غالم ولد البشير، في العريشة مع عدد من القوم والحراس، وطلب من الضابط قائد أن يقود قوات عسكرية من سعيدة وينتقل بها إلى صفيد ليدعم القوات المتمركزة بها بقيادة سليمان بن قدور آغا حميان.

وفي نفس الوقت كلف الضابط دى ميلوزا بالانتقال بقواته من سعيدة إلى ماقودة، أين اصطدم بسي قدور ولد حمزة قواته يوم 17 أبريل 1871، في معركة طاحنة، وكانت نتائجها ثقيلة على الجانبين، فقتل للفرنسيين الضابطان « ميرسي » « وفرانسوا » وقتل لسي قدور مايقرب من مائتي رجل، وجرح للطرفين عدد آخر، وكان من بين القتلى لسي قدور ولد حمزة ثلاثة وستون رئيس عائلة كبيرة ينتمون إلى بني غيل، ودوى منية، وأولاد سيدى عيسى وأولاد بودواية زوة.

وبعد المعركة انسحب سي قدور ولد حمزة بمن بقي معه الثوار إلى مياه أوقلت السدرة لدى بني مطهر داخل الحدود المغربية، ولكن سلطان المغرب طلب منه

1) نفس المصدر. ص : 51 ـ 61.

مغادرة ذلك المكان إلى عين الشعير، فغادره، وانتقل يوم 3 ماى إلى الجنوب الغربي، ثم إلى بني غيل في شهر جوان، بينما عسكر دوى منيع في واد غير، وأطلق سلطان المغرب الأقصى سراح ابني الشيخ بن الطيب من اقامتهما الجبرية قبل معركة ماقورة، ولكنه عاد فاعتقلهما بعد أن عاد سي قدور إلى نشاطه الثورى (1).

وفي خلال شهر جويلية، وفي يوم 3 منه، هاجم سي الأعلى سكان بني واسين على رأس حوالي ثلاثمائة خيال، وفقد خلال المعركة ثلاثة أشخاص بينهم وأحد أسر.

الخلافات بين زعماء الثوار :

وكشفت معركة ماقورة عن ضعف موقف الثوار وتعقد مشاكلهم، فسي الزبير شقيق سي الأعلى عمل على تحقيق اتصالات بينه وبين السلطات الفرنسية، في بني يزقن بوادى ميزاب من أجل تسهيل عملية استسلامه للفرنسيين كما ذكر ذلك ترومبلي.

وسليمان بن قدور آغا حميان، وأبناء الشيخ بن الطيب زعيم صف الغرابة دخلوا في مفاوضات مع بني عيل لتحقيق نوع من الصلح بينهما، وايقاف المعارك والهجومات المتبادلة بينهما، وأخطر من هذا الصدام الذى حصل بين سي قدور وسي معمر.

ففي الوقت الذى كان سي قدور ولد حمزة يعسكر في المريج لدى بني مطهر، وسي معمر ولد الشيخ بن الطيب يعسكر في أوقلت السدرة، حصل خلاف بينهما وتطور إلى صدام يوم 3 أوت 1871 في أوقلت السدرة، وانتهى بمقتل أخوين لسي معمر هما : الحاج العربي، وسليمان بن الشيخ. فانفصل سي معمر في الحين عن

1) نفس المصدر. ص : 62 ـ 73.

سي قدور وانتقل إلى بني عيل، في الوقت الذى أعطى فيه سلطان المغرب أوامره لعماله بمنع سي قدور ولد حمزة وفاقه من القيام بأي نشاط ضد الفرنسيين وأعوانهم، وأذن لهم باعتقاله اذ ألزم الأمر، وذلك بعد أن اتصلت السلطات الفرنسية بالسلطان، وراسلت حاكم وجدة المغربي، ورئيس قبائل بني سناسن (1).

وفي خلال شهر أكتوبر نقل سي قدور ولد حمزة مركزه من المريج إلى أوقلت السدرة، على أمل أن يستميل إليه أهالي حميان، ويقنعهم بعدم مهاجمته. وخدمته الظروف كثيرا، اذ قام آغا حميان سليمان بن قدور بسلب عدة قطعان تابعة لسكان المهاية، فاحتج قائدهم بوبكر لدى حاكم تلمسان الفرنسي، انجر عن هذا الحادث انضمام عدد من أهالي حميان إلى سي قدور ولد حمزة، وعصيانهم لآغا هم سليمان بن قدور، فتعقدت الأمور كثيرا، وقام الفرنسيون بتركيز فرقتين عسكريتين في أوقلت النعجة بالشط الغربي، وفي بوقرن بالغاية ابتداء من 10 نوفمبر، بينما اتجه قوم طرافى بقيادة حاكم دائرة البيض إلى الفراطيس قرب الغالول بجوار الحدود المغربية، لمراقبة الأمور عن كثب.

ورغم هذه التحركات الواسعة للقوات الفرنسية فان سي قدور ولد حمزة استطاع أن يخترقها بأتباعه دون أن تشعر ليلتي 10 و 11 نوفمبر 1871 واتجه إلى الشط الغربي ثم إلى رأس النوالة جنوب الحسايبة، وأخيرا إلى بئر مرحوم جنوب غرب سعيدة بحوالي 45 كلم. وفي طريقه هاجم بعض المعارضين له من بني مطهر في دائرة الغاية، وحميان زوة، التابعين للآغا سليمان بن قدور، ومن هناك اخترق الشط الشرقي إلى خيثر يوم 13 نوفمبر، وأصبح يهدد بحركته سكان الهضاب العليا ومناطق التل.

1) نفس المصدر. ص : 74 ـ 75 ـ 97 ـ 99.

ولذلك نقل الفرنسيون قواتهم من سعيدة، والغاية، وسيدو، وركزوها في طافراوة وواد المويلح، قرب رأس الماء، وفي العريشة.

معركة المنقب ونتائجها :

وخلال شهر ديسمبر 1871 انتشرت اشاعات كبيرة بين سكان الجنوب الوهراني حول الأحداث التي تجرى ضد ثوار أولاد سيدى الشيخ من جهة، وضد ثوار المقراني والحداد، الذين فروا من الشمال، والشريف بوشوشة آغا ورقلة جهة أخرى (1)، فعمهم الحماس، وتخوف الفرنسيون من ذلك.

وفي أوائل شهر ديسمبر 1871 عسكر سي قدور ولد حمزة في الكروة جنوب غرب الأبيض سيدى الشيخ، وكان معه حوالي ثلاثة آلاف، وستمائة رجل مابين فارس وخيال جمعهم من جهات مختلفة، ولاشك أنه كان يستعد لعمل عسكرى كبير، وفي يوم 23 من نفس الشهر تعرضت له قافلة عسكرية فرنسية في ضواحي المنقب، على بعد حوالي أربعين كلم جنوب البنود الذى قتل فيه أخوه سي محمد زعيم الثورة الثاني يوم 4 فيفرى 1865، وكان بصحبة سي قدور ولد حمزة عمه سي الأعلى وابن عمه سي معمر ولد الشيخ بن الطيب، فحصلت بينهم وبين القوات الفرنسية معركة حامية دامت حسب رواية ترومليه حوالي ساعة، ولكن نتائجها كانت ثقيلة على الثوار، اذ قتل منهم حوالي مائة وخمسون شخصا، وجرح سي قدور، وسي الأعلى معا، ولكنهما نجحوا واستولى الفرنسيون على علم سي قدور، وطابعه وأسروا زوجته وابنه الصغير محمد، وعلى قطيع كبير من الحيوانات، واستسلم عدد لابأس به من الثوار للقوات الفرنسية التي كان يقودها العقيد قائد، وسليمان بن قدور آغا حميان، وقدور ولد عدة آغا الصحراويين.

1) نفس المصدر. ص : 100 ـ 102. وكذلك يحي بوعزيز ثورة 1871 (الجزائر 1978) ص : 471.

وبعد المعركة تفرق أولاد سيدى الشيخ، فاتجه سي قدور ولد حمزة إلى تابلكوزة بين المنيعة، وتيميمون، في حالة من الأعياء، والتعب والانهاك الشديد، وفر البعض إلى داخل الحدود المغربية بينما وزع المقبوض عليهم وهم كثيرون ينتمون إلى حوالي ألف مائتي خيمة فوجه البعض إلى دائرة مدينة معسكر والبعض إلى آغوية فرندة، والبعض الآخر إلى عمالة قسنطينة (1).

نقل سليمان بن قدور والحميانيين إلى سهل ملاتة بوهران :

ورغم أن سليمان بن قدور كان آغا على البيض وحميان، إلا أنه فقد سلطته على السكان بسبب نشاط ثوار أولاد سيدى الشيخ، ولم ينجح فيما كلفه به الفرنسيون من المراقبة والحراسة، ولذلك أشارت بعض الجهات بعزله تماما من منصبه ولكن الحاكم العام قرر ابقاءه في منصبه كآغا دون سلطة فعلية ودون وظيفة ماعدا الاسم، وأمر بأن ينقل هو وأتباعه من حميان إلى سهل ملاته قرب سبخة وهران ويستقروا هناك، وتم ذلك أواخر ديسمبر 1871 بعد معركة المنقب، وصحب معه أسرة ابن عمه سي معمر بن الشيخ بن الطيب. وكان قد عين، كما سبق، آغا على حميان في أول جويلية 1869، وهذا الاجراء بمثابة نفي به مهذب.

سي الأعلى يحاول الاتصال بالفرنسيين مرة ثالثة :

وفي مطلع عام 1872 كانت القوات الفرنسية تعسكر في المناطق التالية : قوات الجلفة في قصر الحيران، وقوات سعيدة والناية طلب منها أن تتحرك إلى الشمال وقوات الأغواط انتقلت إلى بريزينة، ومن هناك أخذت طريقها إلى المنيعة لقطع طريق توات على الثورة.

1) نفس المصدر. ص : 102 و 104.

وذكر ترومبلي أن سي الأعلى سعي في هذه الفترة لخلق صلة مع الفرنسيين لتنظيم عملية استسلامه وهي المحاولة الثانية من هذا النوع، فاتصل بقائد متليلي، وعدد من شخصيات الأغواط واعطاهم ورقة بيضاء ليتخذوا ماشاؤوا من الوسائل، وكان هدفه كما ذكر ترومبلي هو التقريب من السكان الخاضعين للفرنسيين من أجل القيام بنشاط بينهم وليس الاستسلام (1).

وفي خلال شهر فيفرى 1872 انسحب سي قدور ولد حمزة ورفاقه إلى قورارة، وبقوا هناك عدة شهور، بعيدين عن أى نشاط وفي يوم 6 سبتمبر عاد إلى المنيعة، ووجدوا بوشوشة يقوم بنشاط مكثف لاعادة تكوين قواته التي تشتت وقضي عليها في مطلع العام نفسه أثناء مطاردة المقرانيين بالصحراء الشرقية.

أولاد سيدى الشيخ يرسلون وفدا إلى العاصمة للتفاوض :

عندما عاد سي قدور ولد حمزة إلى المنيعة، اعتكف بعض الوقت في زاوية خاصة، وفكر في الهجرة إلى تونس، وراودته فكرة الاستسلام للفرنسيين واختمرت في ذهنه كثيرا، وفي أواخر عام 1872 دخلت السلطات الفرنسية مع زعماء الأسرة في مفاوضات لغرض وضع حد لثورتهم، ونجحت المحاولة في البداية وتألف وفد منهم ترأسه سي الدين شقيق سي قدور ولد حمزة، واتجه إلى وهران ومن هناك اتجه إلى الجزائر العاصمة التي وصلها يوم 4 فيفرى 1873، وكان يمثل بالطبع فرع الشراقة فاستقبله الحاكم العام، وأوضح له شروط السلطات الفرنسية، وأعطى له مهلة ثلاثة أشهر لرد الجواب فعاد وفد العاصمة واتجه إلى متليلي لابلاغ زعماء العائلة بالأمر.

1) نفس المصدر. ص : 106 ـ 107.

وبسبب قيام فرع الشراقة بهذه الخطوة، بعث فرع من صف الغرابة رسولا من قبلهم يدعى سي موراد شقيق سليمان بن قدور، ليتفاوض مع الفرنسيين بصفة مباشرة وينضم عملية استسلامهم ولم تنجح هذه المحاولات لأن سي قدور ولد حمزة انتقل من المنيعة إلى المقيدم، وسي سليمان بن قدور آغا حميان الذى يقيم بملاتة فر من مكان اقامته بعائلته، ومن انضم اليه، يومي 11 و 12 فيفرى 1873 والتحق بالحدود المغربية، وصحب معه عائلته سي معمر، وعاد إلى نشاطه الثورى ضد الفرنسيين لأنه سئم الحياة الرتيبة بملاته، ولربما أثر فيه بعض أقربائه من ثوار عائلة أولاد سيدى الشيخ الشراقة والغرابة.

وانطلق اشاعات بين الناس بأن بوشوشة يتجه إلى الناحية الغربية للانضمام لثوار أولاد سيدى الشيخ، والقيام بعمليات مشتركة ضد الفرنسيين.

وفي يوم 21 ماى أرسل سي الدين ولد حمزة رسالة إلى الحاكم العام يعلمه بأن أولاد سيدى الشيخ لم يتفقوا بعد على شروط الاستسلام وطلب اذنا جديدا للعودة اليه بالجواب في الوقت المناسب فأعطي له، ومر مابقي من عام 1873 دون حدوث مشاكل وأحداث (1).

وفي يوم 11 مارس 1874 فاجأ سليمان بن قدور سكان واد الشعريعة جنوب البيض، وسلب منهم بعض قطعانهم، وعاد إلى داخل ح،و، المغر الأقصى، وفي يوم 13 جوان اصطدم سي سليمان بن قدور، وابن عمه سي معمر، بالقوات الفرنسية وأعوانها في نفيش NEFICH جنوب جبل المالحة على حدود الشط الشرقي فقتل خلال المعركة سي معمر ولد الشيخ بن الطيب زعيم زوا الغرابة، وسبعة وثلاثون فارسا، وجرح سي سليمان نفسه، وأخذ منه علمه، وسلب مامعه من المؤن والأسلاب وفر الباقي إلى الجبال المجاورة.

1) ص : 109 ـ 115.

ورغم أن سي علال خلف أخاه سي معمر في رئاسة زوة الغرابة إلا أن الرئاسة الفعلية كانت بيد سي سليمان بن قدور آغا حميان السابق.

وساطة شريف وزان بين الفرنسيين وأولاد سيدى الشيخ :

وفي خلال مابقي من عام 1874 سعي شريف وزان الحاج عبد السلام رئيس الطريقة الطيبية، وصاحب التأثير الوسع على سكان منطقة الحدود، وأتباع أولاد سيدى الشيخ من الخدم، أن يخلق صلة بين زعماء أولاد سيدى الشيخ، والسلطات الفرنسية بالجزائر، ولكن هذا السعي لم يثمر إلا في ايقاف سي سليمان بن قدور ووضعه تحت الاقامة الجبرية في مكناس، ثم في فاس تحت رعاية الحاج عبد السلام كما سيأتي.

وفي خلال عام 1875 اتفقت بعض قبائل برابر زناتة، وأولاد مولة، مع بعض ثوار أولاد سيدى الشيخ، على تنظيم عمليات غزو مشتركة ضد السكان الخاضعين للقوات الفرنسية، وهاجموا الشعانبة في واد زرقون وقتلوا البعض، وسلبوا عدة قطعان من مواشيهم.

وبعد مدة من عمل هؤلاء، ظهر جماعة من الثوار، قدموا من منطقة فيقيق، والواحات الجنوبية لغرب وهران، وأغاروا فجأة على جماعة من الشعانبة في القصيبة، واستولوا على حوالي ثمانين جملا وجرحوا عددا من الناس. فرد شعانبة برزقة وشعانبة المواضى على هذا العمل بتأليف قوات للانتقام، وانضم اليهم أولاد سيدى الشيخ القاطنين في متليلي، والمنيعة، وقاموا بأعمال انتقامية خلال شهرى أوت وسبتمبر بزعامة سي أحمد بن أحمد، في حسيان الحمر، ووادى الساورة، وايجلي، وقصر الوقارطة وقصر زرامنه (أو زغامنه)، وحاسي القيسية، ووادى تافيلالت، وأوقلت كصديص، ووادى درعة، وآيت الكباش.

وواصل شريف وزان جهوده خلال مابقي من عام 1875 لدى زعماء أولاد سيدى الشيخ، وسليمان بن قدور بصور خاصة، ووافق هذا الأخير بعد تردد على الذهاب إلى السلطان لمقابلته، ووعد بألايعود إلى أى نشاط ضد الفرنسيين وضد سيادة المغرب، وذهب إلى الرباط عام 1876 وقابل السلطان وجدد وعوده له بالكف عن أى نشاط، فعين له السلطان مكناس كمكان لاقامته، ثم رخص له بالاقامة في فاس (1).

أثر الحرب الروسية التركية عام 1877 في الجزائر :

كانت الدولة العثمانية تعاني من تكالب الدول الأوروبية ضدها، وخاصة روسيا القيصرية التي دأبت على شن الحروب الطويلة والمتوالية للسيطرة على أقاليمها الأسيوية بالقوقاز، وأرليتيلز، والأوروبية حول البحر الأسود.

وفي عام 1877 شنت روسيا الحرب على تركيا، وتدخلت عدة دول أوروبية فيها بالأساليب السياسية، فتأثر الجزائريون بها، واشتد حماسهم لتأييد العثمانيين، وادعى ترومبلي بأن الأتراك ركزوا نشاطهم الداعائي ضد الفرنسيين لدى الجزائريين في الجنوب الوهراني، ولكنه لم يذكر كيف تم هذا النشاط، هل بواسطة دعاة، ومبعوثين أو بواسطة مناشير، ورسائل، أو بواسطة بعض الجزائريين العائدين من الشرق. كما لم يبين نوع هذا التأثير.

ومن الأحداث التي حصلت هذا العام محاولة عامل وجدة المغربي متابعة بعض السكان المتمردين إلى سبدو داخل الحدود الجزائرية لأسباب لانعرفها وقد يكونون من عصاة النظام المغربي، فاحتجت فرنسا لدى حكومة السلطان بواسطة

1) نفس المصدر ص : 116 ـ 119 ـ 124 ـ 125.

فصلها في طانجة خلال شهرى جانفي وفيفرى، وقامت القوات الفرنسية بتحركات واسعة في المناطق الجنوبية الغربية بين ميزاب والحدود المغربية والمقرار (1).

الخلاف بين سي قدور ولد حمزة وابن أخيه حمزة ولد بوبكر :

مر عام 1878 دون مشاكل وحروب، ماعدا الخلاف الذى نشب بين سي قدور ولد حمزة، وابن أخيه حمزة ولد بوبكر الذى أصبح الوارث الشرعي للسلطة الدينية للعائلة، وكان يعيش مع عمه سي قدور، فاختلف معه حول أمور لم يذكرها ترومبلي، وانفصل عنه، وذهب إلى البيض يوم 15 فيفرى 1878، وسلم نفسه لحاكمها الفرنسي، وطلب منه الأمان، فوجهه إلى مدينة معسكر صحبة رسالة، وبرر سي حمزة موقفه بأنه عندما اندلعت ثورة عائلته عام 1864 هو صغيرا ولا يزيد عمره على أربع سنوات لأنه ولد عام 1859 ولذلك فليست له أية مسؤولية فيها. ويظهر أنه كان ينتظر أن يسند إليه الفرنسيون منصبا ومسؤولية، ولكنهم لم يفعلوا، وطال انتظاره فطلب الاذن بالعودة إلى عمه للزيارة، وسمح له فغادر معسكر يوم 8 أكتوبر 1878 والتحق بعمه في وادغير (2).

ولم يحدث خلال عام 1879 مايستحق الذكر، فسي قدور ولد حمزة زعم الثورة بقي متمركزا في وادغير، ولم يقم بأى نشاط لأنه فقد الامكانيات الضرورية للحركة، وقل انصاره وأتباعه، وعمه سي الزبير توفي في قورارة في نفس العام، والزعماء الآخرون تفرقوا وتشتتوا في جهات أخرى.

ولكن عددا من اللاجئين الجزائريين بالمغرب الأقصى، اخترقوا الحدود في شهر سبتمبر، وعبروا واد ماقورة، ووصلوا حتى إلى المنطقة الممتدة بين سبدو، والعريشة، وهاجموا قافلة فرنسية، وقتلوا جنديين، واستولوا على ستة بغال بحمولاتها.

1) نفس المصدر ص : 126.
2) نفس المصدر ص : 126 ـ 128.

فكلفت السلطات الفرنسية العقيد لويس بملاحقتهم خلال شهر نوفمبر واحتجت لدى سلطان المغرب الذى ارسل وفدا إلى سبدو للاعتذار، والتأكيد على متابعة المعتدين وعقابهم، وقدم هذا الوفد مبلغ 000 19 فرنك للجنرال لويس يوم 19 نوفمبر 1879 تعويضا لخسائر الضحايا. وقاد هذا الوفد المغربي عد السلام بايس وخليفة وجدة.

وفي أواخر ديسمبر كون سي الدين ولد حمزة، والشاب سي حمزة ولد بوبكر قوات من زوة الشراقة، وغزوا بريزينة، ومنطقتها، فواجهتها قوات البيض الفرنسية (1).

وفي مطلع عام 1880 انتشرت بين سكان الجنوب اشاعات بأن سي قدور ولد حمزة الذى يعسكر بكرزاز، يعد العدة لشن هجوم على منطقة الحدود انطلاقا من واد الساورة، فاستعدت السلطات الفرنسية، وحركت قواتها، ووجهتها إلى منطقة الحدود، خاصة حيث يقطن الهراريون، والطرافيون، ودعمتها من الوراء بقوات جنود المخزن من فرندة، وسعيدة، وأفلو (2).

أوضاع أولاد سيدى الشيخ في مطلع عام 1881 :

مر عام 1880 دون حوادث تذكر، ماعدا شخصية الشيخ بوعمامة وفي مطلع عام 1881 كانت أوضاع أولاد سيدى الشيخ على الشكل التالي :

- سي قدور ولد حمزة زعيم الثورة البارز، والابن الخامس للخليفة سي حمزة وتمركز بواد الساورة، وكان عمره آنذاك حوالي ستة وثلاثين عاما.

1) نفس المصدر ص : 129 ـ 132
2) نفس المصدر ص : 133.

- سي الدين ولد حمزة الابن السادس للخليفة سي حمزة كان عمره آنذاك حوالي ثلاثة وثلاثين عاما، ولم يقم بدور بارز في الحوادث، ماعدا قيادته لوفد الوساطة والتفاوض إلى السنوات الأخيرة.

- سي حمزة ولد بوبكر حفيد الخليفة سي حمزة، عمره اثنان وعشرين عاما، بويع كرئيس روحي ديني لعائلة أولاد سيدى الشيخ الشراقة، وكان يعيش مع عمه سي قدور ولد حمزة بعد أن عاد من مدينة معسكر، وقبل ذلك أيضا.

وقد استقر هؤلاء الثلاثة بخيامهم وأتباعهم في ضواحي قصور ايجلي، لدى سكان دوى منيع، بضواحي قصور بني عباس، وبني قومي، في وادغير، وواد الساورة.

- سي الأعلى شقيق الخليفة سي حمزة يقيم مع ابن أخيه قدور ولد حمزة كرزاز كان عمره آنذاك سنتين عاما تقريبا، عايش الثورة من أولها إلى آخرها وحضر ثورة ابن عمه الشيخ بوعمامة، وتوفي عام 1896 بقرية الحاج الدين، ودفن في قبتها.

- أولاد سيدى العربي، وأولاد سيدى الاسقم LASGHEM ، من فروع أولاد سيدى الشيخ دخلوا إلى الجزائر بعد أن حصلوا على العفو والامان، ولم يلعبوا أى دور في الثورة، بل كانوا مسالمين.

- أولاد سيدى الشيخ الذين وقعوا في أيدى القوات الفرنسية بعد معركة المنقب وزعوا على عدة مناطق البعض في منطقة معسكر، والبعض في آغوية فرندة، والبعض في عمالة قسنطينة. وفي عام 1878 تدخلت الحكومة المغربية لصالحهم، فنقلوا إلى دائرة البيض، واشتغلوا هناك في عمل الفلاحة البستانية.

- أولاد سيدى الشيخ الغرابة أنفوا تحت زعامة سي علال الابن الرابع للشيخ بن الطيب ودخلوا إلى المغرب الأقصى واستقروا جنوب عمالة وجدة، وكان سي علال من مواليد عام 1862.

- أما سليمان بن قدور آغا حميان السابق الذى هرب من ملاتة عام 1873 فهو من مواليد عام 1840 ووضع في اقامة جبرية بمكناس عام 1874 ثم في فاس تحت رعاية شريف وزان (1).

1) نفس المصدر ص : 140 ـ 142.

ظهور شخصية الشيخ بوعمامة :

على أن أهم شخصية من عائلة أولاد سيدى الشيخ برزت عام 1880 و 1881 هو الشيخ بوعمامة بن العربي بن التاج الذى ينتمي إلى فرع الغرابة ويتبع الطريقة الطيبية القادرية، وتزوج من ابنة سي المنور بن الحرمة الفيقيقي، واستقر في واحة المقرار التحتاني وأنشأ هناك زاوية دينية له، فشاع أمره بسرعة، وكثر أتباعه ومريدوه. وتوسعت مداخيله المادية من طرف مريديه وأتباعه.

وبسبب الشهرة الواسعة التي نالها راقبته السلطات الفرنسية، وأحاطته بعدد من أعوانها الجواسيس عندما أحس بهذه المراقبة ذهب بنفسه إلى البيض لزيارة حاكمها الفرنسي واحتج على تلك المراقبة، وأظهر اخلاصه للسلطة فباد له حاكم البيض نفس الشعور ولكنه في قرارة نفسه لم يطمئن إليه.

فأدرك الشيخ بوعمامة ذلك وعمل على تعميتهم، واخفاء نشاطه عنهم، وفي نفس الوقت عمل على تهريب أمواله، وأموال أخوانه إلى فيقيق لتكون في مأمن من السلطات الفرنسية عندما يعلن ثورته التي تعتمل في نفسه.

وأهم حادث أثار الشيخ بوعمامة هو عزم السلطات الفرنسية على تكوين قيادة لدراسة تاريخ الجنوب الوهراني، ودراسة الحاجيات التي تتطلبها المنطقة، ووضع المشاريع اللازمة لها، وفي هذا الاطار قررت هذه السلطات انشاء مراكز أمامية في منطقة الحدود منها واحد قرب تيوت THYOUT وحتى تنفذ السلطات الفرنسية هذه المشاريع بأمان وتتوسع بحرية الى الجنوب، رأت تحسن علاقاتها مع حكومة المغرب الأقصى، فاستقبل الحاكم العام الفرنسي للجزائر يوم 2 فيفرى 1880 بقصر الايليزى، سفير سلطان المغرب لحضور عدد من الشخصيات الفرنسية العاملة بالجزائر، وتسلم منه رسالة من السلطان يؤكد له فيها صداقته لفرنسا ولفرنسي الجزائر

جيرانه، فرد عليه الحاكم العام برسالة من حكومته بادله فيها نفس العواطف، وأكد له بعد ذلك رغبة فرنسا في ايقاف كل نشاط لسي قدور ولد حمزة ومنع دوى منيع من تزويده، وتزويد غيره من الثوار الجزائريين اللاجئين بالمغرب الأقصى.

وعندما علم الشيخ بوعمامة بهذه المشاريع والمخططات استنكرها وعزم على مقاومتها، فانتقل إلى فيقيق للاستعداد (1)، ولم يتردد في حمل السلاح وخوض غمار الثورة ابتداء من 22 ابريل 1881. وهذا موضوع آخر تم علاجه في ملتقى المقاومة الوطنية الذى نظمته هذه الوزارة أوائل عام 1982.

د. يحي بوعزيز
(جامعة وهران)

1) نفس المصدر. ص : 133 - 139.

1 - يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (الجزائر قسنطينة - دار البحث 1980) 550 ص.

2 – Ageron (ch. R.) : les algériens musulman et la france 1871 – 1919 (paris – 1968) 2 tome. 1296 P.

3 – Bely (le citoyen en) : l'insurrection du sud oranais (oran 1884) vill – 118 P.

4 – Blanc (paul) : l'insurrection en algérie (Alger – 1864)

5 – Bourget (M.L.) : l'Algérie jusqu'à la penétration saharienne cahier du centenaire de l'algérie (Alger – 1930) 95 P.

6 – Chatelier (Alfred le) : les Medaganats. (Alger 1888) 180 P.

7 – Du Mazet (A) : les Ouled sidi cheikh et le territoire insurgé de la province d'oran (P. G. 1881) T. VII. PP. 4 M – 456.

8 – Feraud (charles) : le sahara de constantine (Alger 1887) 525 P.

9 – Herzog (Antoine) la dernière insurrection en Algérie 1864 (Alger – 1864)

10 – Julien (ch. A.) Histoire de l'Algérie contemporaine conquêteet colomisation 1827 1871 (P.U.F. 1964) 613 P.

11 – Noel (lacapitaine A. H.) documents historiques sur les tribus de l'Annexe d'El Aricha Bul Soc G. Arch d'Oran (1917) PP. 223 – 290 (1918) PP. 5.56 et 101 156 199 PP. 5 48 et 97 134.

12 – Oget (capitaine jules) : une expedition Algérienne. Episode de l'insurrection de 1864. (Bastia Fabrani 1871 XII 228 P Trumelet (conclet. C.)

13 – Trumelet (conclet. C.) :

A – Les français dans le déséret (paris 1865) 426 P.

B – Etude sur les régions sahariennes histoire de l'insurrection dans le sud de la pronince d'Alger en 1864 (Alger 1874) 250 P.

C – Histoire de l'insurrection des ouled sidi cheikh (sud Algérien) de 1864 à 1880 seconde partie (Alger – 1884) 510 P.

14 – Un ancien officier de l'Armée du rhin le général lapasset (paries 1899) 2 T. 500 + 450 p.

15 – Voinet (capitaine) : à la situation sur la frantière algro marocaine du tell lors de l'insurrection des ouled sidi cheikh dans le sud oranais (1864 – 1870) R.A.F. 1919 PP. 399 – 465.

16 – La menace des ouled sidi cheikh contre le tell aglérien et les danger de leurs insurrection au maroc 1879 – 1873 R.A.F. PP. 62 133.

الدكتور أبو القاسم سعد الله

بعض رسائل الدكتوراه الأمريكية عن الجزائر (*)

بين 1977 و 1993 نوقشت حوالي 117 دكتوراه عن الجزائر في أمريكا. وهي رسائل في مختلف التخصصات في العلوم الاجتماعية عدا علوم التربية واللغة التي لم يشملها هذا الاحصاء. وبعد الرجوع إلى جهاز الحاسوب الذي سجلت فيه جميع الرسائل بعناوينها وملخصاتها وأسماء مؤلفيها والجامعات التي نوقشت فيها - تحصلنا على البيانات التالية : -

33 رسالة في العلوم السياسية، 30 رسالة في العلوم الاقتصادية، 15 في التاريخ، 9 في علم الاجتماع، 7 في التخطيط، 6 في كل من الآداب والادارة والأنثروبولوجيا على التوالي، 2 في اللغة استثناء وواحدة في كل من الدين والجغرافية والدراسات النسوية على التوالي، فالمجموع : 117 رسالة.

وقبل أن نذكر عناوين الرسائل لابد أن نقول ان جهاز الحاسوب قد أظهر عددا من الرسائل التي نوقشت أيضا في بريطانيا وغيرها مثل السويد واسبانيا وكندا. وقد نبهنا على ذلك أمام كل رسالة لم تناقش في أمريكا، وانما ذكرناها تعميما للفائدة والاطلاع، لأن القارىء الجزائري قد لايعرف عنها إلا بعد مدة طويلة أو لايعرف عن

(*) - كنا نشرنا احصاء لرسائل الدكتوراه الأمريكية عن الجزائر في التاريخ وبعض العلوم الأخرى، إلى 1977، أنظر، (مجلة التاريخ)، 1978، الجزائر.

وجودها أصلا. كما ننبه إلى أن معظم الرسائل انما هي في الاقتصاد والعلوم السياسية والادارة والتخطيط، وأما رسائل التاريخ فلا تكاد تخرج عن عهد الاحتلال الفرنسي وعهد الاستقلال. كما لانكاد نجد رسالة تتناول العهود الاسلامية أو ماقبلها، وهذا يبرهن على اهتمام امريكا وبريطانيا وغيرهما بحاضر الجزائر ومستقبلها أكثر من ماضيها، وأن هذا الماضي متروك الآن إلى أبناء الجزائر أنفسهم الذين عليهم أن يكتبوا أيضا عن حاضر بلادهم حتى لايتركوا تشكيل مستقبلهم في يد غيرهم.

وأثناء قراءتنا لعناوين الرسائل ومحتوى الملخصات المرفقة معها وجدنا تكرارا كبيرا يكاد يشمل حتى العناوين نفسها، وذلك في الموضوعات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية. وقد حدث هذا في الوقت الذي توجد فيه أجهزة للاطلاع على الرسائل السابقة قبل التسجيل في رسائل لاحقة ومعرفة ماتناوله الباحثون قبل الاقدام على التسجيل في موضوع جديد.

كما ننبه أيضا إلى أن اسم الجزائر موجود في عدة رسائل يمكن أن نسميها « جماعية »، وهي تلك التي يتناول فيها الباحثون بالمقارنة مجموعة من البلدان التي تشترك في ظاهرة واحدة كالوطنية والنفط، والآداب والثورة، والاشتراكية، والعلاقات الخارجية... في مناطق مختلفة من العالم. وهكذا دخلت الجزائر طرفا في عدة رسائل تناولت بالمقارنة بلدانا افريقية وأمريكية (لاتينية) وآسيوية وحتى أوربية مثل الباسك وبعض البلدان البلطيقية. وهذا النوع من الرسائل لم نذكر منه الا نماذج.

أما مانقدمه اليوم فيتناول التاريخ المحض ومايتصل به من العلوم الاجتماعية القريبة. فقد رجعنا إلى رسائل في الاقتصاد والعلوم السياسية واخترنا منها ماله جانب تاريخي - كما سيلاحظ القاريء -، مع ذكرنا لأصل الاختصاص عن كل رسالة، وكذلك فعلنا مع رسائل علم الاجتماع والانثروبولوجيا والدراسات النسوية والأدبية.

وعلى ذلك الأساس صنفنا العمل إلى أربعة أصناف : أ - رسائل في التاريخ والجغرافية، ب - رسائل في العلوم السياسية، ج - رسائل في الاقتصاد د - رسائل مختلفة (من علم الاجتماع - الانثروبولوجيا - الآداب - فولكلور - الآثار - دراسات نسوية.).

والطريقة التي اتبعناها هي ذكر المؤلف مع اعطاء اسمه بالحروف اللاتينية اذا كان الاسم غير عربي، ليسهل الرجوع إلى المصدر، وعنوان الرسالة، والجامعة التي منحتها، وتاريخ المناقشة، وعدد الصفحات ان وجد. أما نوع التخصص فموجود في التصنيف، ماعدا القسم الأخير (رسائل مختلفة) فاننا ننبه إلى الاختصاص أمام كل رسالة.

ونرجو أن يكون هذا العمل مفيدا للباحثين عموما. وأن توفير هذه الرسائل في المكتبات الجزائرية سيسهل من الاطلاع عليها والاستفادة منها، سيما اذا توفر العارفون باللغات التي كتبت بها.

أ - رسائل في التاريخ والآثار والجغرافية :

1 - أبو خمسين، منصور أحمد، (الحرب الفرنسية - الجزائرية الأولى : 1830 - 1847، دراسة تقييمية للمغامرة الفرنسية الاستعمارية والمقاومة الجزائرية.) جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 1983، 317 ص

2 - أوسبورن OSBORNE . مايكل، اندرو (جمعية التأقلم الحيواني (زولوجيك) والامبراطورية الفرنسية الجديدة : العلم والاقتصاد السياسي للزوولوجيا الاقتصادية أثناء الأمبراطورية الثانية بالجزائر)، جامعة ويسكنسن بماديسون، 1987، 454 ص

3 ـ أوصمان، رحيمة، كنزة (مصادرة الأرض والاندماج : دراسة مقارنة للسياسة الفرنسية في الجزائر والسياسة الفيدرالية الهندية للولايات المتحدة الأمريكية أثناء القرن التاسع عشر)، جامعة كيل (بريطانيا)، 1988، 347 ص.

4 ـ بروشسكا PROCHASKA داود، رالف (فرنسة الجزائر : الاستعمار في عنابة من 1870 إلى 1919)، جامعة كاليفورنيا، بيركلي، 1981 ـ الخلاصة غير متوفرة، وكذلك عدد الصفحات.

5 ـ بريون، فوزية محمود (حياة مالك بن نبي ونظرية الحضارة)، جامعة ميشيقان، 1988، 281 ص.

6 ـ التلمساني، رشيد (الدولة والثورة في الجزائر : مقاربة لدراسة تشكيل الدولة في مجتمع مابعد الاستعمار)، جامعة بوسطن، 1984، 365 ص. مصنفة في الجغرافية.

7 ـ ديلوسو DEL'OSSO، مونيكا (وزارة الجزائر والمستعمرات 24 جوان 1858 ـ 24 نوفمبر 1860، تجربة في الحكومة المدنية)، جامعة فيرجينيا، 1989، 314 ص.

8 ـ زرقين، حبيبة منيرة (اتحادية النواب المسلمين في ولاية قسنطينة)، جامعة جورج تاون، 1984، رقم الصفحات غير مذكور.

9 ـ كوماموتو KUMAMOTO، روبير، ديل (الارهاب الدولي والعلاقات الخارجية الامريكية، 1945 ـ 1976)، جامعة كاليفورنيا بلوس انجلس 1984، 410 ص. تتناول عدة مناطق من بينها الجزائر.

10 ـ لورسين LORCIN، باتريشيا (فرنسا والقبائل : النظرة الشائعة، والحكم المسبق والعرقية بالجزائر خلال القرن التاسع عشر)، جامعة كولومبيا بنيويورك، 1992، 439 ص.

11 ـ كلنسي ـ سميث CLANCY-SMITH، جوليا، آن (الطريقة الرحمانية الصحراوية : الاحتجاج الشعبي والمجتمع الصحراوي في جنوب شرق الجزائر والجريد التونسي، 1750 ـ 1881)، جامعة كاليفورنيا بلوس ـ انجلس، 1988، 548 ص. ـ عن حركة بوزيان في الزعاطشة وشريف ورقلة الخ.

12 ـ ليتسكي LITSKY، ايليوت، بيرتون (اتفاق مورفي ـ ويقون : الولايات المتحدة الامريكية وافريقية الشمالية الفرنسية، 1940 ـ 1942، فرنسا في عهد فيشي والدبلوماسية والمغرب والجزائر)، جامعة نورهام، 1986، 441 ص.

13 ـ منير، صالح محمد (الدكتور سوزا SOSA و « توبوغرافية الجزائر التاريخ العام »)، جامعة برشلونة الذاتية (اوتونوما) باسبانيا، 1991، 451 ص. باللغة الاسبانية.

14 ـ مورفري MURPHREY، اليزابيت، هو بقود (جاك سوستيل واختفاء الجزائر الفرنسية) جامعة ديوك، 1976، 313 ص.

15 ـ مانيس MANES روز ماري، افريل (أصحاب الأقدام السوداء : دراسة لآستمرار التميز الثقافي المتخلف بالنسبة للثقافة الفرنسية)، جامعة سيراكيوس، 1991، 395 ص.

16 ـ نيلور NAYLOR فيليب، شيفيجس، (التنازع والتعاون : العلاقات الفرنسية الجزائرية 1962 ـ 1978)، جامعة ماركيت، 1980، 479 ص.

17 ـ فان دايك VANDYKE ستيوارت، هوب (سياسة المستوطنين الفرنسيين أثناء الحرب الجزائرية، 1954 ـ 1958) جامعة شيكاغو، 1980.

18 ـ فغرور، دحو (السببية الثورية في النظرية والتطبيق : وضع الجزائر 1830 ـ 1954)، جامعة دنفر، 1984، 218 ص.

19 ـ فرانس FRANCE جودايث، أ، (السياسة الخارجية لمنظمتي الصناع والعمال الامريكيتين نحو الجزائر 1954 ـ 1962)، الجامعة الولائية، بال BAL 1981، 206 ص.

20 ـ هاريسون HARRISON الاسكندر (مقاربات التاريخ الشفوي لدراسة الثورة المضادة في الجزائر، 1954 ـ 1962)، جامعة نيويورك، 1980، 319 ص.

21 ـ هولسنقر HOLSINGER دونالد، شارل (هجرة أهل وادي ميزاب وتجارتهم في الجزائر خلال القرن التاسع عشر)، جامعة نورث ويسترن، 1979، 434 ص.

ب ـ رسائل في العلوم السياسية

1 ـ ايلرمان ELLERMAN الفريد ديني (الجزائر في العهد الاستعماري : التفقير والوسائل Mechanization)، جامعة هارفارد، 1977، الصفحات غير مذكورة.

2 ـ باشا، عدنان خليل (مالك بن نبي وفكره الاسلامي الحديث)، جامعة سالفورد (بريطانيا) 1992، 412 ص.

3 ـ بومهدي، بلقاسم (تاريخ سياسي لنزاع الصحراء الغربية)، جامعة ساوث هامبتون (بريطانيا)، 1988، 540 ص.

4 ـ جاء بالخير، عيسى (افريقية والمؤتمر الثالث للأمم المتحدة حول قانون البحار : دراسة لحالة الجزائر)، جامعة ميامي، 1984، 261 ص.

5 ـ حسين جاء بالله، بلقاسم (نزاع الصحراء الغربية، دراسة في منظمة البوليزاريو كحركة ثورية)، الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، 1985، 260 ص.

6 ـ دلبو، عمار (التكنولوجيا والسياسة الخارجية للتنمية في العالم الثالث : دراسة لحالة الجزائر)، الجامعة الولائية لنيويورك في آلباني، 1992، 164 ص.

7 ـ رحماني، الصغير (العلاقات الجزائرية الأمريكية، 1962 ـ 1985 : دراسة في السياسة الخارجية المعادية للأمبريالية وتأثيرها في العلاقات الجزائرية الأمريكية)، في مجلدين، جامعة جورجتاون، 1987، 548 ص.

8 ـ العياشي، عزالدين (أوجه السياسة الخارجية : الولايات المتحدة الأمريكية وشمال افريقية) جامعة نيويورك، 1988، 414 ص.

9 ـ علوش، بوستة (الدولة الصغيرة والواسطة الدولية : دراسة حالة الجزائر)، بارك كوليج بجامعة ماريلاند، 1987، 461 ص.

10 ـ عسوس، عمر (التعريب والتنازع الثقافي في الجزائر)، جامعة نورثايسترن، 1985، 289 ص.

11 ـ غضبان، مبروك (السياسة الخارجية للاقتراض الأجنبي وتطورها الاستراتيجي : تطور نظري للتنمية)، الجامعة الولائية لنيويورك في آلباني، 1985، 419 ص.

12 ـ قنس، بابرا، قلندورة (الأدوار السياسية للنساء المسلمات : دراسة لثورتي الجزائر وايران)، جامعة تكساس بمدينة أوسطن، 1987، 388 ص

13 ـ سريع الغلام، محمود (الأبعاد الدولية لنزاع الصحراء الغربية)، جامعة جنوب كاليفورنيا، 1987، 475 ص.

14 ـ ستاركي STARKEY برنجيد، آن (الدولة والثقافة والسياسة الخارجية : بحث في الروابط في العالم الاسلامي أو الاسلام في مصر وايران والجزائر واندونيسيا)، بارك كوليج لجامعة ماريلاند، 1991، 363 ص.

15 ـ سيفيتز SAIVETZ كارول، ريشان (الاشتراكية في مصر والجزائر، 1960 ـ 1973 : التقديرات السوفياتية)، جامعة كولومبيا، 1979، 357 ص.

16 ـ كاسكلا KASKLA ادقار، فالدور (القومية الاستونية والاستعمار في الدراسة المقارنة. مع بلدان : ويلز والباسك والجزائر والكيبيك)، جامعة كاليفورنيا بارفين، 1992، 434 ص.

17 ـ ماران MARAN ريتا، رودجز (التعذيب أثناء الحرب الفرنسية ـ الجزائرية : دور المهمة الحضارية)، جامعة كاليفورنيا بسانتا كروز، 1987، 470 ص.

18 ـ ماكراث MC GRATH جون، جوزيف (مقارنة تحليلية للحركات الوطنية في شمال ايرلاندا وجنوب افريقية والجزائر. . .)، جامعة فوردهام، 1990، 503 ص.

19 ـ منصوري، عبد الحفيظ (الجزائر بين التقليد والتجديد : مسألة اللغة العربية والفرنسية) الجامعة الولائية لنيويورك في ألباني، 1991، 192 ص.

ج ـ رسائل في الاقتصاد

1 ـ ايمرسون EMERSON ليزلي، آن (الهجرة الداخلية في الجزائر، 1966 ـ 1977 : شرح موضوع الأجور وايجاد العمل)، بارك كوليج في جامعة ماريلاند، 1992، 337 ص.

2 ـ بوقرة، بلقاسم (مسألة الطريقة الآسيوية للانتاج والجزائر قبل الاحتلال ـ الفرنسي)، الجامعة الامريكية، 1986، 287 ص.

3 ـ بفايفر PFEIFER ، كارين آن (الاصلاح الزراعي وتنمية الزراعة الرأسمالية في الجزائر)، الجامعة الأمريكية، 1981، 428 ص.

4 ـ رابح، نور الدين (الاحتلال الاستعماري وأصول رأس مال الدولة : دراسة حالة الجزائر بين 1962 ـ 1965)، الجامعة الأمريكية، 1991، 231 ص.

5 ـ سليمان، خليفة علي (الجماعة الميزابية في الجزائر وشمال افريقية في تصمياتها ومظاهرها العمرانية ماضيا وحاضرا ومستقبلا)، جامعة اريزونا، 1988، ـ رسالة ماجستير ـ 160 ص.

6 ـ لامه، أحمد (التحول الزراعي والقطاع الزراعي في الجزائر، دراسة في طريقة التغير أثناء العهد الاستعماري وبعد الاستقلال)، جامعة سالفورد (بريطانيا)، 1990، 730 ص.

د ـ رسائل مختلفة

1 ـ بوعلية، شهرزاد (النوع والاثنية : الآراء اللغوية والاستعمال في المحتوى الجزائري ـ الفرنسية والتعريب ـ) معهد المعلمين لجامعة كولومبيا بنيويورك، 1993، 161 ص. ـ لغة ـ

2 ـ بوروح، شاورة (التصنيع والبنية الطبقية في الجزائر)، الجامعة الأمريكية، 1985، 217 ص. ـ سوسيولوجيا ـ

3 ـ بوعمران، علي (مظاهر الوضع الاجتماعي ـ اللغوي في الجزائر)، جامعة أبيردين (بريطانيا)، 1986، 368 ص. ـ انثروبولوجيا

4 ـ حويتي، أحمد (التصنيع والتنمية الاقتصادية : تجربة الجزائر منذ الاستقلال، 1962 ـ 1984) الجامعة الأمريكية، 1986، 306 ص ـ سوسيولوجيا ـ.

5 ـ دونادي DONADEY ، آن (الخطاب في أعمال آسيا جبار وليلى صبار ـ فرنسا والجزائر) جامعة نورثويسترن، 1993، 223 ص ـ أدب فرنسي/افريقي.

6 ـ سعد، زهرة (التخطيط اللغوي والآراء السياسية : دراسة عن التعريب في الجزائر) معهد المعلمين لجامعة كولومبيا بنيويورك، 1992، 184 ص ـ لغة/تاريخ ـ

7 ـ شيبرد SHEPPARD ، بطرس جوزيف (دراسة في التنوع التقني والفني لمجموعات/أحجار العهد الكبسيني CAPSIAN)، جامعة طورنطو (كندا)، 1983، دون ذكر الصفحات ـ عن صناعة العهد الحجري القديم كما وجدت في شرق الجزائروتونس.

8 ـ فيزونا VISONA باولو (النقود البونيقية البرونزية : رواجها وصناعتها ومراحلها) في مجلدين، جامعة ميشيقان، 1985، 514 ص. ـ أنثروبولوجيا/آثار.

9 ـ فريدمان FRIEDMAN اليزابيت ديبوره (يهود باتنة ـ الجزائر ـ دراسة في الهوية والاستعمار)، جامعة مدينة نيويورك، 1977، 301 ص. ـ انثروبولوجيا ـ

10 ـ علالي، حدة فوزية (النساء الجزائريات في التنمية : دراسة المدن القصديرية في عنابة) جامعة بوسطن، 1988، 348 ص. ـ دراسات نسوية ـ

11 ـ كانجار CANJAR ريك ايلين ايويرتزيت (البنية المقارنة في التنظيم الفضائي في الأنظمة العسكرية المعتادة وغير المعتادة : دراسة خاصة بالثورة الجزائرية سنة 1954)، جامعة ميشيقان، 1983، 272 ص. ـ سوسيولوجيا ـ

12 ـ كارد CARD ، كارولين إليزابيت (الموسيقى التارقية، والهوية الاجتماعية ـ الجزائر والنيجر ـ)، جامعة أنديانا، 192، 258 ص. ـ فولكلور ـ

13 ـ مالركي MALARKEY ، جيمس ميتشل (المواجهة الاستعمارية في الجزائر الفرنسية : دراسة في تطور قوة غير متكافئة والعنف الرمزي في مدينة قسنطينة)، جامعة تكساس بمدينة أوسطن، 1980، 331 ص. ، ـ انثروبولوجيا ـ

14 ـ مريني، رفيقة (دراسة اجتماعية ـ أدبية في أعمال ليلى صبار وآسيا جبار)، الجامعة الولائية لنيويورك في بينغامتن، 1992، 250 ص. ـ أدب مقارن، دراسات نسوية ـ

15 ـ ويلوقبي WILLOUGHBY باميلا، راي (الصخور المستديرة والمصقولة : دراسة في التقنية والتلاؤم أثناء العصر الافريقي الحجري المبكر والمتوسط) ـ عين الحنش في الجزائر وأماكن أخرى خارج الجزائر ـ جامعة كاليفورنيا بلوس انجلس، 1985، 360 ص. ـ انثروبولوجيا/آثار ـ

16 ـ وينزل WENZEL ، جيمس أندرو (تقييم لبرنامج طلايعي للخصائص الأساسية للأخ الأوغسطيني في الكنيسة المعاصرة)، الجامعة الكاثوليكية الأمريكية، 1993، 269 ص. ـ دين مسيحي ـ

17 ـ يقنقلو YEGENOGLO مؤتمن مايده (نحو قراءة نسوية للاستشراق)، جامعة كاليفورنيا بسانتا كروز، 1993، 252 ص. ـ أدب/ودراسات نسوية ـ.

د. أبو القاسم سعد الله

مدينة مينيابوليس، 9 أبريل 1994م

الأستاذ، أحمد مريوش أستاذ مساعد بمعهد التاريخ جامعة الجزائر

القضية الفلسطينية في اهتمامات الشيخ الطيب العقبي

في 14 ماي 1948 أعلنت بريطانيا عن انهاء انتدابها عن أرض فلسطين، بعدما مكنت الصهاينة في المنطقة ماديا ومعنويا، ويعود تاريخ اهتمام الجزائريين بالقضية الفلسطينية إلى اصدار وعد بلفور في 2 نوفمبر 1917 (1) وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين بعد ابرام معاهدة سان ريمو 1920 والقاضية بتقسيم سوريا الكبرى بين مطامع الانجليز والفرنسيين.

وقد استنكر الجزائريون ذلك العمل التآمري الذي تعرض له الشعب الفلسطيني على أيدي التعاون الانجليزي الصهيوني، وتجلت ردود الفعل الجزائرية في المحاضرات والدروس المسجدية والكتابات الصحفية والأشعار وغيرها. وقد أولت جمعية

---

1) وعد بلفور نسبة إلى وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور، أصدر الوعد في 2 نوفمبر 1917 لتمكين اليهود من إقامة وطن لهم فوق أرض فلسطين، وقد أصدر وزير الخارجية وعده المشؤوم لعدة عوامل منها : أ ـ رغبة بريطانيا في استمالة العناصر البارزة اليهودية في العالم حتى يدعموها ماديا ومعنويا في الحرب الكونية الأولى.
ب ـ الحيلولة دون قيام دولة عربية موحدة بعد نشاط الحركة الشريفية بالمشرق.
ح ـ خلق دولة شرق أوسطية حقيقية لحماية مصالحها في المنطقة.
د ـ وصول عناصر يهودية إلى مناصب هامة في الحكومة البريطانية كتولية لويد جورج منصب رئاسة الوزراء.
للمزيد انظر : د/ابراهيم رضوان الجندي، سياسة الانتداب البريطانية واقتصادية في فلسطين (منشورات دار الكرمل عمان الاردن 1986) ص 15

العلماء اهتـمامهـا بالقضية الفلسـطينية، وكتب في جرائـدهـا العقبي ابن باديس والابراهيمي وغيرهم من العلماء.

واعتـبر العقبي القضية الفلسـطينية ليست بالقضية الاقليمية الخـاصة بمسلمي فلسطين وحدهم، بل هي قضية العرب والمسلمين أجمعين، ولذلك فقد ندد بسياسة الانتداب البريطاني فوق أرض فلسطين، وكشف في المناسبات العديدة بأن الوجود البريطاني في فلسطين يهدف أساسا إلى خدمة الحركة الصهيونية والتي وصف أصحابها بشذاذ العالم ونفاية الأمم (1).

وكتب العقبي في ذلك الشأن مقالا هاما في جريدة البصائر ـ وهي اللسان المعبر عن ادارة الجمعية ـ بعنوان « لبيك لبيك فلسطين فما أنت لأهلك ولكنك للعرب كلهم وللمسلمين أجمعين » يبين فيه حسرته تجاه القضية الفلسطينية، كما أفصح عن ألمه تجاه محنة الشعب الفلسطيني المتشرد من جراء ويلات القمع والتنكيل الصهيوني، وقد أشار العقبي إلى ذلك بقوله : « لهذا فإن كارثة فلسطين لم تكن بأمر يخص أهلها فحسب. . . ولكنها كانت مأساة عامة وكارثة عظمى حلت بالعالم الاسلامي كله والعـرب أجمعين. ومن الناس اليوم من لايلهج باسم فلسطين الشهيدة، فلسطين الدامية، فلسطين الثاكلة، فلسطين الباكية الشاكية الحزينة فلسطين ضحية الاستعمار الغـاشم. . . أراد الانجليز العتـاة البغاة تقديمها على مذبح مطامعهم ومصالحهم الخـاصـة لقمـة سائغـة للآكلين وغنيمـة باردة لشـذاذ العـالم ونفـاية الأمم من الصهيونيين. . » (2)

1) أما الدكتور ناصر الدين سعيدوني فيذكران العقبي كان من بين المهتمين بضرورة خلق حوار مستمر وتعايش سلمي بين مختلف الطوائف الدينية في الجزائر، خاصة بعد الأحداث التي شهدتها مدينة قسنطينة سنة 1934 وسطيف 1935. ويعتبر العقبي من الأعضاء المؤسسين « لأتحاد اصحاب التوحيد » رفقة سماحة بن يشو وإلى غوزلان وأبو الكير.
للمزيد أنظر : ناصر الدين سعيدوني دراسات ومهجات في تاريخ الجزائر الفترة الحديثة والمعاصرة
الجزء II (المؤسسة الوطنية للكتاب 1988) ص 295.
2) جريدة البصائر، عدد 78، السنة الثانية، 13 أوت 1937.

ولم يقتصر اتهام العقبي على الانجليز وحدهم في المأساة الفلسطينية، بل اتهم كذلك التواطؤ العالمي المتمثل في عصبة الأمم التي تأسست بعد الحرب الأولى لمعـالجـة القضـايا العـالمية سلميا. وقـد اشار العقبي إلى ذلك بنوع من السخرية والتشكيك في المصداقية الدولية بقوله : « كل هذا من الانجليز الظلمة، وتحت نظر وبموافقة جمعية قالوا عنها أنها جمعية الأمم وعصبة الشعوب المتمدنة » (1)

ومع تطور القضية الفلسطينية ازدادت إهتمامات العقبي بها، ولذلك نراه يتحول في مواقفه من الوسائل الأدبية إلى المادية، وكان يرى ضرورة الاسراع الى تقديم الدعم المادي للفلسطينين، ففي سنة 1947، أسس بنادي الترقي بالجزائر العاصمة لجنة الدفاع عن فلسطين والظاهر أن دعوته هذه قد تزامنت مع نداء الجامعة العربية القاضي بجعل يوم الجمعة الموافق لـ 3 أكتوبر 1947 بيوم فلسطين في العالم لأظهار عواطف المسلمين تجاه القضية الفلسطينية العادلة.

ولبى الشعب الجزائري النداء على غرار الشعوب الاسلامية الأخرى، وأحيت العـاصمة ـ التي أصبحت تابعة لحركة الاصلاح الاسلامي الذى دعا إليه العقبي ـ الذكرى بقلوب خاشعة ورفع المصلون دعواهم إلى الله خلال الجمعة لنصرة فلسطين. وفي مساء ذلك اليوم احتضن نادى الترقي هو الآخر ذكرى يوم فلسطين السليبة، وتبارى الخطباء وفضحوا نوايا الصهيونية وكشفوا عن الأعمال الاجرامية التي يعانيها إخوانهم الفلسطنيون، وممن ألقوا المحاضرات أبو بكر بن مصطفى الزاهري وابراهيم بوحميدة وأبو بكر جابر، ومحمد الحسن الورتلاني.

وبعد هذه المداخلات خطب العقبي في الحفل وشرح للحاضرين عدالة القضية الفلسطينية وتطورها تاريخيا، وانها قضية كل مسلم في العالم الاسلامي، وعبر

1) جريدة البصائر، عدد 78، السنة الثانية، 13 أوت 1937.

عن شعوره بأنه مستعد للتضحية بكل غال في سبيل فلسطين ثالث الحرمين وأولى القبلتين كي تستعيد عروبتها واسلامها وأبرز ذلك بقول : انه حان الأوان لأظهار الاتحاد العملي والتضامن الفعلي، وسأحمل راية الجهاد وأذهب بنفسي تاركا الأهل والولد. (1)

أما جريدة الاصلاح - وهي اللسان الناطق باصلاح العقبي - فقد أولت اهتمامها للقضية الفلسطينية، وغطت أحداث الاحتفال بيوم فلسطين بنادي الترقي الذي كان ينشطه العقبي، واسمته « بيوم فلسطين العربية في الجزائر المسلمة العربية » واعتبرت الحدث اسلاميا يمكن من الرابطة الاسلامية، بل ويعززها وأشارت إلى ذلك بقولها : « حقا لقد كان ذلك اليوم يوم فلسطين يوم الاسلام والعروبة، يوم الاعلان بالجهاد في سبيل الحق وفي سبيل فلسطين، يوم الرابطة الاسلامية والوحدة العربية يوم الشرق المسلم العربي والمغرب المسلم العربي. . . يوم الجزائر قلب الشمال الافريقي حيث تذكر كل مسلم أيام المسلمين الصالحين ومجد العرب الخالدين. . . » (2)

ولم يكتف العقبي بذلك وراسل العديد من المهتمين بالقضية الفلسطينية محاولة منه توحيد الجهود وخدمة القضية، وأبرق إلى عزام باشا (3) ومحمد أمين

1) جريدة الاصلاح، عدد 64، السنة العشرون، 10 أكتوبر 1947
2) نفسه، عدد 65، نفسه، 17 أكتوبر 1947
3) عزام باشا أول أمين عام لجامعة الدول العربية منذ تاسيسها منذ 1945 إلى 1952 وخلفه الدكتور عبد الخالق حسونة.

الحسيني (1) وفوزي القاوقجي (2) الممثلين للجامعة العربية والمجتمعين في بيروت في 7 أكتوبر 1947. وأوضح العقبي في البرقية مدى ارتباط وتعلق الشعب الجزائري بقضية فلسطين، كما أنه عارض مشروع التقسيم، وان الكثير من الجزائريين يفضلون الجهاد عن طواعية والانخراط في صفوف المتطوعين للدفاع عن أرض فلسطين والتصدي للحركة الصهيونية المتقمصة لثوب الاستعمار. ومما جاء في محتوى البرقية قوله : « الشعب المسلم الجزائري يؤكد لكم اخلاصه العميق وارتباطه المتين قلبا وقالبا بكم. . . وارتفعت اصواتهم بالاحتجاج الصارخ ضد مشروع التقسيم، أعلنوا عن رغبة ولهفة استجابتهم لكل قضية واستعدادهم التام للانخراط في صفوف المتطوعين للدفاع عن فلسطين وحماية تلك البلاد المقدسة من عدوان المعتدين. واني شخصيا قد عزمت عزما اكيدا على رفع راية الجهاد على رأس هؤلاء الآلاف تلبية لداعي الايمان بمبدأ ديمقراطية الاسلام الحق ومقاومة للصهيونية الباغية المتقمصة لثوب الاستعمار. . . » (3) وقد عبر أمين الحسيني عن تشكراته العميقة تجاه الشعب الجزائري عن موقفه الشجاع مع إخوانه الفلسطينيين، وأبرق ببرقية ممائة للعقبي (4).

1) محمد أمين الحسيني المفتي الأكبر لفلسطين ينتسب إلى عائلة حجازية هاجرت إلى فلسطين، ولد سنة 1877 وحرص والده على تعليمه القرآن والعلوم الشرعية والعصرية واللغات في المدارس العثمانية، ثم تابع دراسته بالأزهر ومن أساتذته محمد عبده، جند في الجيش العثماني في الحرب الكونية الأولى في منطقة أزمير، وبعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين اعتقل كغيره من الشباب الأحرار، وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، وبعد اطلاق سراحه اتصل بالأمراء العرب امثال فيصل وعبد الله. وبعد وفاة أخيه كامل الحسيني مفتي فلسطين عين أمين بالاجماع لمنصب المفتي على فلسطين، وخلال الحرب الثانية تعاون مع دول المحور ضد الحلفاء وسافر إلى أمصار عديدة عربية واسلامية وأوروبية للدفاع عن قضية فلسطين.
للمزيد أنظر : زهير ماردينى، فلسطين والحاج أمين الحسيني، ط I (دار اقرأ بيروت 1986)
2) فوزي القاوقجي رئيس هيئة الدفاع المسلم عن فلسطين.
3) أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجيستر مانزال مخطوطة جامعة الجزائر 1992، ص 490
4) مما جاء في البرقية : «اشكركم والاخوان الجزائريين على العواطف الشريفة التي اظهرتموها تضامنا مع الاخوان الفلسطينين ودفاعا عن البقاع المقدسة، ونرفع أكف الابتهال للعلي القدير ونساله ان ينيلكم ماتستحقون من الثواب لما بذلتم أنفسكم الكريمة من الجهود الجبارة. »
للمزيد انظر : جريدة الاصلاح، عدد 66 السنة العشرون، 24 أكتوبر 1947.

عن شعوره بأنه مستعد للتضحية بكل غال في سبيل فلسطين ثالث الحرمين وأولى القبلتين كي تستعيد عروبتها واسلامها وأبرز ذلك بقول : انه حان الأوان لأظهار الاتحاد العملي والتضامن الفعلي، وسأحمل راية الجهاد وأذهب بنفسي تاركا الأهل والولد. (1)

أما جريدة الاصلاح - وهي اللسان الناطق باصلاح العقبي - فقد أولت اهتمامها للقضية الفلسطينية، وغطت أحداث الاحتفال بيوم فلسطين بنادي الترقي الذي كان ينشطه العقبي، واسمته « بيوم فلسطين العربية في الجزائر المسلمة العربية » واعتبرت الحدث اسلاميا يمكن من الرابطة الاسلامية، بل ويعززها وأشارت إلى ذلك بقولها : « حقا لقد كان ذلك اليوم يوم فلسطين يوم الاسلام والعروبة، يوم الاعلان بالجهاد في سبيل الحق وفي سبيل فلسطين، يوم الرابطة الاسلامية والوحدة العربية يوم الشرق المسلم العربي والمغرب المسلم العربي . . . يوم الجزائر قلب الشمال الافريقي حيث تذكر كل مسلم أيام المسلمين الصالحين ومجد العرب الخالدين . . . » (2)

ولم يكتف العقبي بذلك وراسل العديد من المهتمين بالقضية الفلسطينية محاولة منه توحيد الجهود وخدمة القضية، وأبرق إلى عزام باشا (3) ومحمد أمين

1) جريدة الاصلاح، عدد 64، السنة العشرون، 10 أكتوبر 1947

2) نفسه، عدد 65، نفسه، 17 أكتوبر 1947

3) عزام باشا أول أمين عام لجامعة الدول العربية منذ تأسيسها منذ 1945 إلى 1952 وخلفه الدكتور عبد الخالق حسونة.

الحسيني (1) وفوزي القاوقجي (2) الممثلين للجامعة العربية والمجتمعين في بيروت في 7 أكتوبر 1947. وأوضح العقبي في البرقية مدى ارتباط وتعلق الشعب الجزائري بقضية فلسطين، كما أنه عارض مشروع التقسيم، وان الكثير من الجزائريين يفضلون الجهاد عن طواعية والانخراط في صفوف المتطوعين للدفاع عن أرض فلسطين والتصدي للحركة الصهيونية المتقمصة لثوب الاستعمار. ومما جاء في محتوى البرقية قوله : « الشعب المسلم الجزائري يؤكد لكم اخلاصه العميق وارتباطه المتين قلبا وقالبا بكم . . . وارتفعت اصواتهم بالاحتجاج الصارخ ضد مشروع التقسيم، أعلنوا عن رغبة ولهفة استجابتهم لكل قضية واستعدادهم التام للانخراط في صفوف المتطوعين للدفاع عن فلسطين وحماية تلك البلاد المقدسة من عدوان المعتدين. واني شخصيا قد عزمت عزما اكيدا على رفع راية الجهاد على رأس هؤلاء الآلاف تلبية لداعي الايمان بمبدأ ديمقراطية الاسلام الحق ومقاومة للصهيونية الباغية المتقمصة لثوب الاستعمار. . . » (3) وقد عبر أمين الحسيني عن تشكراته العميقة تجاه الشعب الجزائري عن موقفه الشجاع مع إخوانه الفلسطينيين، وأبرق ببرقية ممائة للعقبي (4).

1) محمد أمين الحسيني المفتي الأكبر لفلسطين ينتسب إلى عائلة حجازية هاجرت إلى فلسطين، ولد سنة 1877 وحرص والده على تعليمه القرآن والعلوم الشرعية والعصرية واللغات في المدارس العثمانية، ثم تابع دراسته بالازهر ومن أساتذته محمد عبده، جند في الجيش العثماني في الحرب الكونية الأولى في منطقة أزمير، وبعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين اعتقل كغيره من الشباب الأحرار، وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات، وبعد اطلاق سراحه اتصل بالأمراء العرب امثال فيصل وعبد الله. وبعد وفاة أخيه كامل الحسيني مفتي فلسطين عين أمين بالاجماع لمنصب المفتي على فلسطين، وخلال الحرب الثانية تعاون مع دول المحور ضد الحلفاء وسافر إلى أمصار عديدة عربية واسلامية وأوروبية للدفاع عن قضية فلسطين.
للمزيد أنظر : زهير ماردينى، فلسطين والحاج أمين الحسيني، ط I (دار اقرأ بيروت 1986)

2) فوزي القاوقجي رئيس هيئة الدفاع المسلم عن فلسطين.

3) أحمد مريوش، الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجيستر ماتزال مخطوطة جامعة الجزائر 1992، ص 490

4) مما جاء في البرقية : «اشكركم والاخوان الجزائريين على العواطف الشريفة التي اظهرتموها تضامنا مع الاخوان الفلسطينيين ودفاعا عن البقاع المقدسة، ونرفع أكف الابتهال للعلي القدير ونسأله ان ينيلكم ماتستحقون من الثواب لما بذلتم أنفسكم الكريمة من الجهود الجبارة. »
للمزيد انظر : جريدة الاصلاح، عدد 66 السنة العشرون، 24 أكتوبر 1947.

والظاهر أن العقبي لم يرغب في العمل الفردي من أجل قضية فلسطين، وكان يرى في العمل الجماعي القوة الفاعلة، وإنه حان الأوانن لتوحيد الرأي العام الجزائري لتدعيم فلسطين، ولذلك اتصل بالهيئات والأحزاب السياسية والوطنية وبالابراهيمي ممثلا عن جمعية العلماء بقصد التشاور والحوار بضرورة تكوين لجنة مشتركة وطنية ووجد العقبي بعض المتاعب في محاولته الأولى لتخوف بعض التيارات السياسية من دعوة العقبي على اساس أنه يهتم بالقضايا الخارجية على حساب القضايا الوطنية في الداخل، وذلك مايؤخر العمل السياسي بالنسبة للجزائر.

وأعاد العقبي الكرة واتصل بالابراهيمي في منزله لأنه لم يصادفه في الجولة الأولى في مقر الجمعية، وأعرب العقبي عن أن تكون مشكلة فلسطين هي فاتحة لعهد جديد في تقارب العلاقات السياسية الجزائرية من جهة، وتقريب وجهات النظر تجاه الجمعية من جهة أخرى.

والظاهر أن محاولة العقبي قد اثمرت، اذ كتب الابراهيمي في جريدة البصائر موضحا كيفية تشكيل الهيئة العليا لاعانة فلسطين بقوله: «زارني الاستاذ العقبي في داري وهو الروح المديرة لتلك اللجنة * واخبرني بأن اللجنة تتنازل مسرورة عن اسمها ومطبوعاتها وأعمالها. إنها تود الانضمام إلى هيئة قوية مؤلفة من رؤساء الهيئات والاحزاب، وصارحني بأنه يشاطرني الرجاء في ان تكون قضية فلسطين مباركة كأرضها فتكون سببا في جمع ماتشتت من أحزابنا. . . . » (1)

وهكذا نجح العقبي في الخطوة الأولى في تفاوضه مع الابراهيمي، واتفق

1) جريدة البصائر، عدد 52 السنة الثانية، السلسلة الثانية، 11 أكتوبر 1948.

* يذهب توفيق المدني في مذكراته إلى أنه هو الذي دعا رجال السياسة والاصلاح إلى الاجتماع بنادي الترقية سنة 1948 وأمرهم بضرورة تأسيس هيأة لاعانة فلسطين، وأصبح المدني أمين هذه اللجنة.
للمزيد أنظر: أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، الجزء الثاني (ش، و، ن، ت 1977) ص 386.

الطرفان على أسلوب العمل وعلى ان يقوم العقبي بتوجيه الدعوة إلى كل من أحباب البيان والحرية وحركة انتصار الحريات بقصد الانضمام إلى العمل الجماعي والمشاركة في اعانة فلسطين وحينها تأخذ القضية نوعا من المصداقية وقد اشار العقبي في جريدته الاصلاح إلى ان مرحلة الخطب الحماسية والجمل المثيرة أصبح غير مجد، وأنه حان الأوان للأخذ بالمرحلة الهامة والمتمثلة في رص الصفوف وتحضير الهمم والاعلان عن حركة الجهاد وبذل النفس والنفيس لتخليص فلسطين من محنتها حتى تستعيد عروبتها واسلامها، ولانجاح ذلك اقترح العقبي ان يؤسس على رأس كل مدينة أو قرية لجنة للدفاع عن فلسطين لتولي جمع التبرعات واحصاء قوائم واسماء المتطوعين من المجاهدين والمجاهدات الذين يرغبون في الذهاب إلى فلسطين، وقد أسند العقبي هذه المهمة لمصالي الحاج زعيم حركة الانتصار (1)

وقد نتساءل عن دوافع اختيار العقبي لترشيح مصالي لزعامة القضية الفلسطينية في الجزائر؟ ولعل من دوافع ذلك الشعبية العريضة التي أصبح عليها حزب مصالي من جهة، ولطبيعة حركة الانتصار التي تجنح في أسلوبها إلى العمل الثوري من جهة أخرى، هذا ناهيك عن قصد العقبي تفادي أي تصادم سياسي حول الزعامة، وكسب رهان الموقف الوطني الموحد تجاه قضية فلسطين.

أما فرحات عباس الذي كان أقرب الى العلماء، فقد لبى هو الأخر الدعوة، ورغب في العمل مع رجال الاصلاح والهيئات الأخرى، واعتبر عباس ان القضية الفلسطينية فاقت كل اعتبار حزبي. أما حركة الانتصار فقد تماطلت في توضيح موقفها، بل اعتبرت المشكلة الفلسطينية موجودة في الجزائر، وان ابناء الأمة الجزائرية يعانون في السجون وأن الحالة الجزائرية تعاني من تفاقم المشاكل، أي أنها فضلت أولوية قضايا الداخل قبل الاهتمام بالخارج.

1) جريدة الاصلاح، عدد 71، السنة الحادية والعشرون، 5 فيفري 1948.

« صورة تمثل لجنة اغاثة فلسطين ويظهر بها الشيخان العقبي والابراهيمي واخرون من الهيئات والأحزاب »

المصدر : فضلاء، الطيب العقبي، ص 99

ورغم ذلك الاختلاف في الطرح، فقد تمكن العقبي من الوصول إلى الوفاق الوطني ففي سنة 1948 احتضن نادي الترقي أول اجتماع لهيأة اعانة فلسطين والمتكونة من العقبي * والجمعية والبيان، وغاب عن الاجتماع المصاليون ومصطفى القاسمي الممثل للاتجاه الطرقي. ولعل ذلك التخاذل منها قد قلل من أهمية الحدث حسب تعبير أحد المعاصرين حينما قال : « وكم كان ألمنا عظيما عندما رفض الاخوة المصاليون رجال حزب الشعب الاشتراك معنا في العمل، كما تأسفنا كثيرا لعدم مشاركة رجال الزوايا. . . » (1)

ونحن لاندري من أشرك الزوايا في هيأة اعانة فلسطين، لأن العقبي حسب مايبدو اكتفى بتوجيه الدعوة إلى أحباب البيان وحركة الانتصار، ولايستبعد أن الشيخ القاسمي تلقى الدعوة من العلماء، ويتضح ذلك في رسالة القاسمي لتوفيق المدني والرافضة للمشاركة في الهيئة الجزائرية لاعانة فلسطين (2).

أما مصالي فالظاهر أنه تراجع عن موقفه المتطرف في عدم التعاون مع لجنة اعانة فلسطين، وأرسل أحمد مزغنة نيابة عنه باسم حركة الانتصار، وقد يكون، ذلك تخوفا من مصالي عن تقلص شعبية حزبه أمام تضامن الهيئات الجزائرية خاصة وأن المشكل الفلسطيني هو مشكل سياسي وديني مقدس، كما قد يكون التراجع من مصالي نتيجة ارتياح نفسي بعد ان زارته الوفادة في منزله وقد استقبلها كما قيل بالحفاوة والأدب الجم (3) وبذلك تمكن العقبي من جر مصالي إلى التعاون مع لجنة اعانة فلسطين والتخلي عن تخوفاته المسبقة.

---

1) المدني، حياة كفاح، 2 II، ص 386

2) المدني، نفس المصدر، ص 387.

* خلال هذه الفترة كان العقبي قد استقال عن المجلس الاداري لجمعية العلماء بعد حادثة البرقية الملعونة حول موقف الجمعية من الحلفاء خلال الحرب الكونية الثانية، وتعتبر الحادثة القطرة التي أفاضت الكأس، وظل العقبي على ولائه لمبادىء الجمعية وخدمها حتى توفاه الله في ماي 1960. وللتعرف حول هذه الاشكالية راجع. مريوش، الطيب العقبي، ص 290

3) جريدة المغرب العربي، عدد 25، السنة الثانية، 8 جوان 1948.

وحضر مزغنة الجلسة الثانية لهيأة اعانة فلسطين بنادي الترقي، ولو أن حضوره كان صوريا، والا كيف نفسر اقتراحه على أعضاء الجلسة بضرورة زيارة مصالي في منزله من جديد قصد التشاور معه حول النتائج المتمخضة عن الاجتماع، هذا في حين تذهب بعض المصادر إلى القول بأن الوفادة زارت مصالي في بوزريعة بدعوة منه (1) لأنه كان تحت الاقامة الجبرية المفروضة من طرف فرنسا.

والمهم انه بعد اجتماع نادي الترقي زارت الوفادة المشكلة من الابراهيمي والعقبي وبيوض وعباس وساطور والدكتور بن خليل، مصالي في منزله، وهناك وجدوا في انتظارهم مزغنة وأحمد بودا (2) ويظهر من ذلك أن الزيارة كانت منتظرة بالنسبة لمصالي وصحبه.

"وقد خلف الاجتماع المنعقد بمنزل مصالي إلى حلول أرضت كل الاطراف، وتم الاجماع حول تكوين الهيئة وتسميتها بالهيئة العليا لاعانة فلسطين، والمتكونة من خمسة أعضاء وهم : العقبي والابراهيمي وبيوض وعباس ومصالي (3)

والظاهر أن العقبي كان له الفضل الكبير في تنقية الاجواء وتهيئة ظروف العمل وتسطير جدول الأعمال الذي أوضحه خلال الجلسة، وأراد بذلك تشكيل مكتب اللجنة وتعيين رئيسها واختيار أمينها العام، وأن تعلن الاسماء علانية خلال الاجتماع تفاديا لأي التباس أو تصادم مفخخ، لكن الابراهيمي رفض ذلك (4) وبذلك تأسست الهيئة بلا رئيس ولامرؤوس، وانما يرأس كل جلسة من يجتمعون في مكتبه.

1) نفس المصدر جريدة المغرب العربي، عدد 25، السنة الثانية، 8 جوان 1948.
2) جريدة البصائر، عدد 52، السنة الثانية، السلسلة II ، 11 أكتوبر 1948.
3) نفسه، عدد 53 نفسه، 18 أكتوبر 1948.
4) جريدة المغرب العربي، عدد 25، السنة الثانية، 8 جوان 1948.

ان عدم الوصول إلى تعين الرئاسة الفعلية للهيئة ظلت تخفي وراءها زوبعة منتظرة ! بل تجلت خيوطها بعد أن اقترح مصالي ضرورة اسناد صياغة كتابة البرقيات الموجهة للهيئات الوطنية والدولية للمحامين ساطور وهو بياني بمساعدة مزغنة وهو انتصاري من دون اشراك العلماء في ذلك.

ويبدو ان كل الاطراف قبلت باقتراح مصالي غير العادل، واجتمعت هيئة الصياغة في مكتب الابراهيمي، وحرر ساطور البرقيات ووافق عليها مزغنة وحينها قدمت لكاتب الجمعية لترجمتها وقبل بها الابراهيمي، ولم تبق الا ان تعرض الصياغة النهائية للبرقيات على الأعضاء الباقين لتوقيعها (1).

لكن الخلاف مالبث أن نشب من جديد بعد تعنت مزغنة وإصراره على ان يتصدر اسم مصالي باقي أعضاء الهيئة المكونة، بعد ان برر موقفه ذلك بالشعبية الواسعة التي يتمتع بها حزب الانتصار، وان حزبه حاز على الكثير من الأصوات في الانتخابات أما ساطور فقد عارض هو الآخر نظرة مزغنة ورد عليه قائلا : « لسنا في مقام تكاثر وتفاخر ولسنا في مقام إنتخابات، ولكني أنا وحزبي (البيان) راضون بكل افتخار ان يتقدم اسم الجمعية على الجميع، وراضون بأن يكون اسمنا في الأخير ولأن جمعية العلماء هي الداعية لتكوين الهيئة » (2)

وأصر حزبا البيان والانتصار على رأيهما. أما الابراهيمي فاعتبر الخلاف لايخدم المصلحة الوطنية ولا الفلسطينية، واقترح لذلك ان يتقدم اسم العقبي على الجميع، لأن العقبي هو البادىء بالفكرة ويرجع له الفضل في تهيئة المناخ الملائم لتأسيس اللجنة العليا لأعانة فلسطين. لكن مزغنة أصر من جديد على رأيه ولم يقتنع

1) جريدة المغرب العربي، عدد 25، السنة الثانية، 8 جوان 1948
2) جريدة البصائر، عدد 53، السنة الثانية، السلسة II ، 18 أكتوبر 1948

بالاقتراح ووعدهم في نهاية الجلسة بالرجوع إلى الموضوع في وقت لاحق.

وحسب رواية الابـراهيمي فإنه إلتقى هو والعقبي بمزغنة وسط مدينة الجزائر وفتحا معه الموضوع من جديد، على أساس أن مسألة فلسطين لاتحتاج إلى مثل هذا التماطل، وقد وعدهم مزغنة مجددا بالحضور لكنه لم يوف بوعده.

ويبـدو ان وسـاطـة الابـراهيمي لم توفق في حل الخـلاف بين البيانيين والانتصاريين ويئس الابراهيمي من ذلك وقد أشار إلى ذلك بقوله : « وأجمعنا الرأي على أن ندعو الحزبين اللذين كنت قد تعبت في التأليف بينهما فلم أفلح. » (1)

أما العقبي فقد ظل على أمله في الوفاق والتقارب في وجهات النظر بين احبـاب البيان وحركة الانتصار، وكان يعتقد ان ذلك التلاعب السياسي مرده إلى الممثلين لحركة الانتصار، وان مصالي لم يكن على علم بتصرفات مزغنة ولعل ذلك مايفسر اتصال العقبي من جديد بالابراهيمي اذ عرض عليه فكرة الاتصال بمصالي مرة أخرى للوقوف مجددا عند رأيه الشخصي. ويبدو ان الابراهيمي كان اكثر تبصرا من العقبي بالفقه السياسي وماكان يدور في كواليسه وشرح ذلك للعقبي، لكن هذا الأخير لم يع الدرس لجهله ببعض القضايا الخفية، ولو أنه قدم الحجج والبراهين حول طبيعة الخلاف حسب رواية الابراهيمي.

ومـرة أخـرى زارت الوفادة المتكونة من العلماء (الابراهيمي، العقبي، بيوض، المدني) مصالي في غياب أصحاب البيان، وطرقت من جديد مشكلة الهيئة وكتابة البرقيات وكذا إمضائها، وكانت رؤية مصالي مطابقة لرسوله، بل أكثر تعنتا من ذلك، واسترسل في تمجيد حزبه وتقييمه، كما أعاب على الاجتماع التأسيسي عدم

1) جريدة البصائر عدد 52، نفسه، 11 أكتوبر 1948.

تعيين الرئيس وكان مصالي يهدف من وراء ذلك ترشيح نفسه للرئاسة.

وبعد أن إتضحت نوايا حركة الانتصار إتسع الخلاف بينها وبين العقبي الـذي كشف من جديد عن المساعي الحقيقية التي ترغب فيها الهيئة، وان العلماء ضربـوا المثل في الحرص على توحيد وتقارب الصفوف وجمع الكلمة، وتابع العقبي كلامه قائلا : ان جمعية العلماء هي صاحبة الفضل على الوطن. كما كشف عن أعمال حركة الانتصار فأوسعها قدحا وتنديدا وتقبيحا، وان كل دعايات حزبهم قائمة على التبجح بالتضحية ولكنهم لم يضحوا ولو باسم واحد » (1)

وبعد أن تيقن الجمع من سلبية مشاركة عناصر حركة الانتصار، حينها تشكلت من جديد الهيئة العليا لاعانة فلسطين وضمت العقبي والابراهيمي وبيوض وفرحات عباس (2) ونصبت لها هيئة تنفيذية مركزية تتبعها فروع عديدة في أرجاء الوطن.

والحق أن مواقف حركة الانتصار قد جلبت العديد من المتاعب في طريق اهتمامات العقبي بالقضية الفلسطينية، بل عملت على تأخيرها. ورغم ذلك كله فإن الهيئة العليا لاعانة فلسطين حاولت تدويل القضية الفلسطينية وطرحها في العديد من المرات على الجهات الرسمية التي كان لها الوزن الفعال في الحياة السياسية العالمية ولعل خير مثال عن ذلك البرقية التي ارسلتها الهيئة إلى الحكومة الفرنسية التي اعترفت بميلاد دولة اسرائيل.

وقد اعتبرت لجنة إعانة فلسطين الاعتراف الفرنسي باسرائيل هو تحد ضد مسلمي الشمال الافريقي المتضامن مع الفلسطنيين، ومما جاء في البرقية المرسلة إلى

1) جريدة البصائر، عدد 53، السنة الثانية، السلسلة II ، 18 أكتوبر 1948.
2) المدني، حياة كفاح، ج II ، ص 388.

فرنسا : ان لجنة اعانة فلسطين . . . قد تأثرت بصفة مؤلمة من القرار الذي اتخذه المجلس الوطني الفرنسي وإرسال التحية المخلصة لدولة اسرائيل المزعومة، ان هذا القرار يعتبر عملا عدائيا ضد العالم الاسلامي . . . واللجنة تلفت نظر حكومتكم لما في اعترافها بدولة اسرائيل المزعومة من حرج لعواطف خمسة وعشرين مليونا من المسلمين لسكان المغرب العربي المتضامن تضامناً فعالا مع اخوانهم اهل فلسطين من إساءة عميقة للعلاقات بين فرنسا والاسلام » (1)

كما أرسلت اللجنة ببرقية مماثلة إلى جامعة الدول العربية تبرز فيها تضامنها المطلق مع الاخوان العرب لمكافحة خطر الصهيونية وإفشال خططها الهادفة إلى تمزيق الكيان العربي والاسلامي، وقد جاء في البرقية : اننا بلسان هذه اللجنة نؤكد لسعادتكم تضامن الشعب الجزائري المسلم مع كل الدول العربية المكافحة ضد الامبريالية الصهيونية ونأمل إنتصار القضية العربية العادلة (2).

وان كان العقبي قد عارض تواطؤ عصبة الأمم مع الحركة الصهيونية، فإن اللجنة العليا هي بدورها قد أوقعت الأمم المتحدة في قفص الاتهام واعتبرت أن قيام دولة اسرائيل فوق التراب الفلسطيني سابقة خطيرة في تاريخ العلاقات الدولية، وهو يتناقض مع ميثاق المنظمة الدولية وهو اخلال للسلام العالمي حسب ما تضمنته البرقية اذ قالت : « ان لجنة اعانة فلسطين تحتج على ما مس العالم الاسلامي من عدوان صريح قامت به الصهيونية، وهي تحاول اقامة دولة يهودية فوق أرض فلسطين، اللجنة تعتقد أن هذه المحاولة تناقض ميثاق هيئة الأمم المتحدة وتمثل تهديدا صريحا للسلام العالمي . » (3)

1) المدني، حياة كفاح، ج II ، ص 388
2) نفس المصدر، ص 389 .
3) المدني، حياة كفاح، ج II ، ص 389 .

وكما أشرنا سالفا فإن العقبي كان يرى ضرورة الانتقال من الدعم المعنوي إلى المادي، ولذلك لم يكتف بإرسال البرقيات والتهديد، بل عمل على تعبئة الشعب الجزائري لخدمة القضية الفلسطينية، وتمكنت اللجنة من جمع تبرعات مالية معتبرة أنذاك قدرت بحوالي ثمانية ملايين فرنك، وحسب رواية الابراهيمي فإن المبالغ المالية أوصلوها إلى مأمنها في فلسطين واستلموا الشهادة القاطعة من وصولها، ورفعوا رأس الجزائر ومحوا عنها بعض التقصير. (1)

وهنا اكتفى الابراهيمي بالاخبار عن وصول الأموال إلى الفلسطينين، لكن لم يوضح كيفية وصولها والظاهر أن الأموال قد وصلت إلى فلسطين عن طريق العقبي الذي استعان في ذلك بالجامعة العربية (2)

ويبدو أن الابراهيمي قصد من سكوته عدم اثارة الفتنة، بعدما كثرت التأويلات حول مصير أحباس سيدي بومدين الجزائري في القدس الشريف والتي أودعها لحساب سكان المغرب العربي المجتاجين بالمنطقة خاصة منهم الجزائريين (3)

واذا كانت قضية فلسطين اخذت القسط الكبير من اهتمامات العقبي وأمثاله، فإن فرنسا لم تغض الطرف عن ذلك، وخلال فترة الاربعينات وبداية

1) جريدة البصائر، عدد 53، السنة الثانية، السلسلة II ، 18 أكتوبر 1948 .
2) جريدة عصا موسى، عدد 2، السنة الأولى، 20 أوت 1950 .
3) استولت الادارة الفرنسية على ابار المغرب العربي الموجودة بالبقاع المقدسة، والحقتها بمديرية الشؤون الأهلية وكانت تدعي انها تنفق منها على السلك الديني، كما اسندت الادارة الفرنسية رئاسة أحباس الحرمين الشريفين من مستوى افريقيا الشمالية إلى الشيخ « قدور بن غبريط » الجزائري الاصل والذي كان يسمى الوزير بلا وزارة وهو تابع للسلطة الشريفية بالمغرب الأقصى . وكان عميلا لفرنسا وربما كان جاسوسا على محمد الخامس ومن آثار تعاون بن غبريط مع فرنسا بناء المسجد الاسلامي بباريس الذي أصبح هو مقتبه وقال عن فرنسا أنها خادمة الاسلام وأنها دولة حضارية وإنسانية.
عن محادثة مع الشيخ محمد الصالح رمضان بتاريخ 1984/12/15 القبة.

الخمسينات ازدادت مساعيها واتضح ذلك في مساعي المستشرق الفرنسي ماسينيون (1) والذي كون وفدا لزيارة شرق الأردن وتفقد اللاجئين الفلسطين بطلب من الهلال الأحمر الدولي ونحن لانعرف ماإذا كانت زيارة العقبي لنفس المنطقة أي في ربيع 1950 تندرج ضمن مخطط ماسينيون، أم أن سفر العقبي كان خارجا عن وفادة ماسينيون ؟؟

واما الشيء المتعارف عيله أن زيارة العقبي لشرق الأردن ومعاينته للاجئين الفلسطنيين لم تكن سرية، بل كانت علنية، وانه استشار انصاره في نادي الترقي حول امكانية الزيارة، حسب رواية الشيخ العرباوي رحمه الله فإنه نصحه بمقاطعة الزيارة لكثرة الاشاعات التي روجتها الأطراف العديدة ضده، لكن العقبي أصر على السفر لأنه خدمة لفلسطين لاغير. (2)

وبالفعل ففي ربيع 1950 زار العقبي برفقة بن حورة أرض فلسطين، وتفقد الأحياس الجزائرية، كما زار شرق الأردن والتقى باللاجئين الفلسطينيين وتعرف على وضعيتهم الاجتماعية، وتذهب بعض الروايات إلى أن العقبي وبن حورة لم يكونا بمفردهما، بل رافقهما عباس التركي وهذا الذي أخذ المبلغ المالي الذي قدر بثمانية ملايين وأوصله إلى اللاجئين الفلسطين بضفة الأردن، أما العقبي فلم يكن هو الذي أخذ المبلغ الاجمالي، بل أخذ 9 آلاف فقط من المبلغ وهي النسبة التي تبرع بها انصاره (3)

1) ماسينيون من كبار المستشرقين الفرنسيين اهتم بقضايا الاسلام والعروبة، له سمعة واسعة في المشرق العربي من تلاميذته طه حسين وزكي مبارك، وكانت لماسينيون العضوية في المجتمع الملكي للغة العربية بمصر، وبعد في حكومته المعتمد الأول لوزارة الخارجية للمستعمرات في البلاد العربية شرقها وغربها، كتب العديد من الكتب عن الدراسات الاسلامية منها كتابه عن الحلاج والأوقاف الاسلامية في المشرق العربي وغيرهما.
للمزيد انظر :
Louis massignon, Documents sur certains wagfs des lieux saints de l'islam principalement sur le wagf tamimi à hébron et sur le wagf tlemcénien Abû Madyan à Jerusalem, Librairie orientaliste Paul Gauthner Paris 1952. P. 88

2) الشيخ العرباوي، محادثة شخصية بتاريخ 1984/11/23 الحراش

4) عن أحد المقربين من نشاطات العقبي ومن المناضلين في حزب الشعب، وهو لم يرغب في ذكر اسمه محادثة شخصية بتاريخ 1985/01/1 بنادي الاصلاح بلكور.

خصوصا اذا علمنا وأن اللجنة العليا قد اعتراها بعض الفتور قبل سفر العقبي إلى فلسطين.

والشيء الذي لاجدال فيه ان زيارة العقبي لفلسطين قد وسعت من الهوة بين العقبيين والبادسيين، وانعكس ذلك سلبا على اسلوب صحافتهم، وازدادت المهاترات بينهم، واعتبرت جمعية العلماء زيارة العقبي وراءها الايعازات الفرنسية، وان العقبي مثل فرنسا في زيارته ولم يمثل الأمة الجزائرية، وكتبت جريدة الشعلة اللسان الناطق عن البادسين تقول : « هذه الرحلة إلى المشرق التي نسبها العقبي إلى الأمة وهي بريئة من وفادته إليها، وتكلم فيها باسم العلماء، وقد طردوه منذ عهد بعيد، وقال عنها انها لمصلحة المسلمين، وقد كذبته اخبارها الحقيقية التي بدت تفوح رائحتها العفنة . . . » (1)

وقد زاد ذلك من عمق الخلاف، ولقب العقبي بألقاب خسيسة مثل البندير المقطع، وقد عبر أحد انصار الشعلة عن ذلك الجفاء بقوله : « والحقيقة ان الشيخ العقبي في هذه الحقبة العظيمة من نشاط جمعية العلماء كان يعيش على الهامش من النشاط الوطني، وكان اقرب إلى رجال الادارة الاستعمارية منه إلى رجال الوطن » (2)

ويبدو أن انصار الباديسية قد جروا الابراهيمي القطب إلى الأنضمام إلى أصحاب الشعلة، ولذلك نرى الابراهيمي هو الأخر يتهم العقبي بالانتماء إلى جمعية فرانس اسلام (3). وكتب على ذلك في جريدة البصائر (4).

1) جريدة الشعلة، عدد 35، السنة الأولى، 23 أوت 1950.
2) من مطبوعة مرقنة لأحد حماني افادني بها خلال البحث.
3) جمعية فرانس اسلام تأسست في فرنسا على غرار الجمعية الاسلامية الاسبانية. غايتها الدفاع عن حرية شعوب بعض بلدان العالم العربية كالجزائر وتونس والمغرب وسوريا، كما تحاول الجمعية التوفيق بين السياسة الفرنسية وشعوب هذه المناطق. واحتوت الجمعية على اعلام بارزة لهم دراية بشؤون العالم العربي والاسلامي ومن أعضاء الجمعية الفرنسية الاسلامية نذكر منهم : روبار جان لونغية، فرانسو أليه، برجري، رينودل، اتيان انطونلي، كما انتدب إلى هذه الجمعية عالمان من اسبانيا هما ده لوس ريوس وزير المعارف، والاستاذ أرجيلا أحد كبار النهضة الأدبية في مدينة مدريد.
للمزيد انظر : جريدة النور، عدد 56، السنة الثانية، 8 نوفمبر 1932
4) البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ج II ، ط I (دار المعارف بمصر 1963) ص 382.

أما انصار العقبي فكان ردهم الكيل كيلين وآسسوا جريدة عصا موسى، ودخلوا هم أيضا في مهاترات مع انصار الجمعية وخاصة مع رئيسها الابراهيمي الذي اتهموه بالانتساب إلى الحركة الماسونية (1) وكاد ذلك الصراع أن يؤدي إلى نتائج وخيمة بين الطرفين، لولا سفر الابراهيمي إلى المشرق مع فاتح سنة 1952 وتغيبه عن رئاسة الجمعية، ولولا الثورة التي اوقفت الخلاف، والمرض العضال الذي ألم بالعقبي وألزمه الفراش.

والحق ان ذلك الصراع انعكس على القاعدة الشعبية وتجسد في أدبياتها، ونظم الشيخ عياش البشير العمري من مدينة بسكرة قصيدة شعبية صورت لنا ذلك الصراع الدائر بين انصار العقبي والابراهيمي جاء في بعض ابياتها :

في عصا موسى جاء خبر لينا واعزم ... ضد القطب اللي على الأمة رغاب
في الماسونية قالوا دخل وخدم ... ضد الأمة شوف العجب العجاب
حتى الشعلة جاءت باخبر اتريم ... في العقبي يوم سافر للشرق وغاب
قالوا فيه كلام والمولى يعلم ... باع الأمة ياعجب حارت الألباب (2)

وقد دافع العقبيون عن رحلة العقبي إلى فلسطين، وحاولوا تنقيلة المعارضة وسلطوا الأضواء عليها، كما نقلوا مقالا نشرته جريدة أم القرى (3)

1) جريدة عصا موسى، عدد 2، السنة الأولى، 20 جويلية 1950.
2) عبد الكريم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، ج 3 (المؤسسة الوطنية للكتاب 1986) ص 262.
3) جريدة أم القرى تأسست في مكة المكرمة بظهور دولة ابن سعود في الحجاز وذلك سنة 1923، وهي أول جريدة رسمية للمملكة العربية السعودية، كما تعتبر اقدم صحف المملكة، كانت تصدر اسبوعية ثم اصبحت تصدر ثلاث مرات أو اربع مرات في الأسبوع للمزيد انظر : أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها قديما وحديثا، ط I (بيروت 1962) ص 367.

لصاحبها الشيخ الطيب الساسي (1) بعنوان : « قدوم زعيم الجزائر الديني الشيخ الطيب العقبي »، ومما جاء في المقال : « قدم بطريق الجو من مصر إلى جدة فضيلة العلامة الكبير المصلح الشهير الكاتب القدير الشاعر المفدى الخطيب المصقع الزعيم الديني في القطر الجزائري الشيخ الطيب العقبي مدير جريدة الاصلاح ورئيس لجنة الدفاع عن فلسطين والجمعية الخيرية وأمين مال الهيئة العليا لأغاثة فلسطين بالجزائر. . . قام بمهمته التي كلف بها من مسلمي القطر الجزائري، وهي دراسة أحوال اللاجئين العرب في فلسطين وشرقي الأردن وتفقد مخيماتهم ومنازلهم وأخذ صورة كاملة وشهادة عن أحوالهم. كما قام ايضا نيابة عن مسلمي الجزائر بمهمة البحث والدفاع عن أوقاف وحقوق المغاربة في فلسطين وشرقي الأردن، ولاسيما أوقاف أبي مدين في فلسطين ومعظمها في منطقة عين كارم التي وجدتها تحت ايدي اليهود فلم يدخلها لأن نفسه الأبية كرهت ان ترى منطقة عربية تحت سلطة يهودية ووزع فضيلته مبالغ عظيمة من تبرعات مسلمي الجزائر للجهات والمؤسسات الخيرية التي رآها أحق بذلك. . . » (2).

ولم يكتف العقبي بأداء الواجب الوطني وزيارة الفلسطينيين والوقوف عند اوقاف المغاربة، بل زار البقاع المقدسة واعتمر، كما أدى صلة الرحم والقرابة واستقبله الأمير عبد الله الفيصل، وتابعت جريدة ام القرى وصفها لزيارة العقبي الحجازية بقولها : « وقد استقبل في جدة بالحفاوة اللائقة بمكانته المحترمة، وقد وصل

1) الطيب الساسي (1892 ـ 1953) أديب حجازي من مشايخ الصحافة في العهد الهاشمي والسعودي، وهو من أصل مغربي، ولد وتعلم بالمدينة المنورة، ولما قام الشريف حسين بالثورة سنة 1916 في مكة تسلل الطيب رفقه أبيه إليها وتولى ادارة المدرسة الرامية. كما آلت إليه ادارة الجريدة الرسمية القبلة وتحريرها. كان من كتاب افتتاحيات الجريدة مع امضائها بقلم الملك حسين، واذا حان موعد خروج العدد إلى المطبعة حمله الطيب إلى الملك ليلا لكي يصححه. وبعد الثورة الشريفية سافر الساسي إلى حضر موت والهند واندونيسيا لكنه عاد إلى الحجاز واكرمه الملك السعودي عبد العزيز، وعينه في مجلس المعارف وولاه ادارة الجريدة الرسمية « أم القرى »، إلى ان توفي في حادث سيارة سنة 1953.
للمزيد انظر : خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الاعلام، ج 3، ط 5 (دار العلم للمراسين 1981) ص 234.
2) جريدة عصا موسى، عدد 2، السنة الأولى، 20 جويلية 1950.

إلى العاصمة لأداء العمرة فاستقبل بالترحيب والتكريم، وبعد ان أتم نسك العمرة تشرف بمقابلة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل، فلقي من عواطف سموه النبيلة ومكارمه الجليلة ماملأ قلبه غبطة وحبورا وبهجة وسرورا. وسيتوجه فضيلته إلى المدينة المنورة لزيارة مسجدها النبوي الشريف وصلة ذوي قرباه هناك ثم يتوجه إلى مصر ومنها إلى الجزائر (1).

وخلاصة القول، برغم ماقيل حول اهتمامات العقبي بقضية فلسطين وبعض التأويلات حول سفره إلى شرق الأردن في ربيع 1950، الأان ذلك العمل من الرجل يجسد حقيقة القضية العربية والاسلامية في برنامج اصلاحه، بل ان الرعيل السالف من علمائنا ورجال السياسة جعلوا من القضية الفلسطينية أولى الأوليات وتم تفضيلها على حساب القضية الجزائرية انذاك برغم انها كانت في آمس الحاجة هي كذلك إلى الدعم المادي والمعنوي، وكل ذلك يعكس بعمق الجدل الثقافي والحضاري للجزائريين مع اخوانهم المشارقة. كما ان اهتمام العقبي بالقضية الفلسطينية أفاد كثيرا تقارب وجهات نظر الأحزاب السياسية ورجالات الحركة الاصلاحية مع بعضهم البعض، وقد تجسد ذلك في اللقاءات العديدة التي جمعتهم والتي آلت إلى تأسيس اللجنة العليا لأعانة فلسطين والتي قدمت الخدمات الجليلة للاجئين، ومنذ ذلك التاريخ والمعضلة الفلسطينية في وجدنان الشعب الجزائري ومانزال حتى اليوم.

---

1) جريدة عصا موسى، عدد 2، السنة الأولى، 20 جويلية 1950.

الأستاذ/ عبد الرحمن شريط

تجربة المغرب فيزيون، صورة من صور اتحاد المغرب العربي

نبذة عن حياة السفير عبد الرحمن شريط

عبد الرحمن شريط من مواليد 1931 تلقى تعليمه الثانوي والجامعي بتونس وباريس. عين في سنة 1966 مدير الشؤون العربية بوزارة آنتر الخارجية.

عين في سنة 1966 أمينا عاما لوزارة التربية. عين في سنة 1970 مديرا عاما للاذاعة والتلفزة الجزائرية.

عين في سنة 1978 سفيرا للجزائر لدى العراق ثم ايطاليا ثم الأردن.

تجربة المغرب فيزيون صورة من صور اتحاد المغرب العربي

بدأت تجربة « المغرب فيزيون » سنة 1972 على اثر زيارة قمت بها إلى تونس للاطلاع على سير الاذاعة والتلفزيون في هذا البلد الشقيق خاصة وأنه كانت تربطني بمديرها العام الأخ محمد بن سماعيل روابط متينة يرجع عهدها إلى سنوات الثورة. وذلك بعد مرور سنتين على تعييني على رأس الاذاعة والتلفزيون الجزائرية.

وجاءت الفكرة عندما كنا نتحادث بشأن ماتستفيده المؤسسات الجزائرية والتونسية من تبادل انتاجهما التلفزيوني على الأخص حين يصير مجموعهما شيئا يذكر في نطاق البرامج المعروضة على المتفرجين في كلا القطرين.

وقررنا عرض الفكرة بأسرع وقت على ادارة التلفزة والاذاعة المغربية لكي تنضم إلى انجاز الخطوات الأولى من هذا المشروع الطموح وحظيت الفكرة بالترحيب الحار بالرغم من عدم توفر الشبكة اللاسلكية التي تعتمد عليها فكرة « المغرب فيزيون » ذلك أنه اذا كان بالامكان تبادل البرامج المسجلة فإن الشيء الجديد في المشروع هو توفر الوسائل التقنية التي تسمح ببث البرنامج الواحد في الأقطار الثلاثة في نفس الوقت. ولهذا السبب فإن الاجتماع العام الذى انعقد بالجزائر في 9 و 10 فيفري 1973 بحضور المديرين العامين الثلاثة قرر توجيه العناية الفائقة إلى تدعيم الوسائل التقنية لربط الشبكات الثلاثة سواء بالنسبة للصورة أو الصوت، وطلب من الادارات التقنية أن توجه عنايتها إلى استكمال الخطوط والاسراع بانجاز المشاريع المسطرة داخل كل قطر من الأقطار بإضافة مايدعم ربطها بجارتها، وقد امتد تنفيذ هذا البرنامج التنفيذي إلى سنة 1975م.

كما تم الاتفاق على اجراء دورات منتظمة لاجتماع المسؤولين المغاربيين على مختلف المستويات.

هناك اجتماع سنوى على مستوى المديرين العامين وينعقد فى احدى العواصم.

وهناك اجتماع اللجنة المشتركة مرتين في السنة على مستوى الخبراء والمديرين المكلفين بالاذاعة والتلفزة والشؤون التقنية.

أما جدول الأعمال فيتناول الأبواب التالية :

1 ـ **الشؤون التقنية** : وأهمها تدعيم وتحسين الشبكات الثلاثة وربطها بين بعضها.

2 ـ **تبادل البرامج** : ويتفرع هذا الباب بطبيعة الحال إلى فرعين :
فرع البرامج التلفزيونية وفرع البرامج الاذاعية.

والملاحظ هنا أن المسؤولين حرصوا أشد الحرص على أن لاتهضم التلفزة حقوق الاذاعة.

فهناك البرامج المسجلة كما هي العادة بين الهيئات الاذاعية والتلفزية وهناك وهو المستجد ـ في منطقة المغرب العربي البرامج المذاعة على الهواء أو مباشرة وهذا ماتعنيه قبل كل شيء عبارة « مغرب فيزيون ».

البث المباشر يتناول السهرة الفنية المباشرة من احدى العواصم الثلاث وهي عبارة عن سهرة تنظمها التلفزة المرسلة وشيئا فشيئا اتخذت هذه المناسبة طابع التعريف بالفن المغاربي والمنافسة النظيفة بين التلفزات المغاربية في الاتيان بالجديد والسعي إلى نيل اعجاب الجماهير في الأقطار المغاربية. وهو ماحدا بالفنانين على الخلق والابداع ومما شجع على اكتشاف مواهب جديدة في داخل الأجيال الصاعدة المثقفة ومتشبعة بلغتها وتراثها العريق الأصيل، وهناك العديد من الفنانين الذين ابرزتهم هذه السهرات المغاربية.

اضافة إلى برنامج السهرة الشهرية هناك ماسمي. ببرنامج « اليكم الخط » وهو برنامج شهرى أيضا يتضمن انتقال المذيعة التونسية أو الجزائرية أو المغربية إلى العواصم المغاربية لتقديم سهرة منوعة تتألف من مختلف البرامج الفنية والوثائقية والثقافية والمسرحية للتعريف بمختلف أوجه الحياة في البلد المنتج لتلك السهرة.

وأما البرامج المسجلة فهي تتناول أفضل ماتصطفيه الهيئات التلفزية من انتاجها الوطني في شتى المجالات الثقافية والسياحية والتاريخية والأدبية.

وقد حاول المسؤولون في الأقطار الثلاثة تنويع البرامج المتبادلة المسجلة أو المبثوثة مباشرة بحيث لاينالها الملل.

وهكذا قررنا في اجتماع ديسمبر بتونس أن يتضاعف تبادل البرامج الموجهة للأطفال فتنمي فيهم الروح المغاربية وتخاطبهم بلغتهم العربية حتى يقضى شيئا فشيئا على مخاطبتهم باللغة الأجنبية.

وتتناول البرامج السياسية إحياء الأعياد الوطنية في 3 مارس (المغرب) و 1 جوان (تونس) و 1 نوفمبر (الجزائر) كما تتناول الأنباء العامة في ربورتاجات تتبادلها أسبوعيا التلفزات الثلاث ونظرا إلى قوة التأثير بالصورة فقد اقترح المسؤول تبادل أشرطة قصيرة لاتتجاوز خمس دقائق عن المناظر الطبيعية والآثار للتعريف بالصورة فقط.

وامتدت الاقتراحات إلى الانتاج المشترك في ميدان المسلسلات والتمثيليات بمناسبة شهر رمضان الذي يمثل أصعب فترة في السنة بالنسبة للمبرمجين حيث أن الاستهلاك في هذا الشهر يتضاعف مثلما يتضاعف الاقبال على الأكل.

وفي تلك الدورة لاجتماع المديرين العامين تقرر إنشاء برامج لمناظرات تجري حسب الجدول التالي :

في 1975 : مناظرة حول الفلم الوثائقي بالجزائر.
في 1976 : مناظرة حول المسلسل الغرامي بالرباط
في 1977 : البرامج الموجهة للاطفال بتونس.
في 1978 : مناظرة حول الأفلام التلفزيونية بالجزائر.

ولاننسى بطبيعة الحال الميدان الرياضي الذي يحظى بالحصص المسجلة أسبوعيا وبالبث المباشر بمناسبة نهائيات البطولة أو الكأس في الأقطار الثلاثة أو المقابلات المهمة مع الفرق الأجنبية أو بتنظيم الدورات الدولية على جميع المستويات العربية والافريقية والمتوسطة وغيرها.

ومن الطبيعي أن هذه المبادلات تتناول مختلف الرياضات والأنشطة الرياضية والمسابقات، ونظرا لاهتمام المسؤولين بموضوع اللغة التي نستعملها في برامجها وقلة انتاجها بهذه اللغة فقد قرر المسؤولون البحث عن وسائل بشرية وتقنية لدبلجة مختلف الأفلام والمسلسلات والبرامج الموجهة على الأخص وفي هذا الصدد سعينا في ذلك الوقت إلى توجيه وسائل الانتاج من بشرية وتقنية إلى هذا الميدان في الأستوديوهات الجديدة التابعة لمحطة وهران.

كما تقرر الشروع في انجاز برامج مشتركة تتناول مشاهير المغرب العربي والتعريف بكل قطر من الأقطار الثلاثة على يد مخرجين تعينهم المؤسسة الأخرى فكلفت التلفزة التونسية بأرسال وحدتها الانتاجية الى الجزائر - وكلفت التلفزة الجزائرية بالانتقال إلى المغرب كما ترسل التلفزة المغربية منتجيها إلى الجمهورية التونسية.

وكما لاحظت سابقا فإن هذا المجهود لم تنفرد به التلفزة حيث أن ادارات الاذاعة في الأقطار الثلاثة بذلت أقصى المجهود لاشاعة هذه الروح المغاربية على

الأمواج بما توفره من سهرات مشتركة بين مختلف الأوساط الفنية والثقافية الجزائرية والمغربية والتونسية ونشأت أو تعززت روابط قوية وعميقة بين الكتاب والمؤرخين والمسرحيين والفنانين في الأقطار الثلاثة.

وصار ربط الشبكات الادارية حول موضوع واحد عبر البث المباشر يتجدد مرة في الشهر.

كما أن هناك برنامجا آخر يسمى « اليوم المغاربي » هو أن تستقبل إحدى الاذاعات عددا من المذيعين والمذيعات لبث برنامج الاذاعة الموحدة طيلة اليوم باستثناء نشرات الأخبار.

ونظرا لسهولة العمل المشترك في الميدان الاذاعي فإن الانتاج يتناول مختلف الحياة الاعلامية والثقافية والرياضية والفنية.

وهناك مجال العلاقات الخارجية أي علاقات المؤسسات المغاربية بغيرها من المؤسسات الأجنبية والانجازات الدولية والشركات التجارية لتسويق الأفلام والمسلسلات.

فتقرر تنسيق المواقف بالنسبة لاتحاد الاذاعات الأوروبية التي تتولى تموين المؤسسات باللالات والتي تلعب دورا مهما في ميدان الأخبار المصورة اليومية وبث المقابلات الرياضية الدولية حيث تبلغ تكاليفها مستويات تفوق امكانياتنا اذا بقيت موزعة.

وبالنسبة لشركات التسويق ايضا تنخفض التكاليف اذا اتفقت التلفزات الثلاث على شراء نفس المنتوج بسعر يتم عليه التشاور.

المهم في هذه التجربة العزيزة على نفوس كل الذين ساهموا في بعثها على ماأعتقدا هو الجو العائلي الذي نشأت وازدهرت فيه، فإني لم أشعر شخصيا على الرغم من عدد الاجتماعات التي اشتركت فيها خلال تنقلي بين الخارجية والتربية والاعلام. لم أشعر بمثل تلك العواطف التي ربطت بين مختلف أفراد الوفود الممثلة للاذاعة والتلفزة المغاربية طيلة السنوات التي عاشتها التجربة.

أظن أن هذه التجربة جرت في صفاء قل أن يتوفر في علاقات تعتبر أجنبية عن بعضها ولعل أهم سبب لتفسير هذا الصفاء يرجع إلى خلوها من المصالح المادية وتمتعها بثقة المسؤولين السياسين في الأقطار المغاربية الثلاثة لذلك فإن أي مغاربي يؤمن بإخلاص بالفكرة المغاربية لايسعه إلا أن يتمنى انبعاث إتحاد المغرب العربي سياسيا قبل أن تتحرك أجهزة المجلات الأخرى في جو من الأخوة الصادقة والعمل الجاد لتجسيد هذا الهدف الذي ظل يمثل أجيالا من الزعماء السياسين الذين ناضلوا من أجل تحرير بلداننا.

ولايفوتني أن أحيي بهذه المناسبة ذكرى أخواني المديرين العامين الذين تعاقبوا على الاذاعة والتلفزة التونسية والاذاعة والتلفزة المغربية الذين تجمعنا بهم مشاعر التقدير والوفاء لتلك المهمة النبيلة.

ولم يتوفر لنا في تلك السنوات أسباب الالتقاء عبر الأثير بإخواننا في ليبيا وموريطانيا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(المصادر والوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول والقرنان 16 و 17)

من القضايا التي تشغل بال المفكرين العرب اليوم قضية اعادة كتابة التاريخ العربي وفهمه فهما قوميا بعيدا عن كل تأويلات استعمارية أو اديولوجية. . . ومن الشروط الاساسية الأولى التي تفرض نفسها على الباحث، اذا أراد التفكير في مثل هذا العمل، توفره على الوثائق والمصادر اللازمة أولا، وقراءته لتلك المصادر قراءة جديدة نقدية ثانيا، واعتماده منهجا علميا وحينما يأخذ بعين الاعتبار النتائج التي توصلت اليها اليوم العلوم المساعدة للتاريخ ثالثا.

وإذا كان المطلب الأول هو الذي سيشغلنا في هذا العرض المتواضع، فهذا لايعني أن المطلبين الآخرين قد تمت معالجتهما، أو أننا في غنى عن الخوض في البحث فيما يطرحانه من مشاكل، لا بالنسبة لتاريخ الجزائر العثمانية وحدها بل بالنسبة لتاريخ كل دولة من الدول العربية. . .

ومما يبرر الحديث عن الوثائق والمصادر المغربية المتعلقة بالتاريخ الجزائري في العهد العثماني الأول، ماكان بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وفكرية، ليس في تلك الفترة فحسب بل قبلها وبعدها كذلك. . . إلى اليوم.

فتاريخ بلدان الشمال الافريقي ارتبط بظروف متشابهة ومتقاربة منذ العهود القديمة، فكل حديث عن بلد من بلدانه إلا وكان حديثا غير مباشر عن البلد الآخر، فتعاقب الدول على حكم جهة من جهاته كان دائما يؤدي إلى اشراك الجهة الأخرى المجاورة بشكل آو بآخر. . . مما كان ينتج عنه مراسلات ومشاورات في السياسة أو في الفكر أو في غيرهما من الميادين.

وقد يبين البحث والتحري في مكتبات ودور وثائق كل بلد من بلدان الشمال الافريقي (أو المغاربي) ضخامة وكثرة الانتاج الذي أفرزته هذه العلاقات وتلك المشاورات بين رجال السياسة أو بين رجال الفكر من وثائق وكتابات . . . وذلك ماسيكون موضوع حديثنا في هذا البحث.

•

ان الحديث عن الوثائق والكتابات التي أفرزتها العلاقات المغربية الجزائرية خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين بفترة الالمام - على الأقل - بالخطوط العريضة للظروف العامة (السياسية والاجتماعية بالخصوص) التي كان البلدان يعيشانها خلال تلك الفترة.

ويمكن تلخيص ماتذكره كتب التاريخ حول هذه الفترة فيمايلي :

- أولا عرف المغرب والجزائر مع بداية القرن السادس عشر (منذ 1415 بالنسبة للمغرب) هجمة مسيحية قادتها دولتا اسبانيا والبرتغال وتم خلالها احتلال عدد من الثغور على سواحل البلدين، حيث احتل البرتغال موانيء المغرب الأطلسية، كما احتل الاسبان أغلبية موانيء المغرب الأوسط . . . وليس هذا مجال استعراض لتلك الأحداث ولا أسبابها ولا لمراحلها، فتلك قضية أخرى . . . ولكننا نؤكد هنا على أن هذه الحملة الشرسة وجدت أمامها بلداننا تتخبط في مشاكل سياسية (ضعف السلطات المركزية) وفي مشاكل اقتصادية (أزمات انتاجية، مجاعات وأوبئة) وفي مشاكل اجتماعية (دخول عدد من القبائل المستقرة في مرحلة جديدة من التنقل والترحال، تراجع التمدن . . .) الشيء الذي لم يمنع البلدان المغاربية هذه من البحث عن مقاومة تلك الهجمة.

فكثرت النداءات إلى الجهاد وتعدد المشايخ وانتشرت الزوايا والأضرحة يدعو أربابها إلى التشبث بالاسلام القويم وبالبلاد الحرة . . .

- ثانيا : استمرت هذه الظروف إلى حين ظهور قوتين في كل من المغربين الأوسط والأقصى : تمثلت القوة الأولى في الأخوين عروج وخير الدين في المغرب الأوسط. وقد حملا راية الجهاد ضد الاسبان المسيحيين، وكلنا يعرف الأحداث التي ترويها كتب التاريخ عن تلك المرحلة من تاريخ الجزائر.

وتمثلت القوة الثانية في أسرة الاشراف السعديين في المغرب الأقصى، ويكفي الرجوع إلى كتب الحوليات المعاصرة للوقوف على تاريخ حكمها في المغرب، وتاريخ قيادتها للجهاد في أقصى غرب العالم العربي الاسلامي . . .

ثالثا : - ومن جانب آخر لقد أفرزت كل هذه الظروف حركة فكرية عارمة في كل بلدان الشمال الافريقي تمثلت في ظهور وانتشار حركة الزوايا والمشايخ والمتصوفة، تلك التي تولد عنها انتاج فكري مكتوب، قلما عرفته بلدان المغاربة قبل وبعد تلك الفترة . . . لقد تعددت الكتابات وتنوعت فالى جانب الانتاج الكلاسيكي المرتبط بالعلم والعلماء فقد تطور انتاج من نوع آخر وتشعبت مجالاته، فتعددت المراسلات والرحلات وتنوعت، واجتهد رجال السياسة في انجاز أعمال بقيت إلى اليوم محل اهتمام، ليس فقط المؤرخين بل كذلك رجال الأدب والفكر . . .

فبدون دراسة كل هذا الانتاج الفكري والسياسي لايمكن فهم تاريخ بلداننا، ومن هنا تنبثق أهمية استعراض الامكانات التي توفرها تلك المصادر للباحث في تاريخ بلدان المغاربة، وبالتحديد بلاد المغرب الأوسط الجزائر.

عندما يتتبع الباحث بأناة محتوى مايوجد في دور الوثائق والخزانات المغربية من مصادر ووثائق يلاحظ المكانة البارزة التي تحظى بها بلاد الجزائر في سياق حديث أصحاب تلك الوثائق أو الكتب، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فإن جل المصادر المغربية التي دونت خلال ذلك العصر تقدم معطيات تفيد في فهم تاريخ المغرب الأوسط. ويمكن تصنيف تلك الوثائق والمصادر في مجموعتين :

المجموعة الأولى خاصة بالوثائق أو المراسلات، والمجموعة الثانية خاصة بالكتب.

1 ـ المجموعة الأولى : الوثائق.

لقد أفرزت أحداث العصر كمية هائلة من الوثائق والمراسلات نتيجة لما اكتساه الشمال الافريقي من أهمية في الاستراتيجية الدولية، حيث أن انتقال مركز القوة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي جعل كل الامبراطوريات والممالك والدول تحاول أن تجد لها مجالا في هذه المنطقة. فالاسبان والبرتغال من جهة والعثمانيون من جهة ثانية... كل منهم حاول بطريقته الخاصة أن يبسط نفوذه على المنطقة. وكل منهم أرسل سفارات وممثلين تجاريين له بل وجواسيس إلى كل من المغرب والجزائر... فتعددت المراسلات والتقارير والزيارات من كل جهة وقد خلف كل ذلك أعدادا من الوثائق والمستندات منها ماهو بالعربية ومنها ماهو باللغات الأخرى : التركية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والانجليزية.. وأغلبها في تاريخ المغرب الأقصى والأوسط على حد سواء. ومن المؤسف أن لانجد الا القليل من تلك الوثائق في الخزانات المغربية.

1 ـ في الخزانات المغربية :

لانجد في مستودعات الوثائق المغربية (الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط وخزانة القرويين بفاس وخزانات تطوان وطنجة وتامقروت والمصبحية وغيرها) إلا بعض تلك المراسلات، حيث نجد قسما منها داخل نصوص فقهية أو أدبية أو مصنفة في مجموعات لاعلاقة لها بتلك الوثائق... بينما يوجد القسم الأكبر من تلك الوثائق خارج المغرب في خزانات الدول التي كانت لها علاقات مع المغرب... ومن أهم المجموعات الوثائقية التي يرجع تاريخها إلى القرنين 16 و 17م تلك المجموعة

التي تحمل عنوان « رسائل سعدية » والتي تتحدث كل الرسائل المدرجة ضمنها عن علاقات المغرب بالجزائر وبالقيادة العثمانية.

وتشمل هذه المجموعة الموجودة بالخزانة العامة بالرباط (تحت رقم 279) أهم المراسلات التي تمت بين السلطان المنصور الذهبي (1578 ـ 1903) والسلطات العثمانية بالجزائر وبالقسطنطينية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. وقد تم نشر قسم منها على يد الأستاذ عبد الله قنون في كتاب بنفس العنوان ولايزال قسم كبير منها مخطوطا.

ومن بين الرسائل التي يحتوي عليها هذا المجموع مايلي :

ـ رسالة من الخليفة المنصور إلى السلطان مراد خان (أواخر 989) في موضوع الفئة الصوفية الخارجية الرافضة (ص 23 من الكتاب)، وفي موضوع الجهاد... ص 24).

ـ رسالة الباشا علوج (ص 68)

ـ رسالة من المنصور إلى بعض باشات الأتراك (ص 87) في موضوع الفقيه أحمد بن عبد الجليل.

ـ رسالة عنه إلى بعض باشات الجزائر إلى الوزير سنان باشا، وهي تعزية على وفاة السلطان مراد خان أوائل عام 1004 هـ.

ـ رسالة عنه إلى صاحب الجزائر (ص 142) في موضوع ابن القاضي صاحب كوك وصلة بدبيد الطاغية.. والرغبة في وحدة الهدف.

ـ رسالة أخرى إلى صاحب الجزائر في موضوع ثورة بب الشيخ (ص 168).

ـ رسالة عنه إلى بعض باشات الأتراك (ابراهيم باشا في موضوع اعادة العلاقات...

ـ رسالة إلى صاحب الجزائر (سليمان باشا) (ص 183) جوابا على رسالة في موضوع ثورة الشيخ المامون....

- رسالة من المنصور إلى بعض وزراء الأتراك حول موضوع الأخبار التي جاء بها أبو العباس التاجر أحمد الماسي (ص 197).

- رسالة إلى جيش الجزائر في موضوع الوكيل ميمون المسفار الجزائري الذي التجأ إلى المنصور ليتوسط له مع القيادة العثمانية في الجزائر (ص 247)... على أنه تم أخيرا اكتشاف مجموعتين أخريين من الرسائل السعدية : الأولى بالخزانة الحسنية، والثانية في ملك خاص. ومن المفيد الاشارة إلى أن ماتحتوي عليه هاتان المجموعتان الأخيرتان من رسائل هو غير مايوجد في مخطوط الخزانة العامة (ص 278) ولا في مانشره الأستاذ عبد الله قنون.

ب - في الخزانات الأوربية :

إلا أن أغلب الوثائق والمراسلات، التي تمت بين السلطة المغربية آن ذاك (السعدية) والدول الأوربية والاسلامية، توجد خارج البلاد، ذلك أن نصوص التقارير التجارية والسياسية والمعاهدات والاتفاقيات التي أفرزتها تلك العلاقات توجد على التوالي بدور الوثائق الاسبانية بسيماكاس ( ) قرب بلاد الوليد ( )وباشبيليا ومادريد، وبالبرتغال بخزانة لشبونة لا طوري دوطومبو ( )وبرفرنسا بالخزانة الوطنية ( ) بباريس، وبانجلترا بوزارة الخارجية ( ) وبهولاندا.... كما أن قسما لايستهان به من تلك الوثائق يوجد بخزانات اسطمبول...

وقد نستخلص من تتبع تلك الوثائق معلومات كثيرة ومتعددة حول بلاد الجزائر على أساس أن جل المراسلات التي تمت خلال تلك المرحلة تنطلق من ثلاثي سياسي، تتمثل أضلاعه في القوات الثلاث : العثمانيون المتواجدون بالجزائر والسعديون بالمغرب والمسيوحيون الأوربيون. وكل حديث عن العلاقات المغربية الأوربية لايمكن أن يكون كاملا إلا اذا أخذ بعين الاعتبار الجانب الثالث في ميزان القوى بالمنطقة.

وهكذا جاءت كل الوثائق المغربية المعروفة اليوم، والتي يرجع الفضل في نشرها وتحقيقها إلى دوكاستر وأتباعه (دوسينيال وريكار ودولافيرون....) في مجموعة تحمل عنوان ( )، جاءت غنية بالمعلومات حول بلاد المغرب الأوسط. يكفي الرجوع مثلا إلى المجموعة الاسبانية ( ) المكونة من ثلاثة مجلدات لنجد رسائل مختلفة تبودلت بين الغالب السعدي والقيادة العثمانية بالجزائر، أو بين الغالب والكونت دي الكوديت ( ) ( ).... أو إلى المجلدات الثلاثة المتعلقة بالعلاقات المغربية الانجليزية، أو إلى المجلدات الثلاثة التي تستعرض العلاقات بين المغرب وفرنسا....

فتوجد ضمن هذه المجلدات المئات من الوثائق تتحدث عن تاريخ بلاد الجزائر : عن تلمسان وعن وهران، عن الجزائر وعن بونة وغيرها من المدن التي كانت تلعب أدوار طلائعية في العلاقات الدولية آن ذاك.

ومن جهة أخرى يجب التأكيد على أن ماقدمته لنا هذه المجلدات التسعة عشر (19) لايمثل الا قسما ضئيلا مما تحتويه صناديق الوثائق والمستندات التي لايزال الغبار يتراكم عليها في دور الوثائق الأجنبية.

1 - المجموعة الثانية : الكتب

إلى جانب تلك الوثائق المتمثلة في التقارير والمراسلات السياسية والتجارية، هناك مصادر أخرى مغربية لها أهميتها في فهم تاريخ المغرب الأقصى والأوسط على حد سواء وهذه المصادر هي كتب الحوليات أولا وكتب الرحلات ثانيا وكتب التراجم ثالثا وكتب الفقه رابعا.

أ ـ كتب الحوليات :

ان ماتفضيه كتب الحوليات، التي انجزت خلال هذه المرحلة التاريخية (قرن 16 و 17)م، من معلومات سياسية خاصة تتمم ماجاء متقطعا في المراسلات والتقارير حول تاريخ الجزائر أو حول تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية : منذ عهد الأخوين عروج وخير الدين من جهة وأحمد لوطاسي من جهة ثانية إلى أواسط القرن السابع عشر أي نهاية الدولة السعدية بالمغرب وبداية فترة صعبة بالنسبة للقيادة العثمانية ببلاد الجزائر.

ومن أبرز تلك المصادر ثلاثة كتب :

ـ الأول « مناهل الصفاء في ماثر موالينا الشرفاء » لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي.

ـ الثاني « تاريخ الدولة السعدية الناثمدرية » لمؤرخ مجهول.

ـ الثالث « نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي » لليفراني.

واذا كان ماتذكر تلك الكتب عن بلاد الجزائر متواضعا بالنسبة لما تذكره عن بلاد المغرب فإن هذا لايمنع الباحث في تاريخ المغرب الأوسط من الاطلاع عليها، والاستفادة مما تذكره عن العثمانيين (عن الجزائر وفي القسطنطينية) على أساس أن المخاطب العثماني المباشر للمغرب آن ذاك، كان هو باشا الجزائر.

وقد أورد الغشتالي مثلا كل المعلومات المتعلقة بما عرفته العلاقات العثمانية المغربية (عبر الباشوية الجزائرية) خلال عهد المنصور الذهبي (1579 ـ 1603) والظاهر من خلال ماذكره الغشتالي أن المغاربة كانوا يتتبعون باستمرار مايجري عند جيرانهم وأنهم لم يفقدوا الأمل، كما يقول صاحب النفحة المسكية (النامكروتي)، في أن يزوا انعتاق بلاد الجزائر من السلطة العثمانية. . .

ـ أما المجهول صاحب تاريخ الدولة السعدية التاكمدتية فإنه يؤكد على رهانة العلاقات بين السلطة المغربية والباشوية الجزائرية من جهة، كما يشير إلى مسألة السباق بين الأدارتين حول استجلاب الطرق التجارية الآتية من السودان الغربي والمتجهة نحو الشمال الافريقي.

ويبقى أن مواقف هذا المؤرخ المجهول الاسم ـ في كل مايذكره ـ مواقف تطبعها سمات المعارضة والنقاش لكل ماكان سعديا. . . وتلك قضية أخرى.

ـ أما اليفراني صاحب النزهة فقد عاش في عهد المولى اسماعيل وتوفي مع بداية القرن الثامن عشر، بمعنى أنه لم يعاصر جل الأحداث التي يرويها عن السعديين، لكن الفائدة من مثل هذا الكتاب في فهم تاريخ المنطقة في القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد تمكن في استقصائه واستيعابه لجل أخبار العصر عبر مصادر لم يعثر إلا على القليل منها، حيث أنه لولا هذا الكتاب لضاعت منا تلك المصادر، وجهلنا حتى عناوينها. . .

فصاحب النزهة خصص قسما هاما من كتابه للعلاقات المغربية ـ العثمانية، وبالتالي فقد أشار في معرض حديثه عن ايالة الجزائر ـ كما يسميها ـ إلى ادارتها وإلى علاقتها بالباب العالي، كما أثار مسألة العلاقات المغربية مع باشوية الجزائر، وماكان يمكن أن ينتج عن وحدتها من قوة لمواجهة الحملة المسيحية. . .

على أن تتبع ماجاء في كل هذه المصادر يقدم لنا جملة من المعلومات السياسية والدبلوماسية بالخصوص :

ـ أحداث جمعت بين البلدين

ـ أحداث عرفتها بلاد الجزائر

ـ معطيات حول السلطة العثمانية بالجزائر وطريقتها في الحكم. . .

ـ معطيات حول الادارة المحلية.

هذا إلى جانب مايمكن أن يستفاد من دراسة الخطاب المعتمد عند الكتاب المغاربة في حديثهم عن بلاد الجزائر تحت السلطة العثمانية . . .

ب ـ كتب الرحلات :

اذا كانت هذه المصادر ـ كتب الحوليات ـ لاتقدم لنا مايسمح بالاطلاع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، فإن مصادر أخرى ـ تهتم بالوصف أكثر من الرواية ، وتجعل الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري يجد مايرضيه ، وهذه المصادر هي كتب الرحلات .

ومن أشهر كتب الرحلات المعاصرة لهذه الفترة والتي يأتي فيها ذكر بلاد المغرب الأوسط ثلاثة كتب يعرفها الباحثون الذين ينصب اهتمامهم على تاريخ الشمال الافريقي خلال مرحلة بداية العصر الحديث .

ـ أولها كتاب « وصف افريقيا » للحسن الوزان (ليون الافريقي) .

ـ ثانيها كتاب النفحة المسكية في أخبار السفارة التركية للنامقروتي

ـ ثالثها كتاب « ماء الموائد » « أو الرحلة العياشية » للعياشي .

ويعتبر أصحاب هذه الرحلات من أشهر ماكتبوا في هذا النوع من الآداب ، ومن أحسن من قدم وصفا مفيدا لكل من أراد الاطلاع على أوضاع بلاد الجزائر على العهد العثماني الأول .

ـ فالوزان ـ وكما يعرفه جميع الباحثين ـ عاش بالاندلس قبل أن يستقر بمدينة فاس . . وقد تحول عبر بلاد السودان ومصر وبلدان الشمال الافريقي ، وبالتالي فإن ماذكره عن تلك البلاد غني بمعلومات شاهد عيان ، عايش الناس والجيوش والامراء في بداية القرن السادس عشر . وذكر الكثير عن القرى والمداشر الجزائرية

قبيل الاحتلال الاسباني والعثماني . . . فقد أعطى معلومات مفيدة حول المزروعات ، فمثلا ذكر توفر القمح في كل من مستغانم وتنس وقسنطينة وعنابة والجزائر ، لأن كل هذه المدن ـ كما يقول الوزان ـ محاطة بأراضي جيدة صالحة لأنتاج الحبوب خاصة سهول متيجة (ج 2 ص 37) « التي ينبت بها قمح جيد بكثرة » . كما يذكر كثرة استهلاك اللبن ومشتقاته في بونة ، تلك المدينة التي كانت تستقبل السفن الآتية من تونس وجربة ومن جنوة والقسطنطينية . . . (ص 61 ـ 66) .

ـ أما التامقروني فقد شارك في رحلة رسمية قادته ـ مع الهوزالي ـ إلى الديار العثمانية وفي طريقه إلى الباب العالي مر عبر بلدان شمال افريقيا كلها إلى برقة . . . واصفا كل المناطق التي زارها ، ذكرا الأشياخ والعلماء الذين التقى بهم أو الذين زار قبورهم وآضرحتهم يقول « وسمعنا من لقيناه بها من الفقهاء وروينا عنهم وكتب لنا بعضهم بخط يديهم وتبركنا بها . . . » وقد ذكر مثلا أنه زار مدفن أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي (ص 139) ومدفن أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزيري . وقال عن المساجد التي صلى بها مثل مسجد هنين ومرسى القل وبونة والجزائر (ص 13 ـ 24 ـ 55 . 139) « كلها عامرة بالذكر والتلاوة . . . »

وقد انتبه التامغروتي كذلك إلى جوانب أخرى من حياة سكان بلاد المغرب الأوسط حيث أشار في رحلته إلى زراعة القمح بناحية شرشال : « وقد كان القمح يكثر بشرشال إلى درجة انها كانت تبيعه » (ص 14 ـ 69 ـ 70) ، كما أشار إلى زراعة القطن قرب مستغانم (ص 52) . . . وإلى الكميات الكبيرة من لحم البقر التي تتوفر بمدينة بونة إلى درجة انها تصدرها إلى القسطنطينية ، (ص 24) ، ثم إلى انتاج الالبان ومشتقاتها مما جعل السفن المارة بجوارها من والى تونس وجربة وسائر السواحل بشمال افريقيا ، وكذلك السفن الآتية من جنوة قصد التجارة . . .

ومن الأسواق يذكر التامقروتي عن الجزائر أنها « أكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأجود سلعة ومتاعا حتى أنهم يسمونها اسطنبول الصغرى (ص 139) . لكن الواضح من كلام

صاحب النزهة أن موانىء بلاد المغرب الأوسط كانت قد تأثرت كل التأثر باستيلاء الأتراك عليها، حيث خربوها وأضعفوا تجارتها. . .

- أما رحلة العياشي فتكمن أهميتها في أن صاحبها زار البلاد التي يتحدث عنها في رحلته ثلاث مرات :

- الأولى في عام 1649 وكان عمره لايتجاوز اثنتين وعشرين سنة،
- الثانية في عام 1653 وهو ابن السابعة والعشرين،
- الثالثة في عام 1661 وكان عمره خمسة وثلاثين سنة.

اهتم بكل ماشهده من أحداث ومآثر، وسجل مناقشاته مع العلماء والأشياخ يذكر مثلا أنه التقى في تقرت بمحمد بن عبد الكريم التواتي (ج 2، ص 49 - 50)، وأنه اتصل في تفزاوة باحدى قراها (جمنة) بالفقيه محمد بن القاسم (ج 1، ص 53). وأنه زار عدة قبور للصالحين على الواجهة الصحراوية لبلاد المغرب الأوسط مثل قبر أبي الفضل ببسكرة (ج 2، ص 411)، وعدة مساجد كان الصالحون ينفردون فيها وينعزلون مثل مسجد سيدي محمد الصالح ببسكرة أيضا وورقلة (ج 2، ص 406)، وقد أبدى مجموعة من الملاحظات حول مستوى انتشار اللغة العربية والمعرفة الدينية. . . (ج 1، ص 460). واذا كان التامروتي قد زار قبر أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي، فإن العياشي قد التقى بأبي مهدي عيسى الثعالبي، وسمع عن الشيخ أحاديث كثيرة، ودارت بينهما مناقشات بخصوص مختلف القضايا العلمية والفقهية (ج 2، ص 2 إلى 9).

ومما يثير الانتباه من جهة أخرى أن العياشي تحدث في رحلته عن الزراعة والرعي وماكانت تنتجه أراضي المغرب الأوسط من حبوب وفواكه، وهو بذلك يقدم للباحث لوحة أخرى عن تلك البلاد يمكن بمقارنتها بما جاء به كل من الوزان والتامكروتي الوصول إلى نتائج مفيدة، ربما فسرت لنا عددا من القضايا السياسية والاقتصادية التي عرفها شمال افريقيا في تلك الأزمنة.

وليس هذا وحسب بل أن العياشي يطلعنا على بعض المظاهر الاجتماعية قليلا مانجد ذكرها في المصادر الأخرى، فقد ذكر مثلا ماكان يسببه الوباء من غلاء في الأسعار مما كان يعطل معه التجارة في الأسواق. ففي حديثه عن الأغواط (ج 2، ص 419) ذكر العياشي ماتخذه أهلها من اجراءات خوفا من تسرب الوباء إلى المدينة، ذكر انهم قرروا منع المسافرين من دخول المدينة، وحتى عندما اضطروا إلى البيع والشراء فإن أهلها لم يكونوا يفتحون أبواب منازلهم بل كانوا يدلون الزرع مثلا من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه. . . . وهذا الانكماش والانزواء - حسب العياشي كان سببا في ارتفاع الأسعار بالمدينة.

وبالحديث عن أهل وقلة تجدر الاشارة إلى مايذكر صاحب « ماء الموائد » حول طريقتهم في التبادل التجاري مع الأعراب، حيث اذا أرادوا الشراء من الأعراب الذين ياتون بمنتجاتهم فإنهم لايشترون مباشرة بل هناك قوم من الأعراب الذين يسكنون بالمدينة وأطرافها يلعبون دور الوسيط في عملية الشراء بين أهل المدينة وباقي الأعراب. . . وهذه ظاهرة يؤكدها كذلك العياشي عن هؤلاء السكان وهو يتحدث عن قضية من الأهمية بمكان ألا وهي قضية كراء الدواب وتأمين القوافل. يذكر العياشي عادتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى الأماكن المختلفة، حيث يلجؤون إلى رجال يعرفهم أغلب الحمالين، فمن احتاج إلى الكراء من أرباب الدواب وأرباب السلع أتى اليهم فيعقدون له الكراء مع صاحبه ويتكلفون بما قد يحدث من غدر من طرف الحمال. ويسمي أحد هؤلاء « المخرج » حيث لايمكن عقد كراء الا بحضورهم، ويحصلون مقابل ذلك على « حلاوة » من كلا الطرفين.

ان مايقدمه لنا العياشي في رحلته حول ظروف العيش في المغرب الأوسط أيام الاحتلال العثماني كثير ومتنوع، ونظن أن الاطلاع عليه والاستفادة منه واجب على باحث في تاريخ هذه البلاد خلال ذلك العصر.

فصاحب « ماء الموائد » وكذلك صاحبا « وصف افريقيا » « والنفحة المسكية » يقدمون معطيات معينة للباحث في التاريخ الحضاري والاقتصادي من منظور معين كثيرا ماتكون الحاجة اليها لفهم ماتقدمه كتب الحوليات التقليدية . . .

جـ ـ كتب التراجم والوفيات والأنساب :

ـ ثمة نوع آخر من المصادر المغربية يستوجب استغلاله كذلك تكميلا لما جاء في كتب الحوليات ـ وكذلك كتب الرحلات، وهذا النوع هو الخاص بالتراجم. حيث يقدم هذا النوع من المصادر المغربية وحيدا هائلا أفرزه الانتاج المغربي خلال تلك الحقبة (القرنين 16 و 17م). وليس هذا مجال استعراض كل تلك الكتب التي تعد بالعشرات، والتي تذكر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ماعرفه بلاد المغرب الأوسط من أحداث فكرية واجتماعية وسياسية، ولهذا سنقتصر فقط على ذكر عناوين بعضها، على أن دراسة واسعة وعميقة لاستخلاص ماتذكره عن علماء وأشياخ بلاد الجزائر واجبة لمن أراد استقصاء كل المعلومات التي تحتوي عليها. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر عناوين بعضها فيمايلي :

ـ دوحة الناشر لابن عسكر الشفشاوني، ذكر فيه صاحبه تراجم علماء القرن العاشر الهجري.

ـ جذوة الاقتباس (لابن القاضي)، وهو كتاب في جزئين اهتم فيه صاحبه بذكر تراجم الاعلام الذين عاشوا بفاس، أكانوا من أهلها أم كانوا ممن زارها،

ـ نشر المثاني (محمد القادري) كتاب في ثلاثة أجزاء أنصب فيه اهتمام صاحبه على أعلام القرنين العاشر والحادي عشر الهجري.

ـ ممتع الأسماع (لمحمد المهدي النحاسي) ذكر فيه صاحبه أشياخ الشاذلية الجازوليين من أتباع الشيوخ الجازولي والتباع ومالهما من الأتباع (ق 10 و 11 هـ).

أما الكتاب الأول ـ الذي سنأخذه كنموذج لابراز ماتقدمه مثل تلك الكتب من معلومات تتعلق بالتاريخ السياسي والفكري لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن العاشر الهجري، فهو كتاب « دوحة الناشر » لصاحبه ابن عسكر.

لقد جاء ابن عسكر بذكر عدد من أسماء العلماء الذين كانوا ينتمون إلى المغرب الأوسط : منهم التلمسانيون ومنهم الليانيون والوهرانيون والقسنطينيون لكن أغلب علماء بلاد الجزائر الذين ذكرهم ابن عسكر ينتمون إلى تلمسان، بحكم الارتباطات الفكرية التي كانت تجمعها بمدينة فاس. . . ومنهم :

ـ أحمد بن محمد العبادي التلمساني المتوفي بتلمسان عام 931 هـ،

ـ وابنه أحمد بن أحمد العبادي التلمساني القادم إلى فاس عام ثمانية وستين في جملة فقهاء تلمسان لما رحلهم السلطان الغالب من تلمسان حين وقعت الفتنة بينهم وبين الترك واستغاثوا به، فأمذهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس ووصل كل منهم على قدر حاله، ووصله بألف مثقال ذهبا، وأمر له بكساء واقامة جليلة، وقال لاتسووه بأحد من الفقهاء وغيرهم فإن همته كبيرة. . . ورجع (في الأخير) منها إلى تلمسان واستقر أخيرا بمليانة. . . (ص 118)

ـ وعلامة زمانه أحمد بن زكري التلمساني صاحب « مكمل المقاصد » ممن يقتدى به في المشارق والمغارب وتعمل له الرحلة (ص 121). توفي بالطاعون بتلمسان سنة ست من العشرة الأولى (حسب الزركلي عام 988/1493).

ـ محمد بن الأزرق الأندلسي الذي هاجر من غرناطة بعد ماتغلب عليها العدو إلى تلمسان حيث استقر (ص 124).

ـ ومنهم أحمد بن يوسف الملياني، نزيل مليانة بين الجزائر وتلمسان من أصحاب الشيخ أحمد زروق. . من أكابر مشايخ الصوفية. . . توفي في العشرة الثالثة والله أعلم وقبره مزارة عظيمة بمليانة (ص 124 ـ 125).

ـ أحمد شقرون بن أبي جمعة المغراوي ثم الوهراني المعروف بالسيد شقرون الوهراني، وهو صاحب جامع الاختصاص والتبيان (توجد منه نسختان مخطوطتان الأولى بالمكتبة العامة بتطوان رقم 710 والثانية بالمكتبة الحسنية بالرباط ضمن مجموع رقم 7579).

ـ أحمد بن القاضي الزواوي، يقول عنه صاحب الدوحة « ولم يزل رحمه الله مثابرا على سيرته النبوية إلى أن كان من أمره مع خير الدين التركماني مما هو مشهور، وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيلائهم عليها وعلى المغرب الأوسط الآن إلى ظنه بهم ومحبته الجهاد في سبيب الله تعالى، وبعد ذلك تنكروا له شأن رياسة المتغلبين وقتلوه شهيدا رحمة الله عليه في العشرة الثالثة والله أعلم » (126).

ـ محمد بن موسى التلمساني « كان ممن تشد له الرحال » . . . انتهت اليه رياسة العلم بحضرة تلمسان والمغرب الأوسط في وقته توفي رحمه الله في أوائل الخامسة، وقبره مشهور بتلمسان مزارة.

ـ شيخ المشايخ أبو فارس عبد العزيز القسنطيني « كان هذا الشيخ من أكابر الأولياء وأعلام الصوفية ويقال أنه بلغ مقام الأفراد ومنازل الأقطاب » توفي والله أعلم في صدر العشرة الرابعة (ص 132 ـ 133).

ـ أحمد بن قاسم الحسين الشريف التلمساني المعروف بالبحباح، (ص 133).

ـ عبد الله البرجي الأندلسي الوارد على تلمسان من تونس، (ص 133).

واللائحة طويلة نكتفي بذكر أسماء هؤلاء العلماء :

ـ محمد بن أبي مدين التلمساني (العشرة الرابعة)،

ـ ابراهيم الوجد يحي التلمساني (العشرة الرابعة).

ـ محمد بن عبد الرحمن التلوتي (من تلمسان توفي في آخر الثالثة رحمه الله).

ـ محمد بن الزنداري التلمساني (توفي في الرابعة).

ـ محمد بن عيسى التلمساني (أواسط الرابعة).

ـ أحمد بن ملوكة التلمساني (أواسط الرابعة)، وفي ترجمته ذكر ابن عسكر أن شيخه ابن هبة الله قال له مايلي : لما عثا عروج التركماني بتلمسان وساء السيرة وأفحش في القتل والسبي، فثار به أهل تلمسان ثم أوقع بهم وخرج إلى جبل بني يزناسي، فأشفق أهل تلمسان على نفيهم وخافوا من رجوعه اليهم، فلجئوا إلى الشيخ ابن ملوكة وشكوا إليه مانالهم منه وماتخوفوه فانقبض الشيخ انقباضا عظيما ثم ضرب الأرض بيده وقال : لارجع إلى تلمسان أبدا اعتمادا على الله تعالى فكان كما قال. وقتل عروج التركماني ومن كان معه من الأعراب والتركمان. . . (ص 135).

ومن خلال هذه القراءة الأفقية الاجتزائية في كتاب الدوحة يمكن أن نتصور ماتحويه مثل هذه المصادر المتعلقة بالعلماء والمشايخ من معلومات فكرية وسياسية وحتى اجتماعية واقتصادية، فهي تلقي أضواء على الحياة الفكرية من حيث أنها تقدم المناقشات التي كانت تدور بين العلماء وتعرف بأهم كتاباتهم، وبالتالي فهي تطلعنا على التيارات الفكرية التي كانت تتحكم في تصرفاتهم وتحركاتهم : كانتشار المالكية كمذهب، أو مدى استقطاب الطريقة الشاذلية الجازولية لرجالات العصر، ومزاحمة الطريقة القادرية لها. . . . أو غير ذلك مما يمثل انشغالات مفكري المغارب في أواخر العصور الوسطى.

ـ كتب النوازل والفتاوى :

وهناك صنف آخر من المصادر انتجه علماء القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين ويتجلى في الكتابات الفقهية التي تعددت وتنوعت أغراضها. ومنها صنف جلب مندوقة غير بعيد اهتمام المؤرخين وهو كتب الفتاوى والنوازل. ومن المتفق عليه اليوم عند الباحثين في التاريخ أن مثل هذه الكتب، وأن كان استغلالها صعبا. . . ، فإن ماتحتوي عليه من معلومات تخص المجتمع والفكر والاقتصاد كثير، ولايمكن

الاستغناء عنه اذا ما أراد المؤرخ أن يرقى بعلمه إلى مستوى يسمح له يفهم مكنزمات تاريخ البلد الذي يدرسه . . .

ومن أبرز كتب النوازل التي انجزت خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة كتابان يعتبران من أغنى الكتابات في هذا الصنف :

ـ كتاب أحمد بن يحي الونشريسي « المعيار والمغرب » .

ـ كتاب عبد العزيز بن الحسن الزياتي « الجواهر المختارة » .

أولا كتاب المعيار لصاحبه أحمد بن يحي الونشريسي، (وهو مثال آخر في الارتباط البشري والفكري بين بلدان المغارب حيث أن أصل صاحب المعيار يرجع إلى ونشريس من بلاد الجزائر . . .)، وهو كتاب في ثلاثة عشر جزءا جمع فيه صاحبه أشهر القضايا التي طرحت على علماء عصره (أو قبله) في الأندلس وافريقيا والمغرب الأوسط والأقصى .

وقد أورد الونشريسي نوازل مختلفة من وهران وتلمسان وقسنطينة في مواضيع متنوعة . ويمكن الاستفادة مما يقدمه صاحب المعيار في ميادين مختلفة من المعرفة : كملكية الأرض والبيع والشراء والارث وكل القضايا المتعلقة بالمعاملات كما يقدم لقرائه معلومات حول مدى انتشار الاسلام ومواجهته للبدع والعادات، ومدى قوة المذهب المالكي في الغرب الاسلامي بأسره . فقد قدم شهادات قد لانجدها في المصادر الأخرى عن موقف سكان بلاد المغرب الأوسط من فقدان الأندلس ومن الهجمة الايبيرية على شمال افريقيا . . . ويكفي الرجوع إلى نوازل الجهاد للوقوف على ذلك .

ثانيا : كتاب الجواهر لصاحبه ابن فارس عبد العزيز الزياتي . ينتمي هذا الأخير إلى أسرة تنتسب ـ حسب محمد العربي الفاسي صاحب مرآة المحاسن والدبني زيان أصحاب تلمسان، ذلك الفرع الذي هاجر مع بداية القرن العاشر الهجري إلى المغرب واستقر بمرتفعات غمارة . وقد جمع الزياتي في كتابه هذا الذي يقع في جزئين (مخطوطين) عددا كبيرا من النوازل والفتاوى التي عرضت على علماء المغارب خلال

القرن الحادي عشر للهجرة . وهي متنوعة وتبين كذلك المشاكل اليومية التي كانت تواجهها بلاد المغرب الأوسط، وخاصة المشاكل التي خلقها لها التدخل الأجنبي المسيحي الاسباني . . .

وعلى العموم فإن غنى مثل هذه المصادر لم يعد يطرح للنقاش، كل مايمكن اثارة الانتباه إليه هو الحاجة إلى التسلح بمنهج رهين ينطلق من الرغبة في البحث ليس فقط عن المعلومات المباشرة التي تقدمها مثل هذه النصوص، ولكن عن كل مايمكن أن يستغل ويؤول من معطيات ومواقف لاتفهم إلا بربطها باشكاليات جديدة وبوضعها في سياق تاريخ المدى الطويل ( )

خلاصة القول أن ماينتظر الباحث في تاريخ الجزائر ـ كما هو الحال بالنسبة للباحث في تاريخ أي بلد عربي آخر ـ هو أن يشمر على ساعد الجد لتقتحم دور الوثائق والخزانات المغربية ليقف على مصادر تساعده في فهم عدد من معطيات تاريخ الجزائر .

وما قمنا به هنا لايمكن أن يعتبر مسحا كاملا ونهائيا لما يتوفر في الخزانات المغربية (أو الأجنبية) من مصادر تتعلق بتاريخ الجزائر، بل هي فقط محاولة لاثارة الانتباه إلى وفرة وتنوع تلك المصادر وغناها انطلاقا من نماذج معينة . . . وما هذا الا دليل ـ إن كنا مازلنا في حاجة إلى دليل ـ على أن بلدان المغارب كان لها تاريخ مشترك ومتكامل، ولايمكن فهم هذا دون الرجوع إلى ذلك . . . . .

Achevé d'imprimer sur les presses de
l'OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES
1, Place Centrale - Ben-Aknoun - ALGER

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر

façon remarquable. En 1960, hormis ses filiales situées ici et là en Tunisie, on pouvait compter seulement à la Zaytuna plus de 5 000 étudiants algériens (1).

En fait, c'était la Zaytuna, ou ses différentes annexes, tant en Algérie qu'en Tunisie, qui fournissait à l'Algérie un grand nombre d'intellectuels, lesquels se faisaient peu à peu connaître, non seulement au niveau local, mais aussi au niveau du monde arabe. Bien que pendant les années vingt, quelques uns d'entre eux, déjà, s'étaient distingués par leurs idées et les crédits qu'ils publièrent dans les différents journaux tunisiens, la période la guerre de libération nationale algérienne fut pour la plupart d'entre eux une occasion de se faire entendre hors de leurs frontières. A ce titre, en ce qui concerne les poètes, on peut retenir les noms suivant : Mohamed Laïd Khalifa, Abou El-Ikdhane, Mufdi Zakaria, Ramdane Hamoud, Said Ez'zahiri, Mohamed Laïd Djebari, Ahmed Sahnoune, Lakhdar Saihi, Salah Kherfi, Mohamed Salah Baouiya, et d'autres encore (2). Chacune de ces poètes à son actif plusieurs dizaines de poèmes, publiés soit dans les revues et journaux tunisiens, soit dans différents organes de presse arabe. Au moins les 8/10 de ces poèmes traitent des événements de la guerre de libération algérienne.

Dans la domaine du roman, la Zaytuna et ses annexes fournirent aussi à l'Algérie quelques noms qui se firent connaître entre 1954-1962 : Abdelmadjid Chafai,

(1) Action tunisienne : Juillet, 1960
(2) El-Djabiri Mohamed Salah : nach'att al muhadjuriyyne al djazairiyyne fi tounès, Tunis, 1983, P.50

Abdellah Rekiki, Abou Laid Doudou, Abdelhamid Ben Hadouga, et d'autres encore (1).

Dans le domaine des sciences humaines, politiques, et sociales, la Zaytuna fournit aussi à l'Algérie quelques noms qui s'imporsèrent par leurs talents à partir des années vingt, tels : Abdelhamid Ben Badis, Mébarek El-Mili, Said Ez'zahiri, Hamza Boukouchea, et Tewfik El-Madani. Plus tard, et surtout pendant la période de la guerre de libération nationale algérienne, d'autres noms firent leur chemin peu à peu dans ce dernier domaine, tels Abderrahmane El-Yallaoui, Ahmed Hamani, Mouloud Kacim, Mohamed Salah Seddik, Abdellah Cheriet, A.E.Q. Saâdallah, Mohamed El-Mili, Yahia Bouaziz, Abdelkader Zabadia, et d'autres encore.

Tel est le premier résultat bénéfique que l'Algérie récolta de l'enclavement de l'enseignement libre de l'arabe dans celui de la Zaytuna de Tunis. L'influence de la Zaytuna sur les milieux algériens, tant sur le plan culturel, politique, ou social ne fut pas toutjours bien compris. C'est ainsi qu'on peut lire dans plusieurs documents du G.G. rédigés en 1927 à propos des territoires du Sud Algérien que : "l'influence de la Zaytuna est nulle" (2). Conclusion un peu hative, comme on le constate.

(1) EL Djabiri M.S. : Op ; Cit ; P.51
(2) : 9 H II, Loc ; Cit ;

ou alors pour donner des cours dans les médersa(s) et écoles coraniques des zones éloignées dans lesquelles les éléments de l'enseignement colonial refusaient de se rendre. C'est ainsi que beaucoup de douar, déchera, et tribus se situant loin des grands centres urbains eurent droit à un enseignement d'arabe considéré dans le temps par les populations comme étant en enseignement de haute qualité. Pour la simple raison qu'il était donné par des zytunéens, dont les nouvelles se répandirent très vite parmi les éleves et étudiants avides d'instruction, qui les recherchaient d'un douar à un autre, d'un village à un autre. C'est ainsi que, par exemple, Ferhat Ben Derradji (1) et Ahmed Sahnoune (2) se déplacèrent de Lichana (3) à Farfar pour y rencontrer chaykh Mohamed Kheireddine, lorsqu'il retournait de la Zaytuna, pour profiter de ses conseils et cours d'arabe. Ferhat Ben Derradji ne tarda pas à prendre le chemin de Tunis (4). Après quelques années, il revint à Lichana pour former et orienter quelques dizaines d'étudiants vers Tunis.

Peu avant le début de la deuxième guerre mondiale, les régions de l'Est et du Sud Algérien frontalières de la Tunisie comptaient des dizaines d'enseignants et de chuyukh sortis de la Zaytuna.

L'enseignement libre d'arabe en Algérie fut officiellement annexé à celui de la Zaytuna de Tunis par la création de l'Institut Ben Badis, de Constantine. Les instances de la Zaytuna furent saisies, dans ce sens, par El-Ibrahimi en

(1) Un important intellectuel algérien. Voir sa biographie plus bas.
(2) Un bon poète réformiste. Voir à son sujet, annexe un : "D.B."
(3) Se situe à quelques dizaines de Km au Sud de Tolga.
(4) Il se rendit à Tunis en 1924 et obtint son diplome de la zaytuna en 1930

+juin 1947. Elles accueillirent cette demande avec joie et considèrent dès lors l'Institut comme une filiale de la Zaytuna. Les dirigeants de la médersa al kétaniya, peu après l'ouverture officielle de l'Institut Ben Badis, en firent autant. Ainsi, la Zaytuna se vit dotée en Algérie de deux annexes qui dispensaient exactement le même enseignement qu'elle. En 1952, on pouvait compter à la Zaytuna 980 étudiants de l'Institut Ben Badis et 575 de celui d'al kétaniya (1). Dans ces deux établissements, les examens d'al ahliyya (2), diplôme permettant l'accession au cycle de l'enseignement secondaire, se déroulaient exclusivement sous la surveillance des professeurs de la zaytuna, qui se déplaçaient à Constantine pour la circonstance. Les étudiants, à leur tour, se rendaient à Tunis pour régulariser leur situation administrative auprès de l'université mère et retirer leurs diplômes.

Cette annexion de l'Institut Ben Badis et celui d'al kétaniya à l'université Zaytuna se fit au moins pour une raison principale : leurs diplôme n'étaient pas reconnus par le pouvoir colonial en Algérie, alors que celui-ci reconnaissait ceux délivrés par la Zaytuna. C'est-à-dire que ces deux établissements eux même n'étaient pas reconnus par le pouvoir colonial et leur existence était juridiquement irrégulière. Pour échapper à cette mesure, les Algériens ne trouvèrent pas mieux que de les annexer à la Zaytuna. Au lendemain de l'annexion de ces deux établissements à la Zaytuna, on pouvait compter dans cette dernière université tunisiennes plus de 200 étudiants algériens(1). Pendant les années cinquante, les effectifs des étudiants algériens à la Zaytuna progressèrent d'une

(1) Al Baçair : Loc ; Cit ;
(2) Equivalent au Brevet Elémentaire.
(3) Al Baçair : 8 Mars 1952.

cours des années qui suivirent. Il va de soi que ces immigrés prenaient contact, au moins périodiquement, avec les leurs restés sur place, auxquels ils facilitaient souvent leurs déplacements en Tunisie. Les étudiants algériens qui cherchaient à s'instruire à Tunis, avant de s'y rendre, cherchaient à prendre contact avec leurs familles pour les héberger, ou leur venir en aide une fois sur place. L'établissement des familles algériennes en grande quantité en Tunisie facilita beaucoup les allées et venues des étudiants algériens fréquentant les établissements scolaires tunisiens.

L'accés des intellectuels algériens aux postes d'enseignement de la Zaytuna et l'établissement de certains d'entre eux dans les centres importants de culture tunisien multupli le nombre des étudiants algériens en Tunisie d'une part, fut à l'origine d'un certain enclavement de l'enseignement de l'arabe en Algérie dans celui de la Tunisie, et ce bien avant la création de l'Institut Ben Badis de Constantine, en 1948, qui était une annexe de la Zaytuna, tout comme ses autres annexes existant en Tunisie. Le rapprochement entre enseignants algériens et tunisiens se fit tout d'abord par le biais des étudiants algériens qui firent leurs études dans ce premier pays ; ensuite, il se consolida par l'établissement de profesSeurs algériens en Tunisie. Ainsi, programmes et méthodes d'enseignement tunisien furent colportés et mis en exécution, surtout dans les régions de l'Est et du Sud Algérien.

Chaykh Mohamed Ben Brahim, chef de l'important centre culturel de Nefta,(1) d'origine algérienne, (2)

(1) Nefta était considéré pendant les années vingt, comme un important centre culturel tunisien, comprenant quelques médersa(s), plus d'une dizaine d'écoles coraniques et deux importantes zawiya, celle d'Abou Said et Sidi Abderrahmane ; il recevait beaucoup d'étudiants algériens.
(2) C'est le grand père du Chaykh Abdelaziz Belhachemi. Voir à son sujet chapitre trois, plus haut.

se déplaçait une fois par an, pour se rendre parmi ses amis et collègues enseignants dans les régions de Tébessa. CHaykh Mohamed Ben Brahim proifitait de ses fréquents séjours à Tébessa pour regrouper autour de lui éléves et étudiants pour les instruire et les exhorter ensuite à rejoindre les établissements scolaires tunisiens pour parfaire leur instruction (3).

Plus tard, chaykh Mohamed Ben Brahim fut aidé dans sa tâche par les chuyukh Sadek Ben Khellil, Assoul, et Larbi Tébessi. Tous les trois zaytuniens, ils orientèrent éléves et étudiants de Tébessa et sa région vers les centres importans de culture musulmane de Tunisie pour s'y instruire (2). Dieu avant ces derniers, dés son retour de la Zaytuna, chaykh Ben Badis n'eut d'autres préoccupations que d'orienter les éléves algériens vers l'université où il avait étudié. Là où il passait, il tenait des réunions avec les parents d'éléves pour les inciter à envoyer leurs enfants s'instruire en Tunisie. Vers la fin des années trente, al baçair (3) lui comptait quelques 400 déplacements dans les régions de l'Est, Sud, et Centre de l'Algérie, déplacements au cours desquels il insista surtout sur l'enclavement de l'enseignement en Algérie dans celui de la Tunisie. Les efforts que chaykh Ben Badis déploya dans ce sens poussèrent des dizaines d'étudiants à se rendre en Tunisie pour poursuivre leur instruction en arabe.

De retour chez eux, ils étaient sollicités par des particuliers pour leur donner des cours d'arabe. Les meilleurs d'entre eux étaient invités pour faire la causerie du vendredi,

(1) Ben Nabi (Malek) : Mudhakirrat chahiyyd al qar'n, Beyrouth, 1969 T.1,P.134
(2) Ben Nabi (M.) : Op ; Cit ;
(3) Al Baçair : 12 Février 1937.

grand nombre d'entre eux. Le Caire vient en deuxième position et, enfin Qarawiyyne en troisième et dernière position. De par le nombre des étudiants et intellectuels algériens formés par elle, la Zaytuna peut s'honorer de ce rang car, en comparant les intellectuels sortis de cette dernière université à celle de Fès, par exemple, la différence est de quatre à cinq fois plus, en faveur de la Zaytuna. La raison principale, en était la sévérité renommée des examinateurs Qarawiyyine. En 1951, cette université ne comptait aucun étudiant algérien dans son cycle supérieur (1). Ce fait ne s'applique, bien sûr, qu'aux étudiants algériens qui émigrèrent à Fès dans l'intention de revenir un jour ou l'autre dans leur pays. Mais, pour les fils d'immigrés algériens qui résidaient (2) définitivement au Maroc depuis longtemps, et dont le nombre peut être évalué à peu près à 100.000 immigrés, au début des années cinquante, on se sait trop rien. Encore faut-il savoir si eux-même s'interessaient ou non à l'enseignement musulman classique de Qarawiyyne car la majorité d'entre eux étaient de riches propriétaires, des commerçants et, des gens d'affaires. D'autre part, par rapport à l'Algérie, l'enseignement moderne de l'arabe, ainsi que celui du français, était largement développé au Maroc. Les fils des immigrés algériens au Maroc n'avaient donc pas de raisons majeures pour fréquenter la Qarawiyyne.

Quoi qu'il en soit, pendant la période que nous étudions, la présence des intellectuels et étudiants algériens est beaucoup plus signalée en Tunisie qu'au Maroc ou en Egypte. Pour les énumérer, il faudrait dresser une longue liste. On

(1) Dans ses deux cycles primaire et secondaire Qarawiyye, comptait quelques 200 étudiants algériens, en 1951 - 52, In. (Archives de la Wilaya d'Oran).
(2) En 1845 les immigrés algériens au Maroc étaient à peu près 20.000, chiffre qui alla en s'accentuant sans cesse jusqu'à la fin de la première décennie de ce siècle.

se contentera de citer quelques uns des plus importants d'entre eux qui furent les idoles de la Zaytuna même : Ahmed Ben Said Abbas (1), Hossein Tolgui (2), Mohamed Ben Aissa El-Djazairi (3), Ben Azzouz El-Bordji (4), El-Mekki Ben-Azzouz (5), Mohamed Elkhedir Hussein (6), et d'autres qu'eux.

Tout au long des sciècle, il y eut un échange culturel assez considérable, surtout entre Algériens et Tunisiens. Ces derniers, par le biais des importants centres culturels de l'Est Algérien, visitent la région, ou séjournent pendant quelques temps ici et là à Béjaia, Constantine ou Biskra. Pour les intellectuels et étudiants algériens, avant d'arriver à la Zaytuna,ils passaient soit par Sousse, Gabès, Tozeur, ou alors Netfa. Dans ces centres intellectuels tunisiens, qui étaient en quelque sorte des filiales de la Zaytuna, les étudiants algériens trouvaient un enseignement d'arabe adéquat qui leur permettait en quelques années de rejoindre la Zaytuna et d'y accéder, au moins, à son cycle secondaire.

B. - Enclavement de l'enseignement de l'arabe en Algérie dans celui de la Tunisie.

A partir de l'occupation française de l'Algérie, on constate un certain repli des populations algériennes vers les pays voisins : rien qu'en Tunisie on trouvait en 1876 quelques 16.600 immigrés algériens, chiffre qui alla en s'accentuant au

(1) Mort en 1836
(2) Un savant important, originaire de Tolga, mort en 1891
(3) Il occupa des postes politiques importants en Tunisie ; mort en 1892
(4) Un important savant algérien du XIX siècle. Il s'établit à Nefta où il fonda une importante zawiya qu'il annexa à celle de Tolga. A son sujet, voir plus haut.
(5) Un important savant, de son époque, mort à Istambul en 1916
(6) Mort en 1958 au Caire. A son sujet voir chapitre précédent.

Al Haiyyat (1), - La vie -, dans le Sud :

> "Plus nous serons regroupés et mieux nous pourrons faire entendre notre voix et donner au monde musulman de l'Afrique du Nord, une vie plus intense, une organisation plus serrée, une cohésion plus grande, ce qui est au plus haut point indispensable à notre évolution et à la revendication de nos droits les plus sacrés." (2)

II. LES INFLUENCES FRONTALIERES

II. I. LA TUNISIE ET LE MAROC

A. - La ruée des étudiants vers les centres d'enseignement musulman.

Contrairement à l'Algérie, la Zaytuna de Tunis et Qarawiyyne de Fès, qui étaient à l'origine de simples mosquées, se développèrent d'une façon telle qu'elle leur permit de se faire connaître dans tous le monde musulman, comme étant les deux centres intellectuels musulmans les plus importants au Maghreb. L'Algérie ne manquait pas de mosquées qui auraient pu se développer pour atteindre ce stade. Mais les événements politiques et économiques importants que l'Afrique du Nord connut au Moyen Age empêchèrent d'une manière ou d'une autre le développement scientifique et

(1) Dans le prospectus destiné à lui faire de la propagande, on relève ce qui suit : "Abonnez vous à Al-Haiyyat, qui est l'organe de la parole et de la pensée de Musulmans de l'Afrique du Nord, organe d'évolution de de progès, pour servir l'expansion de la civilisation algérienne et la progression des idées... Ce journal est aussi créé pour arriver à détruire les opinions fausses qui ont pu être émises sur le Musulman pour qui ignore ses qualités et ne connaît pas le véritable idéal vers lequel l'entraînent ses aspirations, et en redressant ces opinions, le faire connaître sous son véritable jour, et le présenter aux yeux des ignorants, pour ce qu'ils a de bon, de noble, de juste, au point de vue de ses qualités intellectuelles et morales."
(2) A.O.M. : Loc ; Cit ;

culturel de l'Algérie. Entre autres on peut citerla déchéance de la dynastie Aghlabide (1) sous les coups des Fatimides. L'abandon de la région, de la part de ces derniers, et le transfert de leur capitale politique au Caire (2), ne joua pas en la faveur du développement culturel du Maghreb central. Ce fut le Caire qui profita de l'influence des khalifes fatimides. Dès le début de leur présence en Egypte, ils fondèrent au Caire la célèbre mosquée al azhar (3), qui se développa peu à peu, pour se mettre ensuite à la tête de tous les centres de cultures musulmans.

S'ajoutant à autres facteurs de sclérose ce n'est d'ailleurs pas le seul facteurs de la régression de la culture en Algérie, la main mise des Ottomans sur l'Algérie et son rattachement direct à la Sublime Porte, ne lui permettait en aucune façon de se développer hors du contexte de l'Empire classique ottoman. L'Algérie, comme d'ailleurs toutes les autres contrées arabes qui étaient sous la domination ottomane, partagèrent avec leurs gouvernants obscurantisme et, déchéance scientifique et culturelle dans lesquels ces derniers se débattaient depuis longtemps.

L'époque coloniale française ne favorisa non plus, ni le développement des sciences, ni de la culture musulmane. Il ne restait donc, aux Algériens désireux de s'instruire dans les disciplines musulmanes, que d'aller vers elles, soit à Tunis, ou Fès, ou alors au Caire. Tunis depuis toujours absorba le plus

(1) Cette dynastie fut fondée par Brahim Ibn Al Aghlab, en l'an 800 de l'ère chrétienne ; elle tomba sous les coups des Fatimides en 909.
(2) Vers 970, ils se désistaient du Maghreb central en faveur d'une famille Aghlabide qui lui témoigna au début obéissance, mais elle finit par se détacher d'eux définitivement.
(3) Fondée au début de l'ère fatimide en Egypte, en 972.

Soyez puissants devant l'ennemi et humbles devant Dieu
Ne craignez pas la mort car elle est rapide
Daignez, le créateur vous récompensera et vous assistera
Puisse la troupe être victorieuse, Ô Dieu" (1)

Dans un second poème, on peut lire ceci :

"Réveillez-vous, votre indifférence a trop duré, et réagissez, votre énertie a été trop longue
Précipitez-vous dans la gloire et élevez-vous de par la volonté du tout puissant.
L'homme cher devient méprisable si la fortune l'accable de ses revers
Persévérez dans vos efforts : si les circonstances se révèlent rebelles à l'accomplissement de vos desseins, elles finiront aux prix de votre tenacité par vous être favorables." (2)

Dans un troisième poème qui tourne autour de la même idée, on relève tout particulièrement :

"Enfants d'El-Oued, cherchez la gloire et la dignité et ne demeurez pas vils et méprisables
Attaquez impétueusement l'adversaire, dira-t-on même que vous êtes insencés.
Aneantissez tous ceux qui d'érigent en pharaons cruels et, à leurs actes, opposez des actes plus sévères
Soyez orgueilleux avec l'adversaire et humble avec Dieu
Ne craignez pas la mort, l'heure est fixée

(1) A.O.M. : Ibid
(2) A.O.M. : Ibid

Demandez au créateur de vous rendre heureux et de vous appuyez sûrement
Mon Dieu, secourez votre armée et conduisez la victorieusement."(1)

Du poème de la Jeunesse du Congrés Musulman Algérien on relève ces vers :

"Pourrait-on répondre à une voix très lointaine ?
Cette voix vous appelle au rassemblement, même au prix de vos têtes
Accourons à la rédemption, Ô jeunesse
Vous étiez les piliers du monde
Sacrifiez la vie éphémère à la vie éternelle
Celui qui ne recule pas devant la mort ne peut avoir peur." (2)

L'objectif de tous ces poèmes, et de tant d'autres qui restent encore dans l'ombre, est résumé dans un prospectus imprimé en arabe et destiné à faire la propagande pour l'abonnement à un journal arabe (3) qui devait paraitre sous le titre :

(1) A.O.M. : Loc ; Cit ;
(2) A.O.M. : Loc ; Cit ;
(3) Avec l'Oued M'zab et Maghreb, journaux créés par Abou El-Ikdhane, le premier en 1926 et le second en 1939, en tout ce dernier créa huit journaux de tendance nationaliste, qui étaient assez lus dans le Sud Algérien, tout particulièrement, et aussi dans le Nord, même en Tunisie, et peut-être même au Maroc. Certains d'entre eux étaient imprimés en Tunisie, puis distribués en Algérie. Mais nous pensons que la première brochure politique que les régions du Sud connurent, est celle intitulée : De l'indigénat, son application aux mozabites. Son auteur, Blidi Brahim Ben Ayoub, de Beni Yzguen, représentant de la djemmaâ Mozabite de Constantine et ses environs, la publia en 1903. Il cherche à y démontrer que l'indigénat est inapplicable aux Mozabites, en raison des services qu'ils ont rendu à la France de leurs dispositions pacifiques etc... A l'appui de ces théories, il reproduisait in-extenso toute la correspondance qui fut adressé par les autorités militaires des territoires du Sud, et surtout celles adressés par le chef de l'annexe de Laghouat au nommé Addoun Bessaid, grand père de l'auteur.

Evolution de la production intellectuelle des Algériens à Tunis entre 1920 - 1962 Selon le nombre d'articles produits

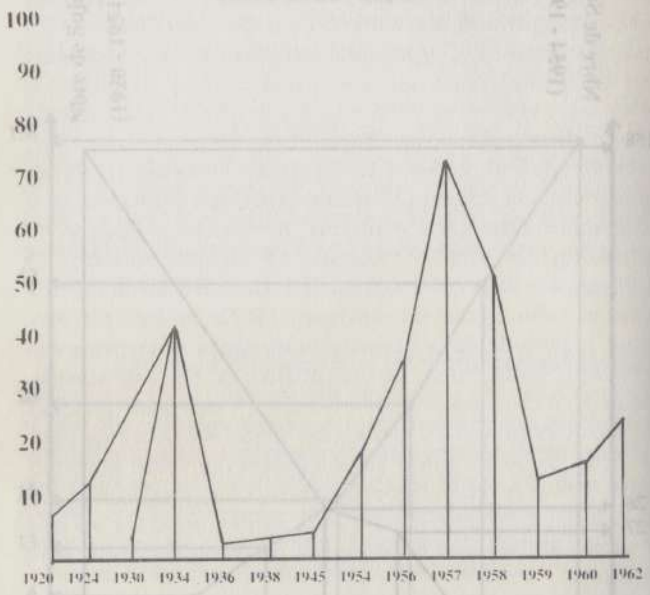

C. La poésie "Interdite".

Nous n'avons pas l'intention de traiter ici de la poésie algérienne anti-coloniale, sous toutes ses formes, qui fut publiée surtout par Mohamed Laïd, poète nationaliste de l'association des Ulamas, et Mufdi Zakaria, poète nationaliste du Maghreb. En effet, ceux-ci sont bien connus, ce qui nous intéresse c'est surtout, ce qui n'a jamais été publié de ce genre de poèsie, qui fut distribuée clandestinement, en prospectus imprimés en arabe, et destiné à faire de la propagande contre le pouvoir colonial. Dans les archives d'outr mer (1), on trouve beaucoup de feuilles, de ce genre. On a selectionné quelques unes d'entre elles, qui furent distribuées dans les régions du Sud sous forme de tracts.

L'un de ces poèmes qui portait le titre de : L'hymne sahariens des fils d'El-Oued, disait :

"Fils d'El-Oued, recherchez la gloire et ne restez pas méprisés
Empoignez furieusement l'adversaire, même si on vous traite de fous
Déviez les tyrans de leur iniquité

(1) A.OM. : 9 h 11, Situation politique du Sahara algérien, vers la fin des années trente.

La Production Intellectuelle des Algériens à Tunis entre 1920- 1954

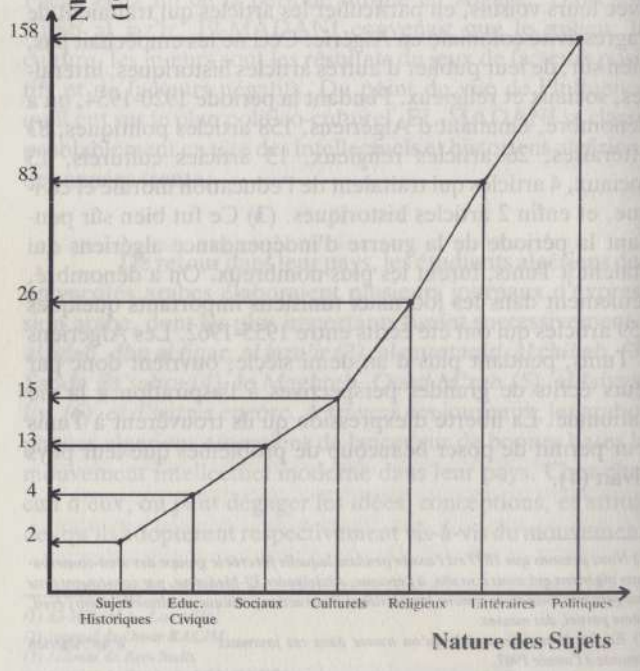

La Production Intellectuelle des Algériens à Tunis entre 1954 - 1962

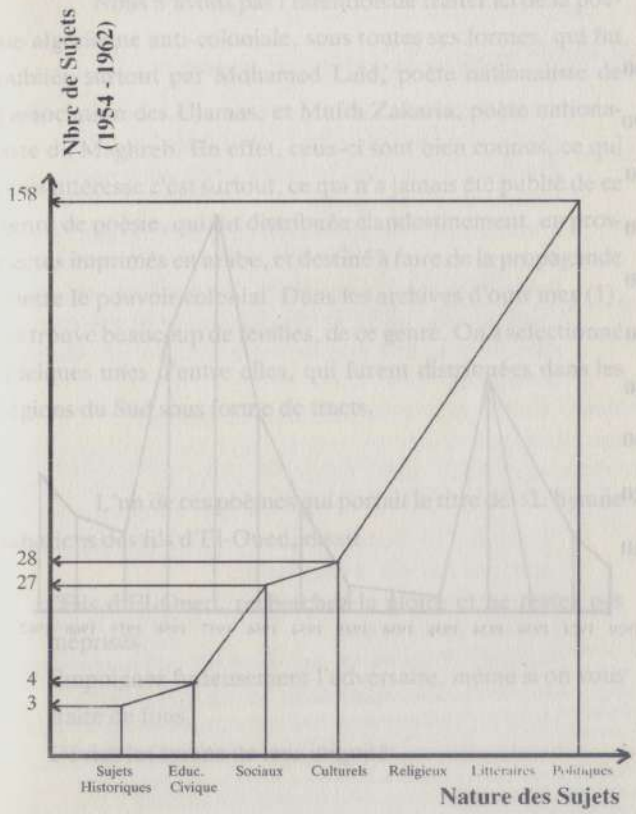

"...Nous dédions notre livre au peuple algérien, à sa jeunesse pensante, à ceux de ses hommes qui militent avec sincérité" (1).

Ahmed Tewfik EL-MADANI, de son côté, publiait à Tunis en 1927 l'Histoire de l'Afrique du Nord à travers quatre siècles, qui fut suivie de la parution à Alger, en 1932, du Kitab al jaza'ir, et en 1938 de Mohamed Othmane Pacha et la fin de la période turque en Algérie. Dans son Kitab al jaz'ir, El-MADANI convenait que le milieu, la culture, les mœurs sont les résultats du jeux de facteurs positifs et de facteurs négatifs. Du point de vue de l'influence qu'il eut sur le plan politico-culturel, EL-MADANI se classe problablement en tête des intellectuels et historiens algériens des années trente.

De retour dans leur pays, les étudiants algériens des universités arabes élaboraient plusieurs journaux d'expression arabe, dont les plus importants furent successivement : *al içlah, dhu al fiqar, al jaza'ir (2), al muntaqid, al chihab, (3) Sadda Es'sahra (4), le Maghreb, Oued M'zab (5), al laiyyaliy, (6), et d'autres encore*. A travers ces journaux, les arabophones algériens essayaient de lancer sur de bonnes bases le mouvement intellectuel moderne dans leur pays. Chez chacun d'eux, on peut dégager les idées, conceptions, et attitudes qu'ils adoptèrent respectivement vis-à-vis du mouvement

(1) El-Mili (M.) : Loc ; Cit ;
(2) Journal de Omar RACIM
(3) Journal de Ben-Badis
(4) Journal de Ben Labed EL-OKKBI
(5) Journal d'Abou EL-Ikdhane
(6) Journal de Kh'rène Ali Ben-Saâd

national algérien, pendant la période allant entre 1877 (1) et 1954.

Mais c'est à Tunis qu'on constate toujours une production intellectuelle abandonte des Algériens. Les journaux et périodiques tunisiens réservèrent depuis leur fondation (2) un bon acceuil à la production intellectuelle des Algériens, qu'ils affectionnaient sur leurs pages en signe de solidarité avec leurs voisins, en particulier les articles qui traitaient de l'agressivité coloniale en Algérie. Ceci ne les empêchait pas, bien sûr, de leur publier d'autres articles historiques, littéraires, sociaux et religieux. Pendant la période 1920-1954, on a dénombré, émanant d'Algériens, 158 articles politiques, 83 littéraires, 26 articles religieux, 15 articles culturels, 13 sociaux, 4 articles qui traitaient de l'éducation morale et civique, et enfin 2 articles historiques. (3) Ce fut bien sûr pendant la période de la guerre d'indépendance algériens qui étaient à Tunis, furent les plus nombreux. On a dénombré, seulement dans les journaux tunisiens importants quelques 159 articles qui ont été écrits entre 1955-1962. Les Algériens à Tunis, pendant plus d'un demi siècle, ouvrient donc par leurs écrits de grandes perspectives à l'aspiration à la vie nationale. La liberté d'expression qu'ils trouvèrent à Tunis leur permit de poser beaucoup de problèmes que leur pays vivait (4).

(1) Nous pensons que 1877 est l'année pendant laquelle fut créé le groupe des semi-conservateurs algériens qui avait à sa tête, à l'époque, Abdelkader El-Medjaoui, par conséquent cette date peut être considérée comme étant le début d'une action politique et culturelle visant l'éveil, même partiel, des masses.
(2) En fait le premier article qu'on trouve dans ces journaux à un Algérien remonte à l'année 1907.
(3) Ces évaluations sont approximatives. Elles ont été réalisées selon les coupures de journaux tunisiens disponibles.
(4) Voir en annexe la liste complète de la production intellectuelle des Algériens à Tunis entre 1920-1962.

au peuple algérien son individualité, à la doter d'un parlement où la majorité sera acquise aux Musulmans, et d'une constitution... à faire admettre la langue arabe comme langue officielle en Algérie..."(1)

Parmi les livres qui furent publiés, pendant les années trente (2) hors de l'Algérie mais qui y entrèrent d'une façon ou d'une autre et dont le contenu sembla être "tendancieux", selon l'expression des censeurs coloniaux, on peut prendre comme exemple le livre du Ferkeq, Farqed signifie : l'étoile avoisinante du pôle, qui fut publié en 1938. Son auteur lui donna ce titre, car dit-il :

"Il contient une série d'article qui ont été écrits et signés "Ferqed", dans plusieurs éditions, pendant les jours malheureux, et à une époque où se manifestations ces vérités, que nous voulons publier".(3)

Dans la préface de ce livre, l'auteur disait notamment :

"Vous n'ignores pas toutes les souffrances qu'endure notre peuple, du fait de son retard dans toutes les branches de la vie. Il a besoin d'être consolé et encouragé. Il n'y a pas de quoi s'étonner ; ceux qui remplissent les conditions d'aptitude pour l'aider, le soulager, sont les Ulamas, les écrivains, les gens de lettres. Ils sont capables de guérir notre nation, de la relever, de la réveiller de sa torpeur, et de la conduire vers le progrès et la perfection"(4).

1) Ez'zohra : 21 juillet 1937, discours prononcé par Mufdi Zakaria à Tunis.
2) Immigré à Tunis
3) Préface du Farqed
4) Ibid

Ce livre de 130 pages de grand format, avec dédicace et avant propos, comprend 4 parties essentielles : I ère partie la société, dans laquelle il traite des sujets généraux, sur la morale, l'éducation, les belles lettres et la situation sociale des habitants du M'zab. Sa deuxième partie est consacrée à la politique. Il y traite des questions relatives aux colonies dans le monde musulman, effets apparents et cachés de cette colonisation. L'activité des pères blancs dans le Nord de l'Algérie et surtout dans le M'zab. Le besoin pressant de former un parti politique. La troisième partie de ce livre traite des fondements de la culture algérienne, de la littérature, il critique séyèrement le régime colonial et ses conséquences sur la société. Sous le titre de : Le ferqed en exil, l'auteur (1) achève la quatrième partie de son livre qui en est la dernière. La dernière phrase de l'introduction est représentative de son contenu :

"Puissiez-vous continuer à travailler pour le pays et pour Dieu. Salut".(2)

Ce livre fut largement diffusé, surtout dans le Sud Algérien et lu par le public lettré.

Rompant aussi bien avec les anciens auteurs maghrébins qu'avec les historiens occidentaux, Mébarek El-Mili publia en 1929 son histoire de l'Algérie aux temps anciens et moderne (3). De son dédicace, on relève tout particulièrement l'expression suivante :

1) Son auteur est Boudjenah Slimane Ben Yahia
2) Introduction du Ferqed, P.5
3) El-Mili (M.) : Loc ; Cit ;

Dans la dernière partis de son livre, l'auteur explique longuement la naissance des partis arabes :

> "Après les guerres balkaniques et l'invasion italienne en Tripolitaine, la Turquie elle-même devint un objet de convoitise pour les autres nations. Les leaders arabes mesurèrent le danger qui les menaçait et se rendirent compte de la faiblesse de la Turquie qui, ne pouvant se défendre chez elle, allait les vouer à leur propre sort, au cas émirent l'idée d'une décentralisation du pouvoir et de la constitution des pays arabes en dominions capables de se défendre par leurs propres moyens, en cas d'agression. Les partisans de cette idée se constituèrent en parti, qui eut son siège au Caire et qui prit le nom de *Lamarkaziyya*, - décentralisation -, et fut présidé par le grand nationaliste Rafiq Bek. Les Syriens créèrent à Beyrouth l'association *Al Içlah* - La réforme -, les Irakiens créèrent aussi la leur, sous le même nom, à Bassorah, etc..." (1).

L'auteur publie dans son livre les statuts du partis *Lamarkaziyya* pour, dit-il, le laver des accusations monsongères portées contre lui par le comité Jeune Turc. Ces statuts lui donnent un caractère essentiellement politique et l'appellation de "parti de l'administration ottomane". Son but tendait à donner à la décentralisation une forme qui réponde aux besoins sociaux des peuples constituant l'Empire Ottoman, si différents dans leur origine, leur langue, leur religion et leurs traditions. Il tendait également à donner à chaque possession turque un gouvernement local qui doive s'inspirer pour son fonctionnement des principes de *Lamarkaziyya* (décentralisation,

1) La révolution arabe : Loc ; Cit ;

comme les statuts du parti le précisent). Ce parti, dont le siège social était au Caire, avait selon lui, des sections dans toutes les localités de l'Empire Ottoman. Son comité supérieur comptait vingt membres. Chaque section devait organiser un meeting local au cours du mois de juin de chaque année. Le comité supérieur tint un congrés général au Caire, au cours de chaque mois de novembre, auquel prenaient part les membres du parti résidant au Caire et les délégués de sections.

Le contenu de ce livre, qui pénétra en Algérie, au moins une année ou deux, après sa publication au Caire, pouvait intéresser les nationalistes algériens dans plusieurs domaines. Ils pouvaient s'inspirer des procédes qui avaient amené les pays arabes à se révolter contre les Ottomans, alors qu'ils voulaient les désarabiser et les assimiler à la minorité touranienne. Les origines du soulèvement arabe contre les Ottomans pouvaient être facilement comparées aux causes du mécontentement des Algériens, et il était facile de trouver une grande ressemblance entre le revendications des pays arabes d'avant-guerre et ceux des Algériens (1). Le programme d'action et les statuts du parti *Lamarkaziyya*, publiés dans ce livre, pouvaient également intéresser les nationalistes algériens pour tracer leur ligne de conduite vis-à-vis du colonialisme. Quoi qu'il en soit, on trouve dans les discours de certains leaders politiques algériens plusieurs formules et idées, qui sont identiques à celles publiées dans la révolution arabe :

> "Les principes de ce parti -PPA-, tendent à faire de l'Algérie un dominion, à amener le gouvernement à reconnaître

1) On constate cette ressemblence aisément, dans les points essentiels du programme de travail du PPA, publié par El-Ouma, numéros d'avril et mai 1937.

des turcs et l'humiliation qu'en ressentit l'amour-propre des Arabes, surtout chez les intellectuels, la confiance illimitée qu'ils avaient jusque là accordée à la nation turque. Le fantisme religieux céda chez eux la place au solidarité éthnique. Les Arabes se dressèrent alors contre les Turcs et réclamèrent la liberté et l'indépendance." (1)

Aprés quoi l'auteur dresse un violent requisitoire contre l'administration turque en pays arabe, avec un aperçu historique sur ses origines et ses causes.

La question relations entre Arabes et unionistes, après la constitution, retient particulièrement l'attention de l'auteur, qui lui réserve un large commentaire, que nous résumons dans ces quelques lignes :

"Si le despotisme et l'arbitraire se sont confirmés durant l'exercice du pouvoir absolu par les souverains turcs, la souveraineté du peuple ne l'a pas été sous la constitution. Les Jeunes Turcs eux-mêmes s'étaient mis à créer, dans les milieux touraniens, et entretenir la prévention contre les Arabes et le préjugé de la race. La nouvelle constitution fut proclamée en 1908. Les Arabes l'acceuillirent avec enthousiasme, ils firent faire le sressentiements et étouffèrent même la voix de leur nationalisme pour se joindre, de cœur et l'esprit, aux Turcs, croyant que, dans la nouvelle action, il ne serait plus question ni d'Arabes ni de Turcs touraniens, ni d'Arméniens, ni de Kurdes, mais que tous le monde était ottoman et tous les citoyens égaux, jouissant des mêmes droits et remplissant les

1) La révolution arabe : Loc ; Cit ;

mêmes devoirs. Ils se groupèrent tous sous l'égide du comité union et progrés, et firent preuve d'une solidarité sans pareille dans les annales des révolutions."(1)

Pourquoi y eut-il un revirement de la part des Turcs ? Pourquoi cette harmonie se détruisit-elle pour laisser place à la division, aux discussions, aux haines, aux revendications nationalistes arabes ? L'auteur explique ce fait comme suit :

"Malgré qu'ils eussent pris pour devise les mots : fraternité, liberté et égalité, les Jeunes Turcs continuèrent à afficher leur mépris pour tout ce qui n'était pas turc et à trancher par une attitude orgueilleuse à l'égard des Arabes, ils s'évertuaient surtout à désarabiser les territoires, à combattre la langue et les tradtions arabes, ils récalmaient ouvertement la suprémattie pour les Turcs. A ces bravades, s'ajoutaiet les abus de l'administration et la répression, le gouvernement des Jeunes Turcs contracta notamment les emprunts en Europe pour envoyer des expéditions punitives en pays arabes. Cette façon d'administrer les peuples est sans précédent dans l'histoire des empires et les Turcs ne peuvent que l'avoir hérité, par le canal des générations préhistoriques de leurs ancêtres les Touraniens."(2)

Pour terminer son étude sur ce point, l'auteur synthétise les reproches qu'adressaient à l'époque les Arabes aux unionistes turcs.

1) La révolution arabe : Loc ; Cit ;
2) La révolution arabe : Ibid

s'accomodaient des Ottomans qui respectaient leur état social et leurs croyances jusqu'au jour où surgirent les "Unionistes", - Les affiliés au comité Union et progrés -. Un vent de xénophobie souffla alors avec violence dans les milieux turcs ; la sagesse politique des anciens gouvernants et leur tolérence envers les Arabes firent place au despotisle aveugle des unionistes Jeunes Turcs, qui s'attaquèrent avec violence à tout ce qui caractérisait les Arabes, jusqu'à leurs croyances ; ils ne rêvaient que d'une seule chose : défaire les communautés arabes, détruire tous les éléments qui entraient dans la composition de leur unité et les englober dans la collectivité turque. Plus loin, ajoutait l'auteur, ce vent de xénophobie eut le mérite de chasser les cendres accumulées sur le nationalisme arabe et d'aviser un foyer éteint depuis des siècles. Les Arabes réagirent en se dressant devant le despote et réclamèrent leur indépendance, le sabre à la main ; leur roi l'Imam Hussein prit la tête de ce mouvement (1).

Quant à la question arabe, l'auteur la définit ainsi :

> "Un conflit et un choc violent entre, d'une part, les Turcs qui s'étaient imposés dans le passé par la force, laquelle devait être la seule forme de gouvernement dans l'avenir nonobstant leur ignorance, leur pauvreté et leur petit nombre, et, d'autre part, les Arabes qui demandaient l'égalité au nom du droit, de la loi et, au besoin, de la force ; il convient d'ajouter à cette cause l'intervention de l'Europe dans ce conflit qu'elle croyait pouvoir exploiter en faveur de ses besoins" (2).

1) La révolution arabe : Loc ; Cit ;
2) La révolution Arabe : Ibid

La question arabe fut une des principales causes de L'entrée des Turcs en guerre contre les alliés, ce-pendant que l'Allemagne émettait sur les pays arabes des prétentions qui ne pouvaient laisser les leaders de ces pays indifférents. Les Jeunes Turcs, en favorisant l'Allemagne, croyaient pouvoir arriver à porter le coup fatal aux pays arabes. Un leader turc avait dit à ce sujet :

> "Nous n'aurons plus après cette guerre l'occasion de pouvoir exploiter les territoires ottomans comme une colonie turque, surtout les pays arabes que nos pères ont conquis par les armes ; en effet, notre pays est devenu malheureusement constitutionnel, cependant que nous formons une collectivité. Si nous entrons dans la guerre européenne et que nous ayons la victoire, nous condamnons le pouvoir pendant longtemps à notre élément turc. Si nos armés sont battues et que nous perdions notre pays, nous n'aurions rien perdu puisque l'avenir de ce pays n'est pas à nous et que, de toutes façons, nous ne garderons pas le pouvoir... Après nous le déluge"(1).

Dans ce livre, l'auteur traite les relations arabo turques, d'une manière attentive ; à ce propos il signale d'une façon particulière que :

> "Le plus grand évenement que l'histoire a enregistré fut la séparation de l'Arabie de la Turquie. Le peuple arabe possesseur du Coran, défendeur de la Kaâba et cuirasse de l'Islam, se détache du peuple turc, dont les chefs renièrent le Coran, incendièrent la Kaâba et éclaboussèrent l'Islam. Ce revirement a été déterminé par les violences

1) La révolution arabe : Ibid

feuille en arabe annexée à *L'Akhbar* (1) que le G.G. subventionna dont le contenu laissait d'ailleurs beaucoup à désirer, les éclairés musulmans étaient réduits à chercher cette alimentation dans les journaux et livres qui s'imprimaient en Egypte, en Syrie ou en Tunisie, ou alors en Turquie. Les livres leur arrivaient d'Alexendrie ou du Caire, D'Istambul, quelques fois même de Bombay ou de Calcutta (2). Ceux d'entre eux qui, moins rares qu'on le pensait, aspiraient non seulement à s'informer et s'intruire, mais encore à produire et à publier des travaux, s'adressaient à l'étranger.

Pour réagir contre "les excitations" venues de l'étranger et démentir les faux bruits ou les nouvelles "tendancieuses" (3), l'administration se rendit compte qu'il y aurait avantage à créer en Algérie, indépendemment du journal officiel *le Mobacher* (4), un journal purement arabe, qui, sans avoir l'étiquette officielle, serait inspiré par le G.G., dans le genre de la *Hadira* de tunis (5). Dans le même ordre d'idées, le G.G. opta pour l'encouragement de la publication d'ouvrages arabes de tous genres, pour permettre, selon lui, "autant que possible aux Algériens Musulmans de se procurer les livres dont ils ont besoin, dans leur propre pays, contrôlés et visés par l'administration avant leur publication, au lieu de les faire venir de l'étranger, d'où ils échappent à tout contrôle de l'administration" (6).

(1) Journal de l'administration coloniale qui existait en Algérie depuis 1839
(2) A.O.M. : 9 H 98 (58), rapport luciani, 4 décembre 1899.
(3) A.O.M. Loc ; Cit
(4) Le caractère officiel du MOBACHER le rendait inutilisable pour tout ce qui touchait aux discussions politiques. Dés le début de ce siècle l'administration décida de l'utiliser juste pour la publication des décisions et des avis amanant d'elle.
(5) En fait il n' y a jamais eu de journal purement arabe, mais juste une feuille dans L'AKHBAR
(6) Ses ouvrages portaient surtout sur la littérature arabe classique, et sur quelques questions religieuses, biographiques, et historiques anciennes.

Parallélement à la publication de nombreux ouvrages arabe (1), les arabisants européens et traducteurs de l'administration traduisaient un bon nombre d'ouvrages arabes, de l'arabe au français. Dans le *Mobacher* des années 1910-1912, on a relevé une assez longue liste des traductions et publications en langue arabe. (2).

B. - Les publications non-autorisées.

La première fois qu'on voit en Algérie, au début de la deuxième décennie de ce siècle, apparaître en moins de trois années, un aussi grand nombre d'ouvrage en langue arabe. Cependant, l'influence de l'Orient sur la sphère culturelle en Algérie n'en est pas moins toujours plus considérable ; beaucoup de brochures, périodiques et livres non affranchis par l'administration coloniale pénétraient dans le pays. Parmi tant d'autres livres imprimés au Caire, l'administration trouva, en 1937, en la possession d'un des dirigeants du PPA (3), à Alger, un livre intitulé : Thawrra al arabiyya, - la révolution arabe-, (4) qui semble avoir été utilisé par les membres de ce parti pour établir leur programme d'action, asseoir leur doctrine et mettre les Algériens dans les dispositions d'esprit des Arabes de l'Empire Ottoman d'avant-guerre.

Dans la préface de ce livre, l'auteur parle de la "douce résignation" dans laquelle se complisaient les Arabes à l'ombre du drapeau turc, depuis l'époque de leur décadence. Ils

1) Le G.G. Jonnart encouragea d'une façon particulière ce "mouvement" de publication de livres arabes.
2) Voir en annexe la liste intégrale de ces publications.
3) Il s'agi de Gharafa Brahim.
4) Le titre complet de ce livre est : La révolution arabe, ses causes et ses conséquences, Imprimerie d'El-Mokattem, le Caire, 9 décembre 1916.

Il convient de relever, en conclusion, les points suivants :

- Forgée dans le feu de la lutte armée, l'action extérieure du F.L.N. a revêtu un caractère militant pas son dynamisme et son intrandigeance par rapport aux principes fixés et aux objectifs poursuivis. Ce caractère a été renforcé par la liaison entre l'action extérieure et l'action intérieure.

- L'internationalisation du problème Algérien a permis au F.L.N. d'identifier son combat aux différentes luttes libératrices menées dans le monde et d'affirmer en même temps son indépendance et son autonomie de décision vis-à-vis de ses différents partenaires internationaux.

- En émergeant sur la scène internationale, le F.L.N. a eu à dialoguer avec des Etats constitués ayant des intérêts particuliers à préserver et devant composer avec l'environnement international. Le F.L.N a dû tenir compte de cette réalité en s'adaptant à la situation et en manifestant un certain pragmatisme dans le cadre des principes et des objectifs fixés. La nécessité de recueillir le maximum de soutien et d'isoler internationalement la France a renforé ce pragmatisme. Mais le critère de selection permettant de hiérarchiser les alliances a été le degré de solidarité manifesté en faveur de la lutte menée.

- L'action extérieure menée par le F.L.N durant la lutte de libération nationale a par les principes fixés, les alliances nouées et les cadres formés, jeté les bases de la politique extérieure de l'Algérie indépendante.

Professeur Amar HELLAL

MILITANTISME, NATIONALISME ET TENDANCE ARABO-MUSULMANE DES ETUDIANTS ET INTELLECTUELS ALGERIENS (1919 - 1962)

Il n'y a pas au monde, et depuis toujours, une culture fluençable et autre influançable, toutes les cultures du monde sont lexides, en principe. C'est leurs sujets qui ne le sont pas. Dans toutes les sociétés, il y a, ce qu'on appelle le "changeable' ' et "l'inchangeable", dans le premier cas on tolère le tolérable et dans le second on rejette tout, même les petits détails, parcequ'il s'agit, non de la forme, mais de l'essentiel des choses. C'est ce qui se passa, avec nos intellectuels algériens de l'époque coloniale, qui acceptèrent de l'orient l'acceptable, mais toute en conservant leurs principes quant à "l'inchangeable" de leur culture.

I. LES INFLUENCES CULTURELLES.

I.I LES PUBLICATIONS AUTORISEES

A. Leur nature

Jusqu'au début de ce siècle il n'existait en Algérie aucune publication arabe régulière permettant aux Algériens, qui avaient besoin comme tous les peuples modernes d'une alimentation intellectuelle de s'alimenter. A l'exception de la

maintenir des relations étroites avec les différents pays arabes pour souvegarder son autonomie. Il veille également à éviter de prendre part aux querelles inter-arabes et assigne, là encore, à l'unité arabe l'objectif prioritaire de l'action libératrice ; allant même jusqu'à préconiser l'utilisation de l'arme du pétrole dans la lutte qui devrait mener le monde arabe contre l'impérialisme. Enfin face aux projets d'unité organique à l'echelle arabe, le F.L.N. adopte une attitude prudente et met l'accent sur la priorité à accorder à l'unité maghrébine.

Face à l'unité maghébine, le F.L.N. adopte une position maximaliste nourrie par l'idée que la lutte de libération nationale menée en Algérie avant une dimension principalement maghrébine. La proclamation du 1er novembre 1954 a d'ailleurs fixé pour but à l'action armée "l'indépendance nationale dans le cadre Nord-Africain". Le F.L.N étant alors partisan de la généralisation de la lutte armée sur les trois fronts maghrébin. Avec l'indépendance du Maroc et de la Tunisie, le F.L.N. persista dans sa vision maghrébine et la plate-forme de la Soummam souligne à ce propos : "La situation politique Nord-Africaine est caractérisée par le fait que le problème algérien se trouve encastré dans les problèmes marocains et tunisiens pour n'en faire qu'un seul. En effet, sans l'indépendance de l'Algérie, celle du Maroc et de la Tunisie est un leurre.

De fait l'indépendance des deux pays et à la fois permis à la solidarité maghrébine de se manifester concrètement et elle a également suscité des divergences du niveau des états-majors politiques. Ainsi les troupes de l'A.L.N. ont disposé d'un vaste espace de manœuvre et de repli tout au long

des frontières algéro-marocaines et algéro-tunisienne ; les refugiés algériens ont trouvé asile en tunisie et au Maroc ; Tunis en abritant LE G.P.R.A. est devenu la capitale politique et diplomatique du F.L.N. La solidarité maghrébine s'est également concrétisée par la tenue à Tanger en Avril 1958 d'une conférence qui a jeté les bases de l'institionalisation de l'unité maghrébine. La Tunisie, avec le bombardement de Sekiet Sidi Youcef en Février 1958 ; a dû payer un lourd tribut pour son soutien à l'Algérie en lutte.

Les sujets de divergence n'ont cependant pas manqué : tentatives esquissées par la Tunisie et le Maroc de trouver une solution au conflit Algérien dans un cadre Franco-Nord-Africain devant nécessairement coûter au F.L.N. des concessions ; l'accord Franco-Tunisien du 30 Juin 1958 portant sur l'évacuation du pétrole d'Odjeli par le port Tunisien de la Skhira ; les revendications territoriales du Maroc et de la Tunisie...

Mais la nécessité de sauvegarder la solidarité maghrébine a permis de dépasser ces contradictions et de les reléguer au second plan pour ne retenir que ce qui unit. La solution des problèmes nés de ces contradictions est renvoyée après l'indépendance de l'Algérie. Ce renvoi a sans doute permis à l'Algérie combattante d'opposer à la France un front maghrébin relativement uni, mais il a hypothequé la construction unitaire à l'ère des indépendances maghrébines.

PAR SLIMANE CHEIKH